الشّهادةُ الشّهادة..

كم صارت هذه الكلمةُ صفراءَ جوفاءَ، تعني ولا تعني، كوجهٍ بلا قسماتٍ وأصابعَ بلا بصمات!
لماذا؟!
لأنّنا امتهنّا الاستسهالَ والابتذالَ والتّزويرَ.. أفقدنا الكلماتِ معانيَها، والمعانيَ غاياتِها، والغاياتِ سبلَها، والسّبلَ أنوارَ العقلِ الكاشفة..
فنحن نَخبِطُ خبطَ عشواءَ في أضاليلَ اخترعناها وصدّقناها وتاجرنا بها بدِمانا..
صرنا كأنِ العاشقين للموتِ، نُطعِمُه الفِلَذَ، ونقيمُ له العرسَ والمهرجانَ..

ماذا دهانا؟!
كلَّ يومٍ تُرفعُ نعوشٌ، تُرفعُ صورٌ، تُرفعُ راياتٌ وحججُ عقيدةٍ قضيّةٍ وأخرى،.. وتَرتفعُ العقيرةُ ببذلِ المزيدِ...
جنونٌ جنونٌ.. مازوشيّةٌ فائقةٌ ما بعدَها تلذّذٌ بعذابٍ إلاّ تلذّذٌ بتعذيبٍ في ساديّةِ الإرهابِ والتّرهيبِ!

هل هذا صحّيٌّ.. هل هذا صحيح؟
مَن ذا الّذي يَزعُمُ ويدّعي؟!!
مَن يزعُمُ ويدّعي أنّ رحمًا لا تنزِفُ، أنّ قلبًا لا ينفطرُ، أنّ جبينًا لا ينكسرُ، أنّ روحًا لا تَنصدعُ، أنّ كيانًا لا ينهدُّ،.. آنَ تحدثُ الميتاتُ.. ميتاتُنا الملتبسة؟!

ميتاتٌ ملتبسة؟
نعم. وإلاّ ألا مَن يَهدينا إلى المقدّسِ حقًّا الّذي يستأهلُ حقًّا؛ والفاحشةُ أو أختُها، في سياسةٍ واقتصادٍ وعمالةٍ وعمولةٍ، باديةٌ فاشيةٌ حقًّا وحقًّا!!

فالشّهادةُ الشّهادةُ هي ارتضاءُ الموتِ في سبيلِ مقدّسٍ نُحيي به ويُحيينا، لا «طلبُه» تهوّرًا أو ارتزاقًا بُهتانًا وزورا..
وما دون ذلك شراءُ تعزيةٍ بتسميةٍ وفديةٍ أو دِيةٍ وشعاراتٍ فارغة!
إنّ الحياةَ منذورةٌ للحياةِ إطلاقًا...

NDU Spirit
دوريّة حول علامات الحياة
في عالم جامعة سيّدة اللويزة

هاتف | 09 208994-6
هاتف/فاكس | 09 214205
www.ndu.edu.lb/research/ndu-press/spirit

رئيس التّحرير
جورج مغامس

التّحرير بالانكليزيّة
ماريو نجم

متابعة
ليديا زغيب

تصوير
ع. بجّاني، م. بو شبل، ن. نصر

تصميم
NDU | DBGO Design & Brand Guardian Office

تنفيذ
مطابع معوشي وزكريّا

NDU NOTRE DAME UNIVERSITY LOUAIZE LEBANON
GAUDIUM DE VERITATE
PRESS

ABSTRACTS خلاصات
www.ndu.edu.lb/research/ndupress

FOR INFORMATION للاستعلام
Zouk Mosbeh | Lebanon P.O.Box: 72 Zouk Mikael
Tel. | +961 9 208994 - 6
Tel.\Fax | + 961 9 214205
email | ndu_press@ndu.edu.lb

*إنّ الآراء الواردة في الـ NDU Spirit تعبّر عن كتّابها والمشاركين، وليس بالضّرورة عن المحرّرين.

المحتوى

كلمة ٤

- الأرضُ الخراب وابتسامة الموناليز — جورج مغامس ٤

مدارات ٧

- أيّام جبران... ٨
- في أربعين سعيد عقل ١٠
- من حَصاد العمل الرعويّ الجامعيّ ١٣
- .. وأنوار كنسيّة: ماري ألفونسين ومريم يسوع المصلوب — الأب فادي بو شبل ١٤

وجوه ١٩

- صليبا الدويهي بعد عشرين على رحيله... — الفنّان مارون الحكيم ٢٠
- فرح أنطون — ج. م. ٢٣

أبحاث ٢٧

- بين الذّاكرة الإبداعيّة، والذّاكرة التّأريخيّة في الشّعر العربيّ المعاصر- الياس أبو شبكة نموذجًا — إيلي مارون خليل ٢٨
- لعازر العهد الجديد ولعازر خليل حاوي — د. دزيريه سقّال ٣٣
- في الزّواج والأعراس عند العرب — د. عصام الحوراني ٣٨

٨

١٤

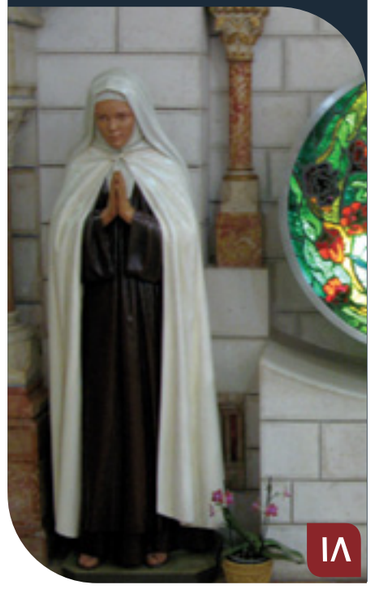

١٨

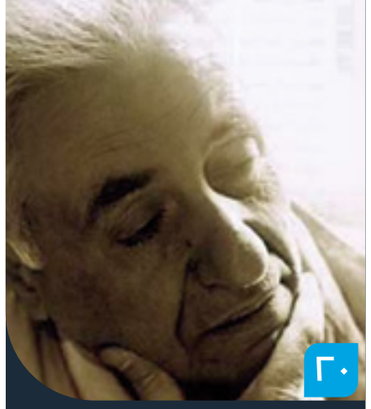

٢٠

٢٣

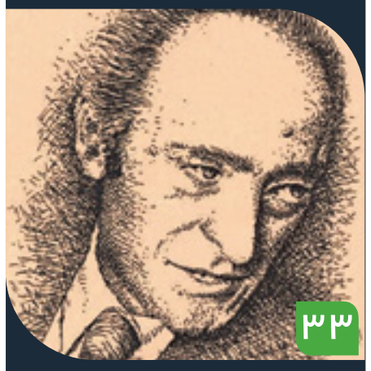

٣٣

٦٠

مقالات ٤٩

- تحدّيات المياه وفرص التّغيير — د. لويس حبيقه ٥٠
- استشهاد الحضارة — د. سليمان الصّدّي ٥٢
- ماذا بقي من الشّرق الرّوحانيّ؟ — د. يوسف عيد ٥٣
- متصرّفيّة جبل لبنان خلال الحرب العالميّة الأولى- وقائع وأرقام — رمزي توفيق سلامه ٥٤
- آمِنوا بالله... وحرّروه — الأب جوزف قزّي ٥٦
- لاءات الأب ميشال حايك الثلاث — الأب باسم الراعي ٥٩
- من أفلاطون إلى أغوسطينوس — د. أنطوان يوسف صفير ٦٣
- محطّات إيمانيّة — د. ضومط ع. سلامه ٦٨
- قراءةٌ في فكر الموت عند الموارنة — أنطوان افرام سلامه ٧٢
- الأيقونة فنّ إلهيّ يكتبه البشر — الأب نداء ابراهيم ٧٦
- مع جبران — شربل شربل ٨٠
- انتهت جاكلين؟ حاشا! — د. أنطوان معلوف ٨٧

براعم ٨٩

- الشباب بين الطموح والجروح — ميشيلّا رستم ٩٠
- الوصيّة الرابعة — فادي يوسف خليل ٩١

قصّة ٩٢

- ابتسامة رضا — د. ناتالي الخوري غريب ٩٣

شعريّات ٩٧

- أكتبي عنه بوريقاتِ روحك — د. غالب غانم ٩٨
- هل من أذنٍ تسمع؟! — عبده لبكي ١٠٠

جديد منشوراتنا ١٠١

- أيّها الأصدقاء ٣
- محاور في فلسفة كمال الحاج
- جبران خليل جبران - في أعمال غير معروفة
- سعيد عقل - أجراس الرحيل... والياسمين

كلمة

جورج مغامس

الأرضُ الخراب وابتسامةُ الموناليزا

أين أنتِ يا هناءةَ البال؟!
لا في ليلِ نجدُك، ولا في نهار..
هل خُطفتِ، هل نُفيتِ، هل قُتلتِ..، أم مَللتِ أرضَ البشر؟
الهمومُ تلاحقُنا، تلازمُنا، تقضُّ علينا مضاجعَنا،..
فنحن في دوّامةِ الأنفاقِ والآفاقِ المظلمةِ، ولا صوتَ يؤنسُ أو يدٌ تُعينُ،
بل هي الدّنيا قائمةٌ قاعدةٌ على قرعِ طبولِ الفُرقةِ والشّقاقِ والنّفاقِ..
فثَمّةَ ضيقٌ كثيرٌ وصريفُ أسنانٍ!

■■■■

أين أنتِ يا هناءةَ البال،
يا طعمَ الجوزِ واللوزِ بماءِ السّكّرِ فَتحةَ يدِ الجدّاتِ.. وُسعَ حكاياتِ المساءِ
يا رضى الله ورضى الوالدَين في عرفانٍ وإكرامٍ.. وبالسّلوكِ المستقيمِ
يا قَفزًا وجَمزًا وخَطرةَ الغوى في ساحةِ الأعيادِ وفي ملعبِ الهَوشاتِ
يا غيرةً في عَوناتِ الجَنى والبناءِ، وآنَ تُقرعُ للأفراحِ والأتراحِ أجراسٌ
يا قَيلولةً بفَيءِ شجرةٍ، وغفوةً بعدَ دَهكةِ العَرقِ..
اللهَ اللهَ يا هناءةَ البالِ،
يا أيّامًا ووجوهًا وطبيعةً منسيّة..
أين أنتِ؟!

■■■■

أينَ أنتِ؟
اللقمةُ مغموسةٌ بالدّمعِ والدّمِ، وكأسُ الماءِ تَجِفُّ في الحلقِ، وعلى الطّوى تتهالكُ الأجسادُ..، عيونٌ تلتهمُها النّيرانُ: قتلى ومشرّدون وما من حجرٍ على حجرٍ في متاهاتِ السّوادِ...
ثمّ هَهنا مخيّماتٌ: تشتعلُ بالحَرِّ، ترتعدُ بالقُرِّ، تُبتلى بالجوعِ، تَبلى بالمرضِ..
وفي الهُناك مهاجرون بقواربَ ومراكبَ تعاني التّيهَ والدُّوارَ في هَيجةِ الأمواجِ.. تصادمُ الأهوالَ تصارعُ الغرقَ..
أمّا الدّروبُ فلعَمالةِ الأطفالِ وتسليعِ الكراماتِ والأعراضِ..
وتتهاوى عليكَ انتهاكاتٌ وتجاوزاتٌ وسرقاتٌ.. ارتكاباتٌ شتّى واغتصاباتٌ وعنفٌ كثيرٌ وحماقاتٌ..، تَضنَى بالغَصصِ وبالاختناقِ.. تَشلُّ يدًا ورجلاً.. يطفحُ قلبُك بالأسى.. ترى الأفْقَ معقودًا، إنْ لم يكنْ باليأسِ فبالسّأمِ..
فعبثًا تطلبُ هناءةَ البالِ!

■■■■

تلك الهناءةُ ضاعت منّا أضعناها،
فلم يَعدْ للشّمسِ بهجةٌ في شَقّةِ الفجرِ،
ولا رَونقٌ في نُثارِ الأصيلِ..
والقمرُ بهاءٌ غَوَرَ في غَسَقٍ وذَوى في مَتاهةِ الأرقِ العَتيِّ..
نجمةُ الصّبحِ ضَلّت طريقَها وهَوت في الهوّةِ السّوداءِ..
العالمُ دَباقةُ لُزوجةٌ ووُحولة
العالمُ أشواكٌ وأشراكٌ وشَبقُ السّفاهاتِ في أنوثةٍ وفي ذكروة،
فكيف إليها أو إلينا السّبيلُ؟!

■■■■

زهرةٌ، كانت تعطّرُ أنفاسَنا وتُشيعُ في أرجائنا الأحلامَ..
بسمةٌ، كانت تفتّحُ فينا أنجمًا تكحّلُ بأنوارِها مآقينا..
كِلْمةٌ حلوةٌ أو فخمةٌ، كانت تجوبُ بنا مناهلَ العطرِ وربى النّاياتِ وتُسكِنُنا بيتَ طاعةِ القناعاتِ..
صلاةٌ كانت تُسكِرُنا،
وكانت تحبّبُ إلينا الحياةَ حتّى الجراحاتُ..
كنّا نَشبعُ من كِسرةٍ، نَفهمُ من نظرةٍ، نَخجلُ من هفوةٍ ومن دمعةٍ، وتُفرحُنا يدٌ تعزّينا ببعضِ همّةٍ وبعضِ اهتمامٍ..
كنّا.. وكانت لنا هناءةُ البالِ،
وأقبلَ عصرُ الأرضِ الخرابِ...

■■■■

في الأرضِ الخرابِ، حيثُ قواعدُ السّلوكِ انّسخت وتفسّخت وكادت تنقلبُ رأسًا على عقبٍ تَسدُّ منافذَ النّورِ تعمّمُ السُّخطَ والصَّخَبَ وظَنًّا أَنْ دون رَشادِها شَيبُ الغرابِ،
في الأرضِ الخرابِ، حيثُ اللغةُ شَرَكٌ نَعثرُ بحبائلِه كلماتٍ تقودُ الحكماءَ والمجانينَ على السَّواءِ وتضمّنُ الأوصافَ أحكامًا،
في الأرضِ الخرابِ، حيث الزّرازيرُ استنسرت والثّعالبُ استأسدت وكثُرت فَواشي مَن يَكهَنُ ويكاهِنُ،
في الأرضِ الخرابِ، حيثُ الحجرُ ليس من نبضِ قلبٍ والعيلةُ ليست من نورِ عينٍ والتّرابُ ليس من مساقطِ الرّؤوسِ،
في الأرضِ الخرابِ هذه،
يا مَن يُرينا مَقامًا لهناءةِ البالِ، نزورُه ونستشفعُ!
ولكنّها الخيبةُ تصفعُنا...

■■■■

بلى. الخيبةُ تصفعُنا:
فليس في الأرضِ الخرابِ كرمةٌ تُطعِمُ العنبَ تَسقي النّبيذَ، وليس عصفورٌ يغرّدُ يرقّصُ الأغصانَ يجالسُ فنجانَ قهوةٍ في طلعةِ صبحٍ أو عشيّة، وليس مَن يروي الخرافاتِ والأساطيرَ..
فرسانُ الخيالِ.. ربّاتُ الشّعرِ.. الطّواحينُ والمعاصرُ وأنوالُ الحريرِ، كلُّها هاجرت ورصدت دروبَ العودةِ بتنّينِ البحارِ البعيدة..
على ذواكرِنا الجميلةِ بيوتٌ عنكبوتٍ تقطعُ عن نوافذِها النّورَ والهواءَ..
أمّا الأهازيجُ الآسرةُ فحيلةُ تمارا الماكرةِ تقودُ المسافرَ إلى الموتِ في وحشةِ الغربةِ والحَسراتِ..،
فإنّها الخيبةُ تصفعُنا بأنواعِ المراراتِ!

■■■■

تمارا الماكرةُ.. المطعِمون بدل الرّغيفِ حجرًا وبدلَ السّمكةِ حيّةً.. البائعون أنفسَهم للشّيطانِ من أجلِ مُلكٍ أو مُلكيّةٍ.. أهلُ الهَوّارةِ يتهوّرون ويهوّرون.. وأشباهُهم السّافرون والمقنّعون، هم جميعًا صفعةُ الخيبةِ بأنواعِ المراراتِ.. صنّاعُ تلك اللعنةِ العظمى: الأَنَرشيّةِ الفوضويّةِ، الأَنَرشيّةِ الّتي قوّضتِ الدّولةَ في أنظمتِها وقوانينِها وفي المؤسّساتِ، فتهاوى الانضباطُ وتهاوتِ الحرماتُ، وصار كلُّ طبّالٍ بعرسٍ سيّدًا آمرًا وناهيا..
استيقظت خلايا القبائلِ النّائمة، واستشرت لها أذرعٌ وأفخاذٌ، تقمّصت وجهَ الدّويلاتِ والأحزابِ وما أنتجت أو حمت من عصائبِ غدرٍ فاجرٍ نحّارٍ..
يا للهولِ، والحبلُ على الجرّارِ،.. وليس مَن ينقذُ ابتسامةَ الموناليزا
إنّ ابتسامةَ الموناليزا في قبضةِ النّيرانِ!

■■■■

في الأرضِ الخرابِ، ابتسامةُ الموناليزا في خطرٍ؛ فمَن مِن عبثٍ يبعثُ هناءةَ البالِ؟!
هل مَن يرتضي أن يقضيَ لا يعلنُ ولاءً لجبروتِ الطّواغيتِ والوطاويطِ ولا يسترحمُ، يهزُّ الضّمائرَ، يشحذُ العزائمَ بالصّرخةِ المدوّيةِ: حرّيّة حرّيّة.. الحرّيّةُ لهناءةِ البال؟!!
فلنعلّقْ نجمةَ المجوسِ في سماواتِنا، لعلَّ شيئًا ما يَحدثُ يشبهُ صباحَ عيدِ الميلادِ، يَهَبُ القلبَ جناحَين وحبّةَ كرز...

www.georgesmghames.com

مدارات

أيّام جبران خليل جبران في جامعة سيّدة اللويزة

معرض ونشاطات طلّابيّة مرافقة خلال أسبوعين

في ١٦ آذار ٢٠١٥ تمّ افتتاح معرض جبران خليل جبران في لوحات وأوراق غير معروفة. تكلّم في حفل الافتتاح الأب وليد موسى، رئيس الجامعة، منوّهًا بأهميّة التعاون مع لجنة جبران الوطنيّة لأهداف تربويّة جامعيّة؛ والدكتور طارق شدياق، رئيس لجنة جبران الوطنيّة، مشدّدًا على معنى الوصول إلى أبناء الجيل الجديد من خلال نشاطات مماثلة؛ والأستاذ سهيل مطر، نائب رئيس الجامعة للشؤون الثقافيّة، مذكّرًا بالذكرى الرابعة والثمانين لرحيل جبران؛ والدكتور أمين ألبرت الرَّيحاني، الأمين العامّ لمؤسّسة الفكر اللبنانيّ، مُسَلِّطًا الضوء على دور المؤسّسة في إرساء حركة الوعي الوطنيّ الجديد حول تراثنا الفكريّ الحديث.

ضمّ المعرض ٣٥ لوحة زيتيّة ومائيّة وفحميّة، مع ١٣ صفحة بخطّ جبران بالعربيّة والإنكليزيّة، كما ٢٤ ترجمةً مختلفة لكتاب النبيّ و٣٨ ترجمةً لسائر المؤلّفات.. إلى لغاتٍ أوروبيّة وآسيويّة متنوّعة.

جديد هذا المعرض أمران: أوّلاً معظم هذه الموادّ غير معروضة في متحفه في بشرّي وغير متداولة بين الناس، فالغاية من عرضها التعرّف إليها وألفة مضمونها وخصائصها؛ وثانيًا أنّ هذا المعرض ذو أهداف تربويّة بكون أنّ النشاطات المرافقة تمحورت حول الطلّاب وتمّت بمشاركتهم الفعّالة.

ومن أبرز النشاطات التي رافقت المعرض خلال أسبوعين: دراسة ميدانيّة حول جبران وفق نصوص واستمارات معدّة للمناسبة، نظّمتها د. سلمى عبدالله، أستاذة الأدب العربيّ، قام بها طلّاب التذوّق الأدبيّ في الجامعة؛ ومناقشة لغة جبران ومدى تأثّرها بلغة العهدين القديم والجديد وفق محاضرة قدّمها د. ناجي عويجان، أستاذ الأدب الإنكليزيّ والأدب اللبنانيّ الأميركيّ؛ ثمّ كان أنْ على طلّاب الفنون التشكيليّة أن يختاروا بعض اللوحات مادّةً لمشاريع ضمن برامجهم الدراسيّة، بإشراف الأستاذة دانييل زكّور، أستاذة الفنون التشكيليّة؛ وطلّاب الموسيقى عمدوا بدورهم إلى إعادة توزيع بعض الألحان الجبرانيّة المعروفة، محاولين تلقيحها بموسيقى الجاز الحديثة، ما أنتج مواليد خلاسيّة محبّبة، بإشراف د. لولا بيروتي، أستاذة الموسيقى الحديثة؛ كما تخلّل هذه الأنشطة عرض دوريّ للشريط الوثائقيّ الذي أعدّه متحف جبران، وعرض آخر لبرنامج بيبليوغرافية جبران أعدّته مؤسّسة الفكر اللُّبنانيّ في الجامعة.

ولكلِّ ما تقدّم، ونظرًا للتنوّع من جهة، وللتركيز على مشاركة الطلّاب من جهة أخرى، أُطلق على المعرض والنشاطات المرافقة عنوان: **أيّام جبران خليل جبران في جامعة سيّدة اللويزة.**

ولمزيدٍ من الإفادة، وُزِّع في المعرض كتيّبٌ، من مئة صفحة ملوّنة، ضمّ جميع اللوحات المعروضة مع شروحاتها بالعربيّة والإنكليزيّة، إضافةً إلى كلمات الافتتاح، فإذا هو وثيقة فنيّة وأدبيّة حول حدث ثقافيّ وطنيّ مميّز.

سعيد عقل

الاسمُ المقيمُ في جامعتنا

سعيد عقل اسمٌ مقيمٌ في جامعة سيّدة اللويزة؛ وهو ما عبّر عنه رئيس الجامعة ***الأب وليد موسى*** *في عظة قدّاس الذكرى الأربعين للوفاة، بقوله*: في كلّ واحد منكم ومنّا شيء من سعيد عقل.. نحبّه، نرافقه، نصفّق له، ننتقده.. يزرع في نفوسنا الأمل والكبر والعنفوان.

وأضاف: نعم، سعيد عقل، كان متطرّفًا، وكان مجنونًا، وكان متمرّدًا، ولكنّه كان قدّيسًا، بصدقه وطفولته وخشوعه وشجاعته، وكلّنا نقرّ ونعترف، وهو الذي قال:

أحبُّ عقليَ لكن لا خاليًا من جنونِ

أجمل ما في سعيد عقل أنّه لم يتّخذ موقف الحياد، ولم يجلس على الرصيف، ولم يقتنع بصفة المتفرّج.

من كلّ القضايا الوطنيّة، السياسيّة، اللاهوتيّة، الاقتصاديّة، التاريخيّة، الثقافيّة وو... أخذ موقفًا... أصاب أو أخطأ؟ هذا للتاريخ ولحكم الله، ولكنّه كان متصالحًا مع نفسه، يؤمن بالكلمة، يقولها، لا يخاف لومة لائم، له من الشجاعة والصلابة ما يجعله لا يخشى سلاحًا، ولا يهاب إلاّ سيف الحقّ.

أمضى عمرًا مع الكلمة، فكأنّها هي الحبيبة المضيئة التي شعّت على أوراقه، فتجسّدت قصائد ومقالات وأساطير وفلسفات وبدائع.

ثمّ تابع: يهمّني اليوم، وبصورة خاصّة، أن أستضيء بسعيد عقل وأضيء على جانب لاهوتيّ دقيق، في شخصيّته: فقد قال فيه غبطة البطريرك الراعي ساعةَ وداعه: *«كان ينهل من النبع الصافي، نبع الإنجيل وعلم اللاهوت، مثل شعراء المسيحيّة القدّيسين أمثال افرام السريانيّ ويعقوب السروجي وأغوسطينوس».*

رحل وهو لا يملك شبرًا واحدًا من أرض لبنان.

هو اغتنى بالله...

نعم، أيّها الأحبّاء، نهل سعيد عقل من يسوع إلى حدّ السكر والعشق. فهذا الرجل بمارونيّته، بمسيحيّته، بروحانيّته الشرقيّة، ما كان يومًا إلاّ أخًا للانسان، لا يميّز ولا يفرّق:

أنا أينما صلّى الأنامُ رأتْ عيني السماءَ تفتّحت جودا

وهذا الرجل لم يتّخذ المسيحيّة شعارًا، بل اتخذها مسيرة حياة ببعدين أساسيّين أصيلين: بُعد المحبّة، وبُعد العطاء والكرم.

تصفّحوا قصائده ومقالاته: كلّها محبّة: محبّة الله، محبّة الوطن، محبّة المرأة، محبّة الطبيعة، محبّة زحلة؛ ومع كلّ ذلك: محبّة القيم التي لولاها، لما كان إنسان أخًا للإنسان.

أمّا بُعد العطاء والكرم، فكلّنا تعرّفنا إليه من خلال عطاءاته المختلفة، حتّى إنّه تخلّى عن كلّ شيء على هذه الأرض؛ فهذا السخيّ، في جوائزه وهداياه، رحل وهو لا يملك شبرًا واحدًا من أرض لبنان. هو اغتنى بالله، أمّا غيره «فبالتراب غنيّ».

ونحن، جامعة سيّدة اللويزة، اغتنينا به، وسيبقى اسمه أغنيةً دائمة فيها، هي التي أحبّها وأحبّته.

أمّا نشيد الجامعة، معه ومع الياس الرحباني، فستبقى كلماته منارة لنا في عملنا الثقافيّ والتعليميّ.

تبقى كلمة أخيرة: سعيد عقل هو الذي صلّى قائلاً: *أعطِنا ربّي... أعطِنا أن نراك.*

وخاطب الله في ختام قصيدته «غنّيت مكّة»، بقوله:

وجمالُ وجهِك لا يزال رجًا يُرجى وكلُّ سواهُ مردودًا

ورحل مناجيًا مبتهلاً: *أجمل من يسوع، شوفة يسوع...*

وفي الذكرى، أعلن ***الأستاذ سهيل مطر*** *نائب الرئيس للثقافة والعلاقات العامّة، باسم الجامعة:*

١. نحن حريصون على إرث سعيد عقل الفكريّ ونشره. كما نحن حريصون على اسم سعيد عقل وكرامته، حرصَ بعلبك على أعمدتها، وجبيل على قلعتها، وحرص جامعة سيّدة اللويزة على أيقونة العذراء.

٢. نحن نلتزم إقامة بناء، في هذه الجامعة، على اسم سعيد عقل، يضمّ متحفًا وقاعة محاضرات ومكاتب للأبحاث والدراسات، إلى جانب الكرسيّ الأكاديميّ: «كرسيّ سعيد عقل».

٣. نحن نتعهّد نشرَ تراث سعيد عقل، ولاسيّما المخطوطات منها، نثرًا وشعرًا، والتي لم تُنشر بعد. وهذا النشر سيكون متعدّد الاتجاهات، طباعةً وورقًا وانترنت وإلكترونيّات مختلفة.

٤. نحن حريصون على إفساح المجال، لكلّ النقّاد، على اختلاف مواقفهم من سعيد عقل، لدراسة إنتاجه، بدقّة وموضوعيّة واحترام. (والكتاب الذي سيوزّع على المدخل «أجراس الرحيل... والياسمين» هو باكورة ما كتبه بعض النقّاد والإعلاميّين والشعراء والأدباء خلال الأسبوع الأوّل من وفاة سعيد عقل).

٥. نحن حريصون على الإبقاء على جائزة سعيد عقل، شهريّة أو أسبوعيّة، وستحدّد آليّة العمل في القريب العاجل.

٦. نحن حريصون على بقاء زحلة محجّة لنا، لزيارة قبر هذا الرجل العظيم والصلاة عن روحه، والتعرّف عن كثب إلى مدينة جمعت النهرين: سعيد عقل والبردوني.

ونهران أوسعُ من عالمٍ   يقولان: أيّهما تنتقي؟

٧. نحن نسعى وسنتابع العمل على إدخال شعر سعيد عقل ونشره الى برامج التعليم في المدارس والجامعات. علّموا شعر سعيد عقل، تعلّموا طلاّبكم وأولادكم ثلاثة: الله، لبنان والجمال.

هذه الالتزامات والتعهّدات التي ذكرتها، أضاف مطر، لن ننفرد بها، بل سنتعاون، معكم، جميعًا، على تحقيقها. ومن هنا، نرفع الصوت، اليوم، وننادي الوزارات المعنيّة، المؤسّسات الثقافيّة والفكريّة، دور الطباعة والنشر، المنظّمات الحضاريّة، عربيًّا وعالميًّا، الهيئات والقوى المصرفيّة والاقتصاديّة، وسائل الإعلام، أهل القلم، أصدقاء سعيد عقل وحاملي جوائزه، ندعوهم جميعًا إلى التعاون والصدق في العمل وابتكار المبادرات، حفاظًا على فكر هذا الرجل. وأنّنا في إهمالنا لهذا الدور، نساهم من حيث ندري أو لا ندري، في تهديم هذا الوطن، وفي تحطيم صورته الايمانيّة الحضاريّة. وساعة قال سعيد عقل: *أنا لبنان.* كان يخاطبنا، جميعًا، ويقول لنا: أوصيكم. إنّه لبنان وكفى...

وساعة انتفض في وجه سائله قائلاً: *لسائلي: أإلهٌ أنتَ؟ قلتُ: بلى.*

كان يفكّر، بكلّ منّا، أنّه على صورة الله، فلا نشوّه أو نمحو. صحيح أنّه، وبلا وعيه، كتب على قبره في زحلة:

وقلتُ: حياتي العزمُ حتّى إذا أنا   انتهيتُ، تولّى القبرُ عزميَ من بعدي

نعم، يا سعيد عقل، سنتولّى، نحن والقبر، عزمَك من بعدك، ليبقى لبنان، وتبقى الحضارة، ويبقى الله.

ومن زهرِ لبنانَ، خُذْ عرشًا ومن قِيم   لا زهرُ لبنانَ منّانٌ ولا القِيَمُ

أكثرُ من مئة قلم، في أكثر من ثلاثمئة صفحة، صورةٌ أخرى من صور المحبّة والتقدير لسعيد عقل، تنشرها جامعة سيّدة اللويزة بعضَ التزامٍ من التزاماتها حيال هذا الشاعر الفذّ..

فما سابقَ الدّمعَ من حبرٍ جرى في الصّحفِ (إعداد ليالٍ نعمه مطر)، ضمّته دفّتا هذا الكتاب: **سعيد عقل- أجراس الرحيل... والياسمين**، مع CD يوثّق يومَ الوداع؛ فهو، كما قال سهيل مطر، في تقديمه له على غلافه الأخير: «هذه الكلمات، قيلت فيه، لا رثاءً، بل تقديرًا واحترامًا، جمعنا بعضَها من وسائل الإعلام، خلال أسبوع من وفاته، فكانت إكليلاً من الياسمين على جثمانه...»

من حصاد العمل الرعويّ الجامعيّ

السّهرة المريميّة- شبابُنا لكِ ٩

مريم نور عيالنا

في إطار السّنة الّتي كرّسها قداسة البابا فرنسيس للتّفكير حول العائلة المسيحيّة ودورها في المجتمع، وقناعةً من الشبيبة بأهميّة هذا الموضوع، كان العمل الرّعوي الجامعي حريصًا على عيش سهرته المريميّة السّنويّة تحت عنوان «**مريم نور عيالنا**».

تخلّلت السّهرة تلاوة المسبحة ومشاهد تجسّد مراحل حياة أسرة القدّيسة تريزيا الطفل يسوع، وأجواء خشوعيّة ملؤها السّلام والفرح، شارك في إحيائها المرنّم غبريال صاصي، والإخوة المبتدئون من دير مار سركيس وباخوس- عشقوت، وجوقة العمل الرّعوي الجامعيّ منشدين: «يا مريم يا ناي ألحان السما»، «يا أمًّا ولدت حياة»، «كلُّكِ جميلة» وغيرها... وقدّم الطّلاب رقصة تعبيريّة، ثمّ كُلِّلَت العذراء بالورود واستودعت القلوبَ والضمائر...

وفي المناسبة قال المرشد العامّ الأب فادي بو شبل:

«من سينودُس الأساقفة حول موضوع «التحدّيات الرعويّة للعائلة في إطار التّشبير الجديد»، إلى إجتماع مجلس البطاركة والأساقفة الكاثوليك في لبنان حول موضوع العائلة، نرى يا عذراءُ، أنّ كنيسة المسيح تُصلّي وتُفكّر، تكتُب وتُعلِّم حول موضوع العائلة، وكأنّي بالعائلة الّتي تتعرَّض اليوم لكلِّ أنواعِ الحروب، تحتاجُ جُهدَ كلٍّ منّا، وجُهدَ الكنيسة والدولة، لتعودَ وتأخذَ مكانتَها الحقيقيّة في المجتمع وأهميّتَها الّتي لا بديلَ لها في حياةِ الإنسان، كلِّ إنسان.

وفي الظروف الصّعبة الّتي نعيشها كلّنا، والتحدّيات الجَمّة الّتي عبَّر عنها أبناءُ السينودس في أربعة: الأمانة الزوجيّة، صعوبات الحياة، المشاكل الإقتصاديّة، والهجرة، يطلُّ وجهُك أيّتها الأمّ والبتول نورًا لعيالِنا: نورًا يَهدينا إلى مَن هو الطريق والحقّ والحياة؛ نورًا يُرشِدنا إلى مَن هو، أمس اليوم وإلى الأبد؛ نورًا يؤكّد لنا أنّ الّذي مشى على دروب الأراضي المقدّسة لا يزال يمشي معنا على دروبِ مُدُننِا وقُرانا، يمشي مع كلٍّ منّا في تحدّياتِهِ اليوميّة.

نعم يا عذراء، إنَّ وجهَكِ المُشرقِ بنور الآتي لِيُنيرَ كلَّ إنسان، يزرعُ في قلوبِنا السّلامَ والفرَح بأنّ الّذي جعلَ من الإثنينِ واحدًا، لا يزالُ قادرًا أن يُحوِّلَ ماءَ الفتورِ واللامبالاةِ والأنانيّةِ إلى خَمرِ الحوارِ والأمانةِ والمحبّةِ والتّفاهم.

في هذا الوقت المُبارَك، أتينا مع عيالِنا لِنُكرِّمَكِ ونُحِبَّكِ ونأخُذَكِ قدوةً وأُمًّا لنا.

أتينا مُستعينين بعائلة عاشَت القداسة، وكان لها علاقةٌ مُميّزة معكِ ومع يسوع ابنِكِ. أتينا مع لويس وزيلي وتريزيا مرتان لِنَنعَمَ بحضورِكِ في هذه الأثناء. ولكي بشفاعة صلاة هذه العائلة، تستطيعُ عيالُنا أن تعيشَ ربيعًا جديدًا مُتجدِّدًا دائمًا وأبدًا، بحضور العمّانوئيل. ولتَكُن صلاتُهم من أجلِ كُلٍّ منّا، دَفعًا جديدًا نحوكِ أنتِ يا نورَ عيالِنا، لنتعلَّمَ منكِ أن نقولَ لربِّنا وفادينا: «ليكُن لنا بحسبِ قولِكِ» (لو ١-٣٨). آمين».

أنوار كنسيّة:
ماري ألفونسين غطّاس
مريم يسوع المصلوب بواردي

الأب فادي بو شبل المريميّ
المرشد العامّ في جامعة سيّدة اللويزة

من الأراضي المقدّسة إلى المذبح المقدّس

مقدّمة

كما تتكوّن اللآلىء في أعماق البحار، كذلك تنمو القداسة في أعماقٍ من يفتح مجالاً للروح القدس ليصوّر في كيانه صورة المسيح يسوع.

في صمتِ الأديار، في النّشاطِ والعمل، في الرسالةِ والتّبشير... نجد نفوسًا عرفَت كيف تُلقي بذاتها بين يدَي الله، تاركةً لعنايته أن يهتمّ بها، ويجعلها شريكة له في الحياة الأبديّة؛ هذه النفوس ندعوها بحقّ قدّيسة، لأنّها دخلت في عالم الله من خلال الصمت والتّواضع والصّلاة والمحبّة.

أكثر من ألفي عام مرّت على تجسّد كلمة الله، ربّنا يسوع المسيح، والكنيسة لا تزال ترفع على مذابحها أشخاصًا عرفوا كيف ينسون ذواتهم من أجل المحبّة، وكيف يُظهرون مجد الله.

هؤلاء القدّيسون الّذين يفيضون على العالم حبًّا جديدًا، يكشفون للناس، بمَثل حياتهم وتعاليمهم، رحمةَ الله اللامتناهية.

وفي هذه السّنة ٢٠١٥، الّتي أعلنَها قداسة البابا فرنسيس سنة المُكرَّسين، نحنُ على موعدٍ مع الفرح الروحيّ من خلال إعلان قداسة أربع مُكرَّسات، في ١٧ أيّار، وهنَّ: ماري ألفونسين دانيل غطّاس، ومريم يسوع المصلوب الكرمليّة، وجانّ إيميلي دو ڤيلنوڤ، وماريّا كريستينا للحبل بلا دنس.

الجديرُ ذِكرُهُ أنَّ ماري ألفونسين ومريم يسوع المصلوب هما من الأراضي المُقدَّسة، حيث وُلدَ وعاشَ وحقّق تدبيره الخلاصيّ سيّدُنا وإلهُنا يسوع المسيح. ولذلك سنخصّصهما بالتّعريف.

ماري ألفونسين

أبصرت النور في القدس، في ٤ تشرين الأوّل ١٨٤٣، وسمّاها والداها «سلطانة».

في قلب العائلة الكبيرة الّتي وصل عدد أطفالها إلى ١٩، ولم يعش منهم إلاّ ٨، تعلّمت «سلطانة» محبّة الله من والديها، فكانت تُمارس إيمانها المسيحيّ من خلال المشاركة اليوميّة بالذبيحة الإلهيّة، وصلاة المسبحة الورديّة، وزيارة الأماكن المقدّسة الّتي لها علاقة مباشرة بتجسّد الربّ يسوع وموته وقيامته، متأمّلة في محبّة الله الجَمّة.

دخلت مدرسة القدس الرعويّة بعمر ٥ سنوات، وما إن بلغت التاسعة حتّى قبِلت سرّ التثبيت على يد البطريرك ڤاليرغا.

وصادف ذاتَ يوم أنّها كانت تشارك في احتفال دخول اثنتين من رفيقاتها إلى الحياة الرهبانيّة، وكانتا الأوليين من القدس تسلكان هذه الدرب، فتأثّرت وقالت: «وأنا أيضًا، أريد أن أصبح راهبة».

هذه الرغبة تحقّقت سنة ١٨٥٨، السنة الّتي ظهرت فيها العذراء مريم للقدّيسة برناديت سوبيرو في قرية لورد الفرنسيّة؛ فدخلت «سلطانة» إلى رهبانيّة القدّيس يوسف الظهور، وحملت إسم ماري ألفونسين، تيمّنًا بالعذراء مريم والقدّيس ألفونس دي ليغوري، واضع كتاب: «أمجاد مريم البتول»، والمعروف بحبّه العميق لأمّ الله.

أبرزت نذورها الرهبانيّة على جبل الجلجلة، واهتمّت بالتّعليم المسيحيّ في مدرسة راهبات القدّيس يوسف الرعويّة في القدس. وهناك أسّست وأدارت أخويّة «بنات مريم» الّتي اتّخذت لها اسمًا: أخويّة «الحبل بلا دنس»، والّتي من أعضائها خرجت دعوات للرهبانيّة الجديدة التي حملت اسم رهبانيّة الورديّة المقدّسة.

إبتداءً من سنة ١٨٧٤، وتحديدًا في بيت لحم، بدأت الأخت ماري ألفونسين بمشاهدة رؤى للعذراء مريم وللعائلة المقدّسة، يدور محورها حول أهميّة المسبحة الورديّة وأسرارها، وتأسيس رهبانيّة محليّة جديدة.

كشفت العذراء لها أنّها تريد رهبانيّة مكرّسة على اسمها: «رهبانيّة الورديّة المقدّسة». وللتحقّق من صحّة هذه الرؤى، منحت العذراء نعمة الشّفاء لأختها «رجينا»، ودعت أختها «حنّة» للحياة الرهبانيّة؛ والأخيرة هي الّتي ستتولّى رئاسة الرهبانيّة الجديدة مدّة ٢١ سنة.

في السبت الموافق ٢٤ تمّوز ١٨٨٠ كانت الإنطلاقة الأولى لرهبانيّة الورديّة المقدّسة، حيث التقت خمسُ فتيات، دخلن البيت الذي باركه الأب يوسف يمّين، الذي اختارته العذراء مرشدًا للرهبانيّة الجديدة، وهنّ يرتّلن نشيد العذراء: «تعظّم نفسي الربّ»، والفرح يغمر قلوبهنّ.

فرحت الأخت ماري ألفونسين بخبر تأسيس الرهبانيّة. وازداد فرحها عندما علمت أنّ فضائل الأخوات مبنيّة على محبّة الربّ يسوع وأمّه القدّيسة، والرابط فيما بينهنّ التواضع والمحبّة، وغايتهنّ خلاص نفوسهنّ والقريب.

بعد ٢٣ سنة أمضتها في حضن رهبانيّة القدّيس يوسف الظّهور، التي أحبّتها وأحبّتها الأخوات فيها، أتاها طلب العذراء أن تدخل إلى الرهبانيّة الجديدة.

بعد تردُّدٍ وانتظار دخلت إلى هذه الرهبانيّة محافظةً على نعمة السرّ الّذي منحتها إيّاه العذراء، فعاشت بتواضع عميق بين أخواتها الجديدات، وامتازت بجاذبيّة روحيّة فريدة، بفعل النور المتجدّد في أعماقها.

في ٢٥ آذار ١٩٢٧، وفيما كانت تصلّي سبحتها الورديّة في بيت الرهبانيّة في عين كارم، لفظت روحها الطاهرة.

شقيقتها الأمّ حنّة الّتي كانت ملازمة لها، ولم تفارقها وهي على فراش الموت، عرفت قبل أيّام معدودة أنَّ لأختها ماري ألفونسين دفترين مختومَين بالشّمع الأحمر يجب تسليمهما للبطريرك برلسينا.

ولكن، ماذا في هذين الدفترين؟ ولماذا يجب تسليمهما للبطريرك؟

المهمّ هو أنّ على الأمين أن يوصل الأمانة. ولذلك حملت الأمّ حنّة الدفترين لغبطته؛
وكم كانت دهشتها كبيرة عندما علمت بأنّها هي مدينة بدعوتها الرهبانيّة لأختها!

بل كم كانت الفرحة كبيرة عندما تبيّن أنّ العذراء القدّيسة هي الّتي أبدَت لها رغبتها في هذا التأسيس، واختارت الأب يوسف مرشدًا.

وفضلاً عن الكتابات الّتي تخبر عن ظهورات العذراء، كان هناك ورقة عليها وصيّتها الروحيّة، وأخرى عليها بعض الأفكار الروحيّة:

باسم الآب والإبن والروح القدس. آمين. إرحمني يا الله كعظيم رحمتك، وكمثل كثرة رأفتك أمح مآثمي. يا نفسي، إستودعي ذاتكِ يدي مريم سلطانة الورديّة أمّكِ، واتّحدي بقلب يسوع عروسِك إلى دهر الدهور. آمين.

إنّي أموت مسيحيّة وراهبة ورديّة حقيقيّة. وأرجو مغفرة خطاياي باستحقاق دم يسوع الثمين وبشفاعة أمّي سلطانة الورديّة المقدّسة والقدّيس يوسف. إنّي أتّكل على صلوات أخواتي في الرهبانيّة وعلى الثلاثة والثلاثين قدّاساً التي ستقدّم بإذن الرؤساء لراحة نفسي، باسم يسوع ومريم. آمين.

يا يسوع، دعني أهيم في حبّك.

الحبّ قويٌّ كالموت. الحبّ يجعلنا نقدّر الفقر، ونصبر على الجوع والبرد، ونسرّ بالإهانة، ونرضى بالمرض، ونقاوم

التجربة، وتحتمل الإضطهاد. الحبّ يحثّنا على مساعدة القريب في جميع احتياجاته.

من يَعِشْ من الحبّ، لا يترك واجباته التقويّة وقت الجفاف الروحيّ، بل يستطيع أن يقول مع الرسول: «من يفصلنا عن محبّة المسيح...؟» (رو ٨/٣٥)

يا لتعزية النّفس التي تجتذب قلوب الآخرين إلى محبّة الله.

في محبّة يسوع ومريم توجد السعادة والسّلام الحقيقيّ، ولاسيّما الصّبر والشجاعة والثبات.

يجب أن نملك فضيلة عظيمة لكي نعطي منها للآخرين.

الكفر بالذات يجلب النّعم العظيمة كالرغبة في الصلاة المستمرّة، ووداعة القلب والفرح الداخليّ والإتّضاع الحقيقيّ والإقتداء بمعلّمنا الإلهيّ الذي عاش في الأماكن التي نعيش فيها.

الحمد لله على هذه النّعم التي لا نستحقّها والتي لم تعطَ لنا لمنفعة شخصيّة، بل لإشراك الآخرين فيها. يجب أن نسعى إلى القداسة وأن نجتذب إليها كلّ إخوتنا في المسيح...

إنّ الأمّ ماري ألفونسين ابنة الأرض المقدّسة، وابنة العذراء المحبوبة، عرفت كيف تعيش **تواضع** الكلمة المتجسّد، و**وداعة** عذراء الناصرة، و**صمت** يوسف البتول، فغدت بقداستها أكثر إشعاعًا من الشمس وأكثر بهاءً من النجوم، لأنّها تلمع في بيت أبينا السماويّ، وتهدي السّائرين في هذا الوادي وادي الدّموع، ليصلوا بدورهم إلى مَن أحبَّهم وضحّى بنفسه من أجلهم (أف ٥/٢).

إنّ الأمّ ماري ألفونسين تركت للعذراء مريم أن تكون حاضرة في كامل كيانها، وفي تفاصيل حياتها. وقد عرفت بالاختبار أنّ وجود مريم بقربها هو وجود أمٍّ ومرشدة، ومعلّمة ومثال. ومن هذا الإيمان عرفت أن تحيا حياتها بتواضع وثقة، ما جعلها مستعدّة لتمحو ذاتها كي يبرز دور العذراء الفاعل في حياتها الروحيّة؛ والقصد من اختيارها لهذه المهمّة العظيمة، تأسيس رهبانيّة الورديّة المقدّسة.

«إنّ تلاوة الورديّة تبعد عنكنّ كلّ شرّ، وتجعل السّلام في عيالكنّ وفي العالم أجمع»، هذا ما كانت تردّده لأخواتها الراهبات، وهذا ما تزال تردّده لكلٍّ منّا.

نشكر الربّ لأنّه، بإلهام الروح القدس، سمَحَ أن تعلن الكنيسة للملأ سرّ هذه الراهبة الوديعة، وترفعها إلى شرف المذابح أوّلاً طوباويّةً في ٢٢ تشرين الثاني ٢٠٠٩ في عهد قداسة البابا بنديكتوس السادس عشر في بازيليك سيّدة البشارة- النّاصرة، والآن قدّيسةً في بازيليك القدّيس بطرس- روما مع البابا فرنسيس، تمجيدًا لله الآب، وإكرامًا للعذراء القدّيسة مريم، سلطانة الورديّة المقدّسة.

مريم يسوع المصلوب أو مريم بواردي

هي «نعمةٌ» نالتها عائلة بواردي بعد أن فقدت أطفالَها الاثني عشر في نعومة أظفارهم.

هي «نعمةٌ» لأنَّ والديها مَشَيا مسافةَ ١٧٠ كلم، وصَلّيا في كنيسة المهد حيثُ وُلِدَ مسيحُ الربّ، وطلبا من العذراء أن تستَمِدَّ لهما نعمةَ الحياةِ لابنةٍ جديدة، ووعدا بأن يُسمّياها «مريم».

هي «نعمةٌ» لأنّها عاشت في عائلة صالحة ومؤمنة، تنتمي إلى كنيسة الروم الملكيّين الكاثوليك، وقد مَنَّ اللهُ عليها بِنِعَمٍ خارقة طوالَ حياتها القصيرة.

لقد اتّفق مُفكّرون كبار أمثال: Léon Bloy (١٨٤٦-١٩٣٨)، كاتبٌ فرنسيّ - وJacques Maritain - فيلسوف فرنسيّ كان سفيرًا لدى الفاتيكان، وJulien Green - كاتبٌ أميركيٌّ من أصلٍ فرنسيّ وأعضاء الأكاديميّة الفرنسيّة، اتّفقوا أنَّ مريم يسوع المصلوب هي حقًّا «أعجوبة نعمة الله».

في ٥ كانون الثاني ١٨٤٦، ليلةَ عيدِ الدّنح الإلهيّ، أبصَرَت «مريم» النّور في قرية عبلين، إحدى قُرى الجليل الصّغيرة، الواقعة ما بين النّاصرة وحيفا. وفي السّنةِ التالية وُلِدَ أخوها بولس. وما أن بدأت العائلة تستَرجِع أفراحها، حتّى توفّي الوالد بنوبة قلبيّة، ثمّ بعدَه بأيّام قليلة الوالدة، وكانت مريم لا تزالُ في الثالثة من عمرها، فتولّاها عمّها، وكان غنيًّا، انتَقَل من ثَمَّ وعائلته إلى الإسكندريّة. أمّا بولس فتولّت تربيته خالتُه، الّتي كانت تسكُنُ في قريةٍ قريبة.

حادثٌ تذكُرُهُ معظمُ المراجع الّتي كتَبَت عن «مريم بواردي»، وهو أنّ والدها جورج، وقبلَ وفاتِه، رَفَعَها أمامَ أيقونةِ القدّيس يوسف مُتضرِّعًا: «أيُّها القدّيس العظيم، أُنظُر إلى ابنتي الصّغيرة، العذراء هي أُمُّها، وأنتَ كُنْ أبًا لها، واسهَر عليها».

منذُ صِغَرِها مَنَّ اللهُ عليها بنِعَمٍ غزيرة؛ فهي تروي في ذكرياتها عن ذاكَ الصّوت الداخليّ الّذي يقول لَها: «أُنظري كُلُّ شيءٍ يَمرّ! وأمّا إذا أعطيتِني قلبَكِ، فأنا أكونُ معكِ دائمًا».

طوالَ حياتِها لم تنسَ مريم هذا الصّوت وهذه الكلمات، هي الّتي كانت تنمو بتواضعٍ كبير كملاكٍ صغير، وكان الهَمّ الأكبَر لديها أن تَصِلَ إلى مناولة القربان الأقدس.

وفي الثانية عشرة من عمرها، عَلِمَت أنَّ عمّها يريدُ أن يُزوِّجَها، فرفضَت رفضًا قاطعًا، وفاءً منها للوعد الّذي قطعَتهُ لذاك الصوت الّذي ناداها، فلم يفلح في تراجُعِها عن عزمِها كلّ ما كان من محاولات ترغيبٍ وإقناعٍ وتهديدٍ وسوءِ معاملةٍ وإذلال...

في هذه الأثناء، وبعد حوالي ثلاثة أشهر من المعاناة، تذكَّرَت أخاها بولس السّاكن في فلسطين، ففكّرَت في أن تكتُبَ له وتُسلّم الرّسالة إلى خادم مُسلم في بيتِ عمِّها، كان مُسافِرًا إلى النّاصرة، ويعرفُ حقًّا مدى المُعاناة الّتي تعيشُها. إلاّ أنّ هذا استشاطَ غضبًا لدى سماعِهِ طلبَها، وأخذَ يحثُّها أن ترك المسيح. لكنّها رفضَت. فازدادَ غيظه حتّى أنّه استلَّ خنجَرَهُ وحزَّ عنقها ورماها في زُقاقٍ مظلم؛ وكان ذلك في ليلة ٧-٨ أيلول ١٨٥٨.

وبما أنَّ العناية الإلهيّة لم تكُن قرَّرت أن تنتقل هذه النّفس من عالمِنا، فقد استفاقَت مريم ووجدَت نفسَها في مغارة وبجانبها سيّدة.

بعد سنواتٍ عديدة من حياتِها المُكرَّسة، روت مريم هذه الحادثة، قائلة: «يبدو لي أنّني دخلتُ الفردوس ورأيتُ العذراءَ والقدّيسين ووالدي والثالوث المجيد، وسَمِعتُ صوتًا يقولُ لي: «لم تتمّ كتابة كتابك كلّه بعد»، ثمَّ وجدتُ نفسي داخلَ مغارة لأيّام كثيرة عُرضة للحرارة، تعتني بي إمرأة شابّة، شبيهة براهبة، وعليها شالٌ أزرق، كانت تُطعمني وتُسعفني وتجعلني أنام لمدّة طويلة؛ وبعدَ مرور أربعة أسابيع قادَتني إلى كنيسةٍ خاصّة بالرهبان الفرنسيسكان، وترَكَتني لديهم».

والواقع أنّها لم تكُن تُخبر أحدًا بأنَّ العذراء شفَتها، بل كانت تكتفي بإظهار أثر الجُرح الّذي كان طوله ١٠ سم وعرضه ١سم في عنقها.

بعد مرور ستّة عشر عامًا، فحَصَها أحد الأطبّاء المشهورين في مرسيليا- فرنسا، ولاحظ أنَّ القصبة الهوائيّة تفتقر لبضع حلقات، فصرخ قائلاً: «لا بُدَّ من وجود الله، لأنّه لا يُمكن لإنسان أن يبقى حيًّا من دون أعجوبة، بعد هذا الجرح».

لم تعُد مريم إلى العائلة الّتي تبنَّتها، بل ذهبت تعمل كخادمة بسيطة ما بين الإسكندريّة والقدس وبيروت، وصولاً إلى سنة ١٨٦٣، حين قبِلَت دعوةً لخدمة عائلة نجّار السوريّة الّتي انتقل إلى مرسيليا؛ وقد واصلت خِدمَتَها بكلّ تواضع، حتّى استدعاها العالم الروحيّ...

فما إن بلَغَت التاسعة عشرة حتّى دخلت إلى رهبانيّة مار يوسف، حيث أمضَت سنتَي الإبتداء، ولكن من دون أن يُسمح لها بإبراز نذورها.

لماذا؟

صحيحٌ أنّها كانت على تواضعٍ مُلفت، وتنكبُّ على الأعمال الأكثر تعبًا، كالغسيل والطّبخ والعناية بالبستان، ولكن، ولأنّها كانت تنالُ نِعَمًا خارقة كالإنخطاف وعَيش آلام السيّد المسيح يومَين في الأسبوع بحيث تظهر جراحاته في جسمِها الطريّ، فقد ظُنَّ أنّها مُبتلاة بداء البَرَص، ما بَلبَلَ الراهبات ودفعهنَّ لِعَدم قبولها بينهنَّ.

لكنَّ العناية الإلهيّة قادت هذه الراهبة المختارة لتكون نَفسًا مُكرَّسة في كرمل «بو» Pau - فرنسا. ففي هذا الدّير وجدت حُبًّا وتفهُّمًا، واتّخذت اسمها الرهبانيّ مريم يسوع المصلوب؛ وبما أنّها كانت تَجِد صعوبة في تلاوة الصّلوات، ورغبةً منها في خدمة الآخرين، فقد ألَحَّت أن تكون في عداد الراهبات العامِلات.

في «بو» كما في «مرسيليا» توالت الانخطافات، وتجلَّت موهبة النبوءة، وظلّت تنعتُ نفسَها: «بالعَدَم الصّغير» أو «الصّغيرة المُعدَمة»؛ وهذا ما كانت تعتبرهُ النّعمة الأقوى في حياتها، وربّما ما وصَلَت إليه من اختبار كان ثمرة حياتها: «حيثُ

توجد المحبّة، يوجد اللهُ أيضًا. إذا فكَّرتم في عَمَلِ الخيرِ مع أخيكم سيُفكِّر الله بكُم. إذا حفرتُم حفرة لأخيكم ستقعونَ أنتم فيها وستكون لكم، لكن إن صنعتُم سماءً لأخيكم فسوف تكونُ لكم...»

بعد ثلاث سنوات في دير الكرمل «بو»، أبحرت مريم يسوع المصلوب مع مجموعة من أخواتها الراهبات لتأسيس كرملٍ جديد في منغلور- الهند، ولم تكن الرّحلة سهلة، لأنّ ثلاث راهبات مُتْنَ قبلَ وصولهنَّ إلى الهند.

في هذه المرحلة، كانت تُشاهَد مريم مُشعَّةَ الوجه، أو في مكانٍ آخر، فتارةً تُشارك بالروح ما يحصل في الكنيسة من اضطهاد للمسيحيّين في الصّين، وطورًا يبدو وكأنّها في صراعٍ مريرٍ أليمٍ مع الشيطان، ما دَفَعَ الراهبات لإرجاعِها إلى دير «بو» في فرنسا.

وعلى الرّغم من قلّة علمها، إلاّ أنّها كانت تُنشِدُ قصائد جميلة جدًّا للخالق. والمدهش أنّها كانت ترتفع أحيانًا كثيرة نحو العُلى، وتجلسُ على غصنٍ واهٍ في رأس شجرة...

بعد انخطافها كانت تردّد: «العالم كلّه نائم. والله المليء بالطيبة، الربّ العظيم، المستحقّ كلّ تسبيح، منسيّ!... لا أحد يفكّر فيه!... أنظر الطبيعة تُسبّحه، السماء، النّجوم، الأشجار والأعشاب، كلّ شيءٍ يسبّحه، والإنسان الغارق بإحساناته، والّذي يجب عليه أن يسبّحه، نائم!... هيّا! لنذهب ونوقظ الكون!»

ألهَمَ الربّ مريم يسوع المصلوب فكرة تأسيس كرمل في بيت لحم؛ ومن الطبيعيّ أن تكون العوائق كثيرة، فمريم هي الراهبة الوحيدة الّتي تعرف اللغة العربيّة، وإن كانت الأقلّ علمًا، إلاّ أنّ الربّ سهَّل لها الطريق. وبموافقة البابا بيّوس التاسع، تمّ تدشين الدير في ٢١ تشرين الثاني ١٨٧٦. بعد ذلك بدأت فكرة تأسيس كرمل الناصرة تراودها، وقد أرشدها الله إلى قطعة أرض، وكشف لها في ما بعد أنّها المكان المدعوّ «عمّاوس» حيث التقى يسوع بالتلميذين فجر القيامة (لو ١٣/٢٤-٣٥). لم تتمكّن مريم من تحقيق مشروع البناء للكرمل في الناصرة، بسبب سقطتها عن الدرج وكسر ذراعها، ما أدّى إلى تفشّي الغرغرينا في جسمها، وهي لا تزال في ربيعِ عمرها.

كانت رغبتها الكبيرة أن تتّحد بالله، فهي الّتي قالت: «لا أقدر أن أعيش أكثر يا ربّ، لا أقدر أن أعيش أكثر، نادني لآتي إليك!»

الربّ استجاب لعروسته: ففي ٢٦ آب ١٨٧٨، وعن عمر يناهز ٣٢ سنة، طارت روحها إلى السماء، فيما بَقِيَ جسدها راقدًا على رجاء القيامة العامّة في مدافن الدير.

وفي سنة ١٩٨٣، سنة الاحتفال بيوبيل الفداء، أعلن قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني مريم يسوع المصلوب «طوباويّة»، وقال عنها خلال الاحتفال: «إنّها أعطت كلّ شيء في سبيل المحبّة».

حقًّا كم هو عجيبٌ الله في قدّيسيه!

فالقدّيسة مريم يسوع المصلوب، تُجسِّدُ وجهَ الكنيسة المصلّية، والجالسة عند قدَمَي الربّ لتسمع كلامه وتحفظه في قلبها وتعمل به؛ فيما القدّيسة ماري ألفونسين، تُجسّد وجه الكنيسة الخادمة والمرسلة، الّتي تُعلنُ رحمةَ الربّ، ومحبّةَ الأمّ البتول لكلّ النفوس.

إنّ الربّ يسوع الذي أفاض على الكنيسة عروسه روحه القدّوس لمجد أبيه السماويّ، نراه لا ينفكّ يزيّن عروسه بأجمل العطايا وأثمنها، إخوتِنا القدّيسين والقدّيسات، هؤلاء الذين يحملون المشعل ويكونون لإخوتهم قدوة في محبّة الربّ، الّذي «هو هو أمس اليوم وإلى الأبد» (عب ٨/١٣) «الطريق والحقّ والحياة» (يو ٦/١٤) ...

وفيما نحن في غمرة الفرح التي ترفع عيوننا إلى السماء وقلوبنا إلى ساكنها، نسجد ونعترف أنّ إلهنا محبٌّ للبشر، وأنّه برفعه أختًا لنا إلى درجات المذبح لا يزال يؤكّد لنا أنّه معنا حتّى انقضاء الدهر (مت ٢٠/٢٨).

فيّا سيّد القدّيسين، أيّها المستريح فيهم، أشعِل في أبناءِ الكنيسة نار الرّغبة في عيش القداسة، فينموَ ملكوتُك وتنتشرَ حضارة المحبّة في عالمِنا.

لكَ المجد أيّها الآب والإبن والروح القدس. آمين.

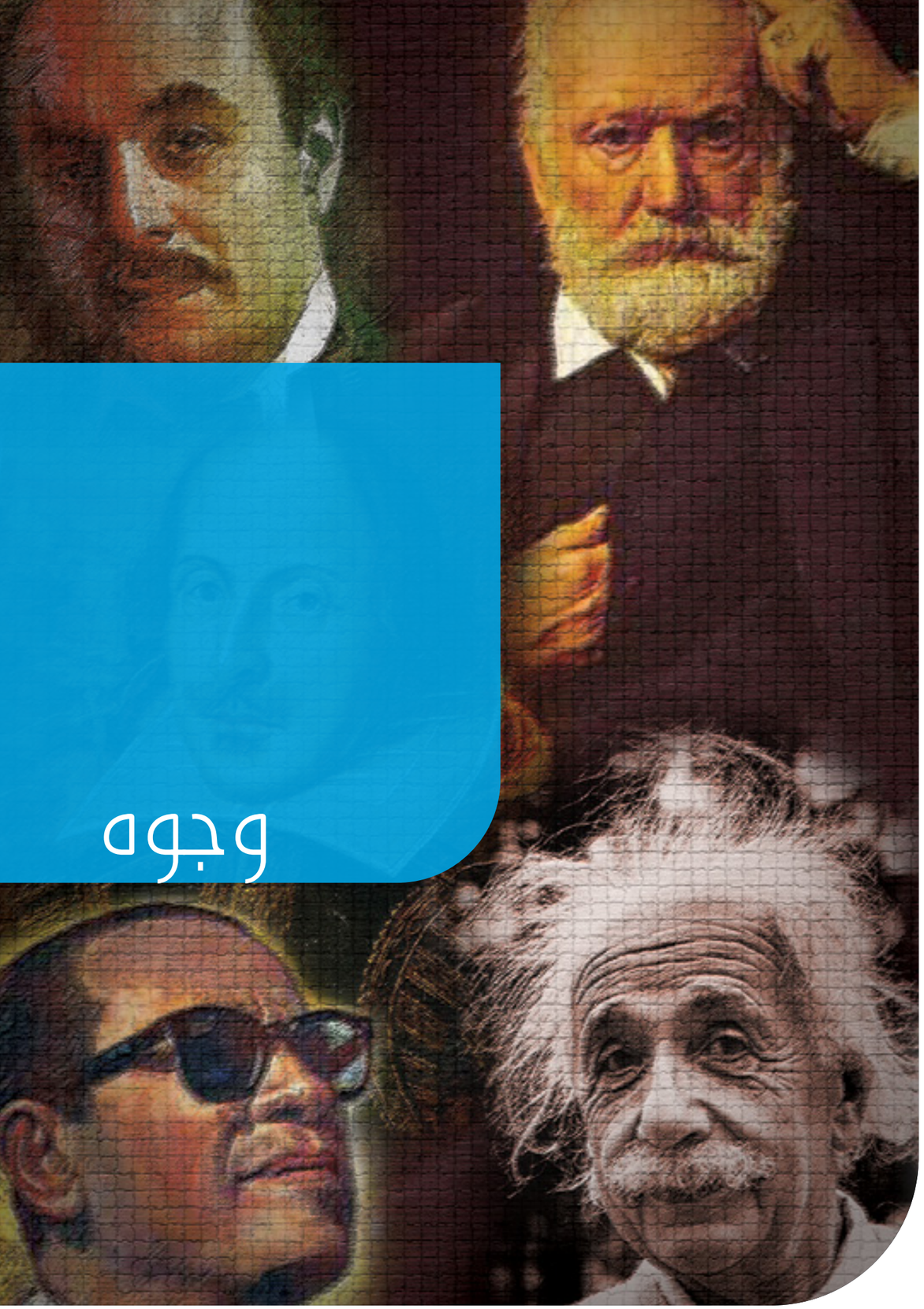

صليبا الدويهي
بعد عشرين على رحيلِه، روحُه تطالبُنا...

الفنّان مارون الحكيم

ولد الفنّان صليبا الدويهي ليلة عيد الصليب في ١٤ أيلول ١٩٠٩ في إهدن، ولذلك سمّاه والده أنطانيوس وأمّه ياسمين فرنجيّة: صليبا. هو الصبيّ الوحيد والأصغر بين سبع شقيقات. وقد أطلّ على أرض البشر بطبل وزمر وعلى لعلعة البارود وأضواء المشاعل وزغردات النسوة. يقول صليبا: «يوم ولدت بكى والدي، وتساءل مشدوهًا: صليبا؟ نعم هذا اسمه. فهو من فضل هذا العيد الفضيل، عيد الصليب المقدّس... وأنا نطانيوس لأنّي ولدت يوم عيد القدّيس أبي الرهبان. وبحركة عفويّة أفرغ، ليلتها، ما في جيبه من عربون ضمان الزيتون- عشر ليرات ذهبًا- وقال للمبشّرة بمولدي: هذا ثمن شمع وبخور لكنائس إهدن».

تلقّى دروسه الابتدائيّة في مدرسة الفرير في زغرتا. وبدءًا من تلك الأيّام انصرف إلى الخربشة، فراح يرسم تصاوير بسيطة نقلاً عن الكتب المدرسيّة، ما أثار انتباه أساتذته إلى موهبته المبكّرة، فألحّوا على والده أن يرسله إلى معلّم يلقّنه مبادئ الرسم، وقرّ الرأي أن يُرسل إلى البطريركيّة المارونيّة التي حمّلت الصبيّ اليافع كتاب توصية إلى المعلّم والفنّان الكلاسيكيّ حبيب سرور، حيث أمضى في محترفه أربع سنوات، متعلّمًا الأسس الأوّليّة للرسم والتخطيط السريع، واحتلّ شيخ إهدنيّ سطح أوّل رسومه.

سافر إلى باريس في نحو العام ١٩٣٦ ملتحقًا بالمدرسة الوطنيّة العليا للفنون الجميلة وأمضى خمس سنوات في رسم التصاوير الكلاسيكيّة، متعمّقًا في تشريح الجسم البشريّ، واجدًا ضالّته في متحف اللوفر، الذي منحته فنون النهضة فيه الإحساس بأهميّة التصوير الكلاسيكيّ.

أُولى إطلالاته في لبنان كانت معرضًا جماعيًّا برعاية المفوّض السامي الفرنسيّ، الذي أعجب بلوحاته، فاشترى واحدة منها بأربعمئة ليرة لبنانيّة، وهو مبلغ خياليّ في تلك الأيّام، اشترى به بدلة جديدة وعاد بها متباهيًا إلى البيت. والدته كان فرحها عظيمًا عندما عرفت مستغربةً أنّه فاز ببيع لوحة، فزلغطت ونادت على الأهل والجيران تقول: «تعو شوفو، ابني صار يرسم أحسن من بو رفّول»، وكانت تعني الفنّان الإيطاليّ رافاييل.

تأثّر الدويهي بالبيئة الإهدنيّة، وخصوصًا بمحيط دورة قاديشا والوادي المقدّس، تاركًا بصره يتوغّل في الدروب والأمكنة والغابات والجبال والأودية والسماء الزرقاء، ملتقطًا أسرار تبدّل الوقت وتحوّل اللون في تلك الفسحات والمساحات التي كانت له، كما لجبران، مصدر إلهام وإبداع.

الفنّان مارون الحكيم

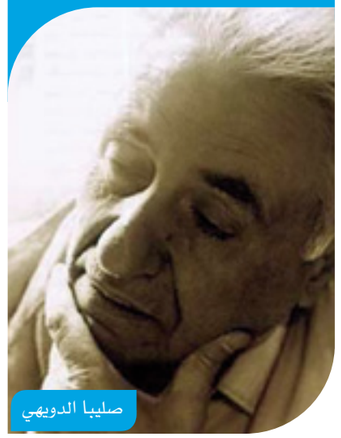

صليبا الدويهي

اضطرّ إلى امتهان التعليم في مدرسة الحكمة. وفي عام ١٩٣٩ كلّفه البطريرك عريضة تصوير سقف كنيسة الديمان، التي كان تبرّع ببنائها السيّد رشيد عريضة قبل عام. وفي الديمان أمضى الدويهي أربع سنوات متتالية، عاملاً على إنجاز مشاهد من الفنّ الكنسيّ، تعتبر أوّل لقاء حسّيّ لافت بين ركائز فنّ النهضة بمفهومها الإيطاليّ وبين اللمسة الشرقيّة وخصائصها المحليّة.

في تلك الآونة، أي عام ١٩٤٤، أقام الدويهي معرضًا في فندق السان جورج في بيروت، لفت الناس فيه إلى موهبته؛ وقد تميّزت لوحاته بأسلوبه الشخصيّ، فكانت موضوعاته، التي استقاها من روح الطبيعة اللبنانيّة، هي ضربة المعلّم العميقة، حيث عرف كيف يقبض على أسرار الملامح والوجوه والأمكنة، مختصرًا جوهر حركاتها وقسماتها وأبعادها ومسافاتها وألوانها، راسمًا فيها الفلاّحين والمتاجر والكنائس والتلال والزوايا والزواريب، بما يمكن اعتباره احتفالاً روحيًّا وتلوينيًّا بها.

ورأى الدويهي أنّ ذلك المعرض محطّة مهمّة في تجربته التي ستمتدّ طوال قرن تقريبًا. فقد كان ذلك المعرض أوّل تظاهرة تشكيليّة يرعاها رئيس للجمهوريّة، هو الشيخ بشارة الخوري، وفيه بيعت لوحاته كلّها وتحدّثت عنه الصحافة مطوّلاً. وعلى الأثر قرّر الدويهي الإنتقال إلى بيروت والبقاء فيها شتاءً، حيث أسّس أوّل محترف له.

لكنّ الدويهي كان يدرك على الدوام أنّه يبحث عن شيء آخر في اللوحة، فعرف أنّ عليه أن يطوّر أسلوبه وأن يخرج على حدود الطوق التقليديّ في الرسم وأن يتحرّر من المألوف وأن ينضوي في حركة الفنّ العالميّ المعاصر. عرف الدويهي كم هو بحاجة إلى أن يكتشف طبيعته الخاصّة وأن يضع فيها مساحاته وألوانه وأحجامه ورؤاه، لا أن يكتفي بما ورثه عن أسلافه. وغايته من ذلك أن ينطلق إلى كونيّة الفنّ ورحابه الحرّة، فكان الرحيل إلى الولايات المتحدة الأميركيّة عام ١٩٥٠. وخلال ستّ سنوات متتالية أمضاها في المتاحف والمحترفات، استطاع الدويهي أن يحصّل ثقافة فنيّة واسعة وعميقة، مكّنته من نَيل ميداليّة الشرف الأعلى بسبب نشاطاته الفنيّة في أميركا. تعرّف الدويهي خلال وجوده هناك على عدد من كبار الرسّامين، وكانت روحه متأهّبة لتلقّي الصدمة الفنيّة، فوجد حلاً جوهريًّا لكلّ أشكال الإلتباس الجماليّ المليء بالتسؤلات والهواجس التشكيليّة.

لم يترك الدويهي متحفًا أو معرضًا إلاّ زاره متعطّشًا إلى المعرفة والاكتساب؛ وكثيرًا ما قادته قدماه إلى بروكلن وإلى المتاحف والمراكز الأدبيّة والفنيّة حيث كان يستمع إلى المحاضرات والمناقشات الفنيّة القيّمة، فترسّخت ثقافته الواسعة في الفنون وعلم الجمال والسيكولوجيا والتاريخ، وحصل على الجنسيّة الأميركيّة عام ١٩٦٣، فولد من هذا الدويهي الآتي من أعالي جبال لبنان دويهي آخر ذو إطلالةٍ ثقافيّة وتشكيليّة كونيّة.

في عام ١٩٥٥ تلقّى الدويهي دعوة من الشيخ قبلان المكاري، وهو مهاجر لبنانيّ عاش في المكسيك، لوضع رسوم لكنيسة مار يوحنّا المعمدان في زغرتا، على أن يتبرّع المكاري بالتكاليف كلّها. قبل الدويهي بالمشروع، لأنّ داخله كان يضجّ برغبة عميقة للوصول إلى مثال جديد في الفنّ الكنسيّ، يتميّز بطابعه السريانيّ المارونيّ المشرقيّ. وتطلّب هذا المنحى جهدًا جبّارًا إذ كان على الرسّام أن يؤسّس لمفهومه الجديد في الفنّ الكنسيّ، غارفًا من روح التشكيل السريانيّ والبيزنطيّ والأشوريّ والإيرانيّ، فوجد أنّ هذا المفهوم الجديد فن ذو جذور شرقيّة أصيلة، فوضع بذلك حدًّا فاصلاً مع الأعمال الفنيّة في الكنائس المارونيّة القديمة التي كان الفنّ الأوروبيّ قد نصّب نفسه وصيًّا عليها، فاتحًا الأفق أمام فنّ مارونيّ، مشرقيّ، تراثيّ، وحديث؛ الأمر الذي أحدث ما يشبه الثورة العميقة في منطق التشكيل الدينيّ المعاصر. وقد أمضى الدويهي في مدرسة عين ورقة المطلّة على خليج جونية سنة كاملة في إنجاز رسوم كنيسة مار يوحنّا المعمدان على خلفيّة من القماش.

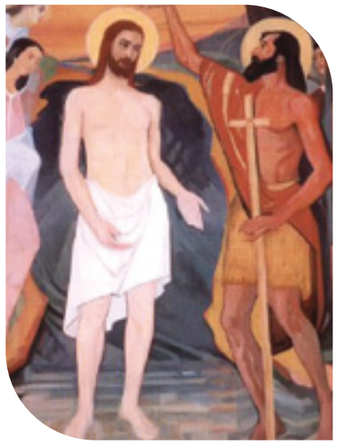

وجوه

وفي عام ١٩٧٣ نفّذ الدويهي زجاجيّات نادرة في أهميّتها الفنيّة لكنيسة مار شربل في عنّايا، وهي لوحات دينيّة يتطوّر أسلوبها بين الواقعيّة ذات المنحى التكعيبيّ، وأحيانًا تنحو في اتجاه التجريديّة الغنائيّة. لكنّ يد الجنون قضت على هذه الجداريّات الزجاجيّة فحرمت الفنّ كنوزًا لا تعوّض بثمن.

توفّي الدويهي في ٢١ كانون الثاني من عام ١٩٩٤ في الولايات المتحدة تاركًا وراءه إرثًا فنيًّا يبدأ من أوّل الكلاسيكيّة ولا ينتهي في الأفق الكونيّ، متدرّجًا في أسلوبه من الكلاسيكيّة الصارمة، إلى الانطباعيّة الشاعريّة، إلى التكعيبيّة الهندسيّة وصولاً إلى التجريد الغنائيّ الهندسيّ، الحيّ والمتين، قابضًا في شخصه وريشته على كلّ أسرار الفنّ خلال القرن العشرين، بحيث يمكن اعتباره نموذجًا فريدًا في القدرة على استيعاب الأصول وعيش التحوّلات والتغيّرات من دون أن يكون في كلّ ذلك مغتربًا عن ذاته الكونيّة.

يقول الناقد العالميّ غاستون ديل عن تجربة صليبا الدويهي: «إنّه على رأس مؤسّسي فنّ معاصر ومبتدع لا تنازل فيه في منطقة الشرق الأوسط، وهي مكانة ترفعه إلى رتبة الهادي والمنارة بسبب دوره كممثّل أساسيّ للفنّ في الشرق الأوسط».

إنّه نسيج وحده. واحد في البدايات، واحد في التحوّلات، وواحد في الانطلاق إلى الفضاء اللامتناهي، وهو ظلّ جديدًا حتّى النهاية.

من دواعي سعادتنا أن نشكر هذه البادرة بإصدار طابع بريديّ بإسم صليبا الدويهي؛ لكن هل يكفي هذا التكريم للفنّان الكونيّ الذي من ميزاته أنّ عينه رأت ما لم يره الآخرون، وأنّ ريشته رصدت أسرار الجوهر الضائعة في طيّات القرن العشرين الآفل؟

إنّ روح صليبا الدويهي تطالبنا بمتحف له أوّلاً في إهدن- زغرتا، يضمّ أعماله ومراحله كلّها فنحرسها من الضياع والتشتّت. وتطالبنا ثانيًا بإصدار كتاب فنّيّ يليق بفنّه ويعمّم أعماله على أجيالنا الجديدة. وتطالبنا أيضًا بمتحف للفنون التشكيليّة اللبنانيّة في بيروت تضمّ أعماله إلى جانب أعمال من كبار المبدعين التشكيليّين في لبنان، وذلك إحياءً وإنقاذًا للذاكرة التشكيليّة اللبنانيّة، وتعميمًا لكنوز الفنّ المشتّتة والمهجّرة: إمّا في مجموعات خاصّة، وإمّا في أقبية النسيان لدى أقرباء الفنّانين وورثتهم.

صرخة أطلقها الآن: إنّه لا مستقبل للفنّ في بلادنا إن لم نجمع نتاج مبدعينا الذين يستحقّون التكريم بالحفاظ على إرثهم، ليس فقط بالخطب الرنّانة والنياشين البرّاقة وإصدار الطوابع البريديّة وحفلات التكريم الشكليّة، بل بخطّة جديّة مموّلة تضعها وزارة ثقافتنا فتشعرنا بأنّ الفنّ والثقافة في بلادنا هما من أولويّات مؤسّساتنا والقيّمين عليها، بحيث يمكن أن نقدّم إلى الشعب اللبنانيّ بأسره فرصة نادرة للإلتقاء بنتاج فنّانيه تختصر مسيرة الفنّ التشكيليّ اللبنانيّ بكلّ مدارسه ومراحله.

إنّ روح صليبا الدويهي تطالبنا بمتحف له أوّلاً في إهدن- زغرتا، وتطالبنا ثانيًا بإصدار كتاب فنّيّ يليق بفنّه ويعمّم أعماله وتطالبنا أيضًا بمتحف للفنون التشكيليّة اللبنانيّة في بيروت

فرح أنطوان
١٨٧٤- ١٩٣٢/٧/٣

ج. م.

من طرابلسَ الفَيحاءِ هو. وفيها وُلد عام ١٨٧٤. والدُه، وهو تاجرُ خشب، أراد له أن يكونَ مثلَه، فجرَّب ثمّ أبى. لماذا؟ لأنَّه صاحبُ دعوة. والكلمةُ هي دعوتُه.

مدرسةُ بكفتين، وهي للرُّوم الأرثوذكس بقضاء الكورة في ديرِ فوق طرابلس، لم يدخلْها إلاَّ في الثّانيةَ عشْرةَ من عمره. وقد كانت، يومئذٍ، على جانبٍ من الرّقيِّ والازدهار، تعلِّمُ العلومَ والآدابَ والفقهَ الإسلاميّ، واللّغاتِ العربيَّةَ والتّركيّةَ والفرنسيَّةَ والإنكليزيّة. وهي، وإنْ كانت طائفيَّةً، إلاَّ أنّ أسرتَها التّعليميّةَ لم تتزيَّ بزيِّها، بل كانت خليطًا؛ فالرّئيسُ بروتستنتيّ، والمديرُ والنّاظرُ مارونيّان، وأستاذُ العربيّةِ والفقهِ مسلمٌ، ولم يكنْ فيها سوى معلّمٍ أرثوذكسيٍّ واحد... فأقبل إليها الطّلاّبُ على اختلافِ النِّحَل، تسودُهم الأُلفةُ والمودَّة، فتركتْ هذه المدرسةُ المختلطةُ أَثَرًا بليغًا في نفسِه لبُعدِها عن التّعصُّبِ الدّينيّ، ويقول في ذلك «وإنّما الأثرُ الذي أَشرتُ إليه، أثرٌ أدبيٌّ لم يبرحْ نفسي قطّ، ولعلّه كان ذا تأثيرٍ على أفكاري في كلِّ حياتي».

ولزم الفتى النّاشئُ هذه المدرسةَ إلى السّنةِ السّادسةَ عشْرةَ من عمره، فأَتقنَ فيها العربيَّةَ والفرنسيَّةَ وطَرَفًا صالحًا من العلوم؛ ولأنّه كان لا يميلُ إلى الإنكليزيّة، فقد أَعرضَ عنها، بل سَخِرَ برفاقِه الّذين يُعنَون بها دون الفرنسيّة، إلاّ أنَّه ندمَ على تنكّرِه لها، بعدما سافرَ إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة، حيث شعرَ بالحاجةِ الملحّة إليها.

ويومَ تخرَّجَ من مدرسة بُكفتين، كان جبر ضومط وأَنطون شْحَيبر أستاذَين فيها. إثر ذلك، دُعي لرئاسةِ مدرسةٍ للرّوم الأرثوذكس بطرابلس، فتولّى إدارتَها بضعَ سنين.

وفي الأثناء، شَرعَ يَكتبُ، فأَعجبَ النّاسَ. وإذْ رأى مجالَ القولِ ضيِّقًا في طرابلس، نزحَ إلى مصرَ سنة ١٨٩٧.

وهناك، أنشأَ مجلَّة «الجامعة»، الّتي ملأَ صيتُها الشّرقَ وديارَ هُجرةِ العرب، وكانت بوقَ الحرّيّةِ الصّارخَ في أذنِ الرّاقدين- على حدِّ تعبير مارون عبّود.

ثمّ ضاقت عليه مصر، فنـزحَ إلى نيويورك سنة ١٩٠٧، ما حملَ أحمد محرّم على القول:

إنْ كنتَ لا تبغي لنفسِكَ راحةً فأَرِحْ مَطيَّكَ والدُّنى وبَنيها

وفي نيويورك، أَصدرَ «الجامعة» يوميَّةً بثماني صفحات، ثمّ أسبوعيَّةً فشهريَّة. ولكنّ إقامته، هناك، لم تَطل؛ فعاد إلى مصر، وأصدرَ الجامعة- المجلّة- سنةً أو أقلّ، ثمّ حجبَها.

ومن بعد، انصرفَ إلى تحرير الصّحفِ الوطنيّةِ السّياسيّة، وأخذَ يؤلِّفُ الرّواياتِ ويترجمُها. ووضعَ الرّواياتِ التّمثيليّةَ الغنائيّةَ، وأَلّفَ لها جوقةَ منيرة المهديّة.

وأخيرًا، انضمَّ إلى صفوفِ الوفديّين المجاهدين، فعاونَ عبد القادر حمزه في تحريرِ جريدةِ الأهالي، إلى أن فاجأته المنيَّةُ قبل صِياحِ ديكِ الثّالثِ من تمّوز ١٩٢٢.

إنَّه فرح أنطون!

يخبرُنا فرح أنطون أنَّه صَرَف عمرَه في درس الفرنسيّة، وقرأ فيها ما لا يقرأه غيرُه في مئة سنة.

فلقد كان شديدَ الشّغفِ بالآدابِ الفرنسيّة، فأَكبَّ على مطالعةِ مصنّفاتِ أعلامها، مَنهومًا لا يَشبع، وجَليدًا لا يَهي له صبرٌ، أو يعتريه مللٌ، يَشهدُ على ذلك الكتبُ المتنوِّعةُ التي نقلَها إلى العربيَّة أو لخَّصَها، أو بحثَ فيها دارسًا منتقدًا.

ولم تقتصرْ مطالعاتُه على ما أنتجه أبناؤها، فشملت جانبًا مِمّا نُقل إليها من آداب الألمان والإنكليز والرّوس، فكانت له ثقافةٌ غربيَّةٌ متّسعةٌ، أَضافها إلى ثقافته العربيّةِ والشّرقيّة؛ وهي، في جوهرها، عقليَّةٌ أكثرُ منها أدبيَّةً: فقد كان يَنـزعُ إلى حياةِ الفكر، فيُعنى بالفلسفة والتّاريخ والاجتماع والدِّين، وإن لم يُهمِلِ الأدبَ والفنَّ، ولاسيّما القصصَ والتّمثيل.

إنَّ مراجعةً عَجْلى لآثارِ فرح أنطون لا بُدَّ تُعطي التّأكيدَ على مقدارِ ثقافته. فله:

- الجامعة: مجلّة شهريّة أصدرها سبعَ سنواتٍ، في الإسكندريّة حينًا وفي الولايات المتّحدة الأميركيّة آخر.
- فلسفة ابن رشد: جدالٌ بين فرح والإمام محمّد عبده.
- أورشليم الجديدة: قصّة فلسفيّة اجتماعيّة.
- مريم قبل التّوبة: قصّةٌ اجتماعيّة، ماتَ ولم يُنجزْها.
- الوحش الوحش الوحش: قصّة خلقيّة لبنانيّة.
- الدّين والعلم والمال: قصّة.
- بول وفرجيني، الكوخُ الهنديّ: لـ برنردان ده سانبيار.
- أتالا: لـ شاتوبريان.
- نهضة الأسد: رواية ألكسندر دُوما عن الثّورة الفرنسيّة.
- تاريخ المسيح: لإرنست رينان، لخَّصه تلخيصًا.
- أَمّا رواياتُه التّمثيليّةُ فعديدةٌ: البرج الهائل، ابن الشّعب، السّاحرة، أوديب الملك، المتصرِّفُ في العِباد، صلاح الدّين.. مثّلها جميعًا جورج أَبيض.
- كرمن، كرمنينا، روزينا، تاييس.. وهي رواياتٌ أربعٌ مقتبسةٌ، مثّلتها جوقة منيرة المهديّة.
- مصر الجديدة، بناتُ الشّوارع وبناتُ الخدور.. روايتانِ غنائيّتان، مثّلتهما جوقةٌ أخرى.
- أبو الهول يتحرَّك.. روايةٌ غنائيّة، قد تكونُ أبدعَ ما أَلّفَ في التّمثيل.
- رواية ذات الورد، لدوما.

أمّا ما أودعه فرح أنطون في «جامعته» فكنـزٌ ثمينٌ، بل ذخيرةٌ للّذين يرغبون في مرافقةِ الفكرِ الإنسانيّ واتّباعِ تطوّرِ الخَلق والدّين.

وفرح أنطون هو أوّلُ كاتب عرَّف العربَ بفردريك نيتشه وكارل ماركس.

«وهذا فرح أنطون، يقول مارون عبّود، ماذا لقي في هذا الوطن؟ واخجلةَ التّاريخِ منك يا أبا المدرسة الحرّة! فمَن نشرَ آراء رينان، وروسّو، وتولستوي، وروسكين، ونيتشه، قبل فرح؟! وماذا فعلنا نحن له غيرَ الإغارةِ على آثاره التي اتّخذَ سويداءَ قلبِه مِدادًا لتحبيرها؟!

إنّ أحدًا، قبل فرح أنطون، لم يعالجِ المشاكلَ الاجتماعيّةَ العويصة، فهو فتحَ بابَ التّفكيرِ الحرّ وشرَّعه للنّاس، ولكنّه جاء قبل أوانِه...»

■■■■

يقول بطرس البستاني: كان فرح أنطون وافرَ الذّكاء، متّقدَ الخاطر، واسعَ الإطّلاع على مذاهب روسّو ورينان وفولتير وكونت، وداروين ونيتشه وماركس وتولستوي، وابن رشد وابن طفيل والغزالي وعمر الخيّام وسواهم، فنقلَ من مصنّفاتهم، ولخَّصَ آراءَهم وحلَّلها، وأحبَّها كلَّها وأشادَ بذكرها؛ وأراد الإصلاحَ والحرّيّةَ والخيرَ للإنسان، ولكنّه اضطربَ في آرائه، وارتُجَّ عليه، فلم يَقُمْ له مذهبٌ شخصيّ، ولا نظامٌ فلسفيٌّ مترابط، مع ميله إلى الحياة الفكريّة. واتّسع نشاطُه الأدبيُّ إلى القصصِ والمسرحيّات، تصنيفًا وترجمة؛ وتشبَّه بكتّاب الفرنجة والرّوس، فجعل ما صنَّفه منها وسيلةً لبثِّ آرائه الدّينيّة والاجتماعيّة، فغلبت عليه الخطبُ والمواعظُ والمجادلات، فضَعفتْ في قصصه الميزةُ الأدبيّةُ والفنيَّة.

ولغتُه، يضيف بطرس البستاني، سهلةٌ غيرُ متكلَّفة، لا يُعنى باختيارِ أَلفاظها وحسنِ تنـزيلها، فهي أشبهُ بلغة الجرائد؛ وكان يؤثرُ هذا الأسلوبَ في الكتابة ويدعو إليه، ويتنكّرُ لتنميقِ العبارة وتنخّلِها؛ ولعلَّ مرَدَّ ذلك إلى شغفِه بالثّقافةِ العقليّة، ثمّ إلى سرعتِه في العمل، وكثرةِ اشتغاله بالتّأليف والنّقل وتحبير «الجامعة»، فلم تَنحسرْ له أسرارُ الألفاظ كما انحسرتْ له أسرارُ المعاني، وفاتته مَلَكةُ التّعبير، فلم يدركْ جمالَه كما أدركَ جمالَ التّفكير.

ويعتبرُ بطرس البستاني أنّ ثمّةَ اضطرابًا وارتجاجًا في تفكير فرح أنطون، لأنّه كان عرضةً للتّأثّراتِ الطّارئةِ عليه من كلِّ كتابٍ يقرأه، أو مذهبٍ ينتهي إليه- وهو المطالِعُ النَّهِمُ الملتهم. وهذا ما نجدُه يقول، في أبحاثه وقصصه؛ فقد كان متأثِّرًا بروح الثّورة الفرنسيّة، على ما فيها من حَسَنٍ وقبيح، يَلذُّ له أن يشاكسَ رجالَ الدّين وأربابَ الأموال، وينادي بالمساواةِ وحريّةِ الفكر وحقوقِ الإنسان، ولكنَّه لا يتنكّرُ لسُنَّةِ تنازعِ البقاء، والانتخابِ الطّبيعيّ، وسيادةِ الأفضل. ويكتبُ عن ابن رشد معجبًا بآرائه في أَزليّة المادّة، ملخّصًا أقوالَ رينان فيه، ويتطرَّفُ إلى بحثٍ دينيٍّ جعلَ الشّيخ محمّد عبده يناظرُه ويردُّ عليه.

وكان مع ذلك يميلُ إلى رأيِ الغزالي في فصل الدّين عن الفلسفة، لأنّ الدّينَ ينبجسُ من القلب، والفلسفةَ من العقل.

ولخَّص تاريخَ المسيح وأعمالَ الرّسل لرينان، وتحمَّسَ له كثيرًا، وانتحلَ مذهبَه في إنكار المعجزات، من دون أن يحاولَ درسَه ونقدَه ليتبيَّنَ له الصّحيحُ من الفاسد، على أَنّه لم يكنْ معطِّلاً للدّين، في حقيقتِه الإلهيّة، ولا واقعًا في الجحودِ المطلق، ويؤثرُ الاشتراكيّةَ الإنجيليَّةَ على الاشتراكيّةِ المادّيّة.

ومثلُ هذا الاضطرابِ، يتابع بطرس البستاني، نجدُه في قصّة «العالمُ الجديد أو مريمُ المجدليّة»: فإنّ خطبةَ شيشرون مستوحاةٌ من مذهبِ نيتشه في إتلافِ الضعيف، وتحقيرِ الرّحمة، وتعظيمِ القوّةِ والصّراع؛ وخطبةُ مريم في الرّدّ عليه ترمي إلى تحطيمِ هذا المذهب، وتدعو إلى رحمةِ الضّعيف كما يدعو إليها الدّين.

وله قصيدةٌ عنوانُها «على جبل» نظَمها في نيويورك، وجعلها بين نيتشه وتولستوي، فذكرَ أقوالَ الفيلسوف الألمانيّ في نبذِ الشّرائعِ الدينيّة، وتغليبِ القويِّ على الضّعيف، ولكنّه احترس منها بقوله:

هـذا كـلامُ نِـيَـتْـشَ، إنَّ نِـيَـتْـشَ   كـانَ مـقـوِّمَ الـمـعـوجِّ والـمُـنـآدِ
فـي زعـمِ بعضِ الـنّـاسِ، أمَّـا مـذهـبي   فـيـه، فـأُبـقـيـه إلـى مـيـعـادِ

ثمّ ذكر أقوالَ الفيلسوف الرّوسيّ في نقض آراءِ معطِّلِ الشّرائع، وقاتلِ الرّحمة، حتّى إذا سكتَ الفيلسوفان لم يَستفدْ صاحبُنا منهما إلاّ التَّحَيُّرَ والارتجاج:

لـم تَـسـتـفـدْ غـيـرَ الـتّـحـيّـرِ منهـمـا   فـجـمـيـعُـهـا أمسـى أبـا مِـرقـالٍ

وكذلك قصّةُ الدّين والعلم والمال، حاول أن يشرح فيها المشكلةَ الاجتماعيّةَ بين العمّالِ وأصحابِ رؤوسِ المال، فبنى لها ثلاثَ مدنٍ متجاورةً تتجادلُ وتتخاصمُ وتتشاتم، فلم يجدْ وسيلةً للتّوفيقِ بينها، فدمَّرَها كلَّها وتركَها خرابًا.

الحقّ، كما يقول سلامه موسى، أَنّ لهذا الأديبِ العظيمِ فضلاً في النّهضةِ الحاضرة.

قال سلامه موسى: إنّ في الاحتفال به تنويهًا بألوانِ التّجديدِ التي قام بها في توجيهِ الأدبِ الحديثِ نحو الثّورة، واعترافًا بفضلِه على التّفكيرِ المصريّ. ونحن لا نعرفُ أديبًا مِمَّن يُؤبَه بهم في مصرَ لم يتأثّرْ بأحسنِ التّأثيراتِ من فرح أنطون؛ وكثيرٌ من النّـزعاتِ الحسنةِ في أدبنا يعودُ إليه!

■■■■

في رأي بول بورجه «أَنَّ كلَّ من يصفِّيه التّفكيرُ والمطالعةُ يتعرَّضُ لعدمِ الامتزاجِ بجماعته؛ فإمّا أن يثورَ على بيئته التي يتألَّمُ منها، أو يحاولُ الدّخولَ في غيرها؛ فهو كالنّبتة التي تَشقُّ جذورُها الإناءَ الذي نشأت فيه، فيجبُ أن تُنقلَ منه».

وهكذا فعلَ فرح أنطون. لقد رأى التّعصّبَ الدّينيَّ في طرابلس والكورة والجبّة، فثارَ على محيطه، ومحيطُه محيطُ الشّرقِ كلِّه. ثمّ أَغرقَ في مطالعةِ كتبِ المحرِّرين، فخلعَ النّيرَ، ونزحَ إلى مصرَ حيث أنشأَ «الجامعة»، الّتي ما أن أطلّتْ حتّى قالت فيها «الهلال»: «إنّ الجامعة جاءت الشّرقَ في إبّانِ حاجتِه إليها». وقد قالتِ الهلالُ نفسُها، يومَ غابَ فرح أنطون: «إنّ الجامعةَ خيرُ آثارِه...»

وإذا قلنا «الجامعة» عنينا سبعةَ مجلّداتٍ ضخمة، كلُّها جديدٌ طريفٌ، وقلنا أيضًا تلك الكتبَ التي ألّفها، والأخرى التي ترجمَها، أو لخَّصَها.

وهذا مارون عبّود يسألُ: ماذا عمل الرّجلُ في الخمسين إلاَّ عامَين، وأيَّةَ رسالةٍ أدَّى؟

ويجيب: وأيّةَ رسالةٍ لم يؤدِّ؟ فهو الّذي عرَّفَ سَوادَ الشّرقِ الأدنى ببوذا وكونفوشيوس، وأَطلعهم على شرائعِ حمورابي. وهو أوّلُ من أذاعَ فلسفةَ تولستوي. وكان له مع الإمام محمّد عبده جولاتٌ موفّقةٌ حول ابنِ رشد وفلسفتِه شغلتِ العالمَ العربيّ حُصَّةً من الزّمن. وهو من أرانا وجه جون روسكين النّبيل، ونشر تعاليمَ روسّو وبرنردان دي سان بيار، وترجم قسمًا كبيرًا من رائعة نيتشه زاراتوسترا. وأخيرًا اهتدى إلى مكسيم غوركي، فترجم أشهرَ رواياته «ملفا». وهو الذي اكتشف تعاليم كارل ماركس قبل أن تَحمرَّ روسيّا البيضاء. وفرح هو الذي عرَّفنا بـ رينان...

قام بكلِّ هذا، يومَ لم يكنْ يحلمُ الشّرقُ إلاَّ بقديمه، ويَرى كلَّ الخيرِ فيه.

فهو القَصصيُّ الاجتماعيُّ الأوّلُ في قصصِه: الدّين والعلم والمال، والوحش الوحش الوحش، وأورشليم الجديدة، ومريم قبل التّوبة، وغيرها. وصاحبُ المسرحيّات كابن الشّعب وصلاح الدّين، وغيرها.. كتبها للمعاش، فعاش بها المسرحُ العربيُّ حينًا، وتَركتْ في وقتها دويًّا اجتماعيًّا.

ويضيف مارون عبّود: عَشقتْ نفسُ فرح أنطون الحرّيّةَ في كلِّ ميدان، ونظرَ إلى أهميّةِ التّربيةِ فترجمَ آراءَ جول سيمون، وظاهرَ قاسم أمين في معركةِ تحريرِ المرأة، وهو لم ينسَ أعاظمَ رجالِ الغرب العصاميّين فترجمَ لهم ليحثَّ الشّرقَ على النّهوض...

ولا يهملُ فرح الفلسفةَ فيعرِّفُنا بأوغوست كونت وفلسفتِه الحسّيّة، كما أذاع سيرةَ فيليكس فور تحت هذا العنوان: «من معملِ الدّباغةِ إلى رئاسة الجمهوريّة».

ثمّ لم ينسَ العِلمَ فترجمَ لـ برتلو هاتفًا: «المجدُ للعلماء».

وعلى قلّةِ بضاعتِه من الشّعرِ، نراه يحدِّدُ حافظ ابراهيم وأحمد شوقي تحديدَ بصيرٍ، ويَدلُّ على مقامِهما العتيدِ في صرحِ نهضتِنا الحديثة...

وبَعدُ.. أتخيّلُ فرح أنطون كالمُوَسوَسين، وكأنّي أراه حائرًا، هادئًا، يفكِّرُ أبدًا، ويحلِّلُ القضايا التي تُثقلُ ظهرَ أمّتِه، لا يدري بما ينفِّسُ عنها، ولا كيف يعالجُ أدواءَها، فلجأَ إلى كهوفِ الدّهورِ يَنشرُ على قومِه تعاليمَ أهلِها، فتركَ لنا هذا الميراثَ الخالد».
ولقد أَقرَّ أدباءُ مصرَ لفرح أنطون بالسَّبقِ في ميدانِ الأدبِ العالي، ثمّ بالنّضالِ السّياسيِّ والدّفاعِ عن أسمى قضاياهم، فقال فيه محمّد لطفي جمعه يؤبِّنُه: «عندما ذهبَ الآخرون يلعبون بذهبِ المُعزِّ، كنتَ أنتَ، أيّها الغريبُ، لا تَرهبُ سيفَه، فما أعظمَ هذا الفضلَ لك علينا!».

وقال سلامه موسى، زعيمُ المجدِّدين في مصر: «إنّ الفراغَ الذي أحدثته وفاةُ فرح أنطون في الأدبِ العربيّ لن يملأَه أحدٌ في أيّامِنا الهوجاءِ هذه.. كان ميدانُه الأدب، لا يتعدَّاه إلى غيره، ولذا بزغَ فيه وألمَّ بأطرافه وابتدعَ فيه واخترع».

وكان عبّاس محمود العقّاد توجَّه، يومًا، إليه بالقول: «إنّك يا فرح طليعةٌ مبكرةٌ من طلائعِ هذه النّهضة، وسيعرفُ لك المستقبلُ من عملِك ما لم يعرفْه الحاضر، وستكونُ حين تفترقُ الطريقان خيرًا مِمَّا كنتَ في هذا المَلقى المضطرب».

▪▪▪▪

فرح أنطون.. كنتَ طليعةَ انفتاحٍ وتجديدٍ وثورةٍ..

تُرانا نحن، اليومَ، في مستوى وحيِ رسالتِك الجامعةِ الشّاملة؟!

تُرانا ندركُ أنّ النّهضةَ تتأتّى من تعليمِ الفلسفةِ وأدبيّاتِ الأخلاقِ، وأنّ تعليمَ المرأةِ وتحريرَها والإقرارَ بحقوقِها ودورِها تثمرُ مواطنين أصحّاءَ أقويّاءَ، وأنّ المدرسةَ يجبُ أن تكونَ مجّانيّةً وطنيّةً علمانيّةً تعتمدُ على معلّمين مُعدّين الإعدادَ الحسنَ لبناءِ أجيالٍ صالحةٍ في المجتمعِ والوطنِ، وأنّ أهلَ الكلمةِ في كتبٍ وصحفٍ ومسارحَ ومحاضراتٍ ينبغي أن يستجيبوا لحاجاتِ الناسِ ويُسهموا في تطوّرِهم وتقدّمِهم وفي إرساءِ دولةِ الحقوقِ، وأنّ لا بدَّ من إشاعةِ وإرساءِ روحِ التّسامحِ والاعترافِ بالآخرِ المختلفِ، واعتمادِ المعرفةِ أداةً للتّقدّمِ والازدهارِ، واعتبارِ المواطَنةِ والحقِّ أولويّةً في الحياةِ المدنيّةِ لا الاعتباراتِ الدينيّةِ الملوّنةِ بألوانِ السّلطةِ والمالِ؟!!

أَلا إنّنا نسألُ السّماءَ رأفةً ورحمةً، في هذا الزمنِ الرّديءِ، زمنِ يقظةِ مفاهيمَ بائدةٍ حول الأمّةِ والإمامةِ والخلافة!!

بين الذّاكرة الإبداعيّة، والذّاكرة التّأريخيّة في الشّعر العربيّ المعاصر (١)

إلياس أبو شبكة نموذجًا

إيلي مارون خليل

إيلي مارون خليل

إلياس أبو شبكة عرف كيف يحوّل «مرئيّاتِه» بعين الحسّ، إلى «مرئيّات» بعين الرّوح. لقد كان ابنَ ذاته الوجدانيّة والثّقافيّة والاجتماعيّة والدّينيّة... على تَفَرُّدٍ، إنّما على تَناغُمٍ وانسِجامٍ، مع قناعاته، وإنْ تعارضت مع مجتمعه.

مقدّمة عامّة

غالبًا ما كنت أطرح أسئلة كثيرة على نفسي، ومنها سؤالٌ يتكرّر، كأنّه اللّازمةُ للموشَّح، والّتي لا بُدَّ منها، وإلاّ فهو أقرع. أو كالعنوان للكتاب، وإلاّ فهو بدون هُويّة. هذا السّؤال العفَويُّ البسيطُ هو: ما الّذي يفرقُ بين شاعرٍ جيّدٍ، وآخر متوسِّطِ الجودة؟ ما الّذي يميِّز شاعرًا من شاعر؟ لماذا أقول هذا شاعرُ إبداعٍ، وذاك شاعرُ ذاكرة؟ هو السّؤالُ نفسُه عَبْرَ صِيَغٍ عديدة.

بقدر ما يبدو السّؤالُ بسيطًا، يبدو صعبًا في الآن ذاتِه.

يسهل عليك، وأنت تقرأ قصيدةً ، أن تقول: هذه قصيدة جميلة. وعن ثانية، ولو للشّاعر نفسِه: هذه قصيدة عاديّة. وعن ثالثة له بذاته، إنّها «من عيون الشِّعر»، أو هي حسنة، أو غير ذلك. ولكن، أن تحدِّدَ عناصرَ الجمالِ، أو مَكامِنَ الجودةِ، أو مَلامِحَ تجعلُها عاديّةً، أو جيِّدةً، أو غيرَ ذلك، فأمرٌ صعبٌ. أأنتَ تعتمدُ المعنى، أم الفكرة، أم الصّورة، أم العاطفة، أم الإيقاع، أم التّركيب؟.. إلى ما هنالك. فما ينال إعجابَك، أو رِضاك، قد لا يَرضى عنه آخَر؛ وبالعكس. فهل من جامعٍ يُرضي الجميعَ، أو يَتّفقُ عليه الجميعُ، وبصورةٍ كلّيّة!؟ وإن وُجِد ذلك، فأين الخُصوصيّةُ، عند ذاك، وأين ثقافةُ الفرد الّتي تجعلُه مميَّزًا لا يُشبِه أحدًا؟

أسارعُ إلى المُصارحة: لا قواعد «عِلْميّة» محَدَّدة، ثابتة، يتّفقُ عليها الجميع. لكلٍّ قواعِدُه. قد يتّفقُ بعضُها مع بعضِ ما عند سواه. قد يكثرُ هذا، أو قد يقلّ. ليست هنا المسألة. ألمسألة في كون هذه «القواعدِ» ليست نفسَها. تظلّ مختلفة باختلاف الثّقافة والغاية والأهمّيّة والرّؤيا والذّوق والمِزاج، وأمور أخرى تميّز الأفراد، مثقَّفين كانوا، أم «عاديّين».

لكنّ هذا لا يعني عدم التّوافق التّامّ، والمطلَق، والثّابت. إنّنا نجد «ثوابتَ» بعينِها عند الجميع، مع اختلاف في ترتيب درجة الأهمّيّة. من هذه الثّوابت، مثلاً، عناصرُ الأدب الآتية: ألفكرة، العاطفة، الخيال، الأسلوب. إنّما نحن لا نجد ترتيبًا موحَّدًا لهذه العناصر. لمَ يحدث ذلك؟ إضافةً إلى ما سبق ذكرُه، نجد أسبابًا أخرى، منها: المَيلُ والهوى والطّبع، ومن هذه النّقطة وُجِدتِ المذاهبُ، أو المدارس، أو الاتّجاهات الأدبيّة، بين كلاسيكيّةٍ وعقلانيّتِها وفصاحتِها، ورومنطيقيّةٍ وعاطفيّتِها وحرّيّتِها وصدقِها، ورمزيّةٍ وإيجازِها وصورِها وإيقاعِها، و«پرناسيّةٍ» وأسلوبيّتِها، وواقعيّةٍ وتَشاؤميّتِها، وطبيعيّةٍ وآليّتِها، و«سورّياليّةٍ» وغرائبيّتِها، وسواها.

ومهما كان مذهب الشُّعراءِ، فهناك جوامعُ بينهم جميعًا، هي الاتّكاءُ: إمّا على الذّاكرة الإبداعيّة، وإمّا على الذّاكرة التّأريخيّة. فما الفارق؟

قد ينطلق كلا الشّاعرَين، من موقع واحد: ألتُّراث. ما يُشير إلى الانطلاق من أرض ثابتة، هي «الذّاكرة». لكنّ الانطلاق من هذه الذّاكرة يتنوّع، أو يختلف، أو يتلوّن، بحسب المقدرة الشّخصيّة على «الإنتاج» الأدبيّ، شعرِه والنّثر. فـ«المنتِجُ» إمّا هو قادرٌ على إحراق الذّاكرة، أو اختراقها وتَخَطّيها قدر ما يستطيع، وإمّا هو غيرُ قادرٍ، أو غيرُ راغبٍ في ذلك. يكون الأوّلُ شُجاعًا، واثقًا، لذلك هو يريد فيُقدِم. ويكون الثّاني ارتداديًّا، قلِقًا، لذلك هو يخاف فيتقوقع. ألأوّل مُثَقَّفٌ، متنوِّر، متحرِّر، مُجدِّد؛ والثّاني حافظٌ، ظلاميّ، مُكَبَّل، مُقلِّد. ألأوّل مغامِرٌ، فرِحٌ، راجٍ، واثق؛ والثّاني جبانٌ، كئيبٌ، يائس، مُتأرجِح. يؤمِنُ الأوّل بالقدرة التّغييريّة اللاّزمةِ، الواجبة، لحتميّة التّجديد والتّطويرِ والاغتناء حضاريًّا، وتاليًا الارتقاء بالإنسان. ويخاف الثّاني التّغيير، فقد «اعتاد» وضْعًا محَدَّدًا، هو مقتنعٌ به، غيرُ راغبٍ في تبديله، والأرجح غيرُ قادر. فالأوّلُ صاحبُ رؤًى تتخطّى الحاضر نحو غدٍ أكثرَ إشراقًا، والثّاني صاحبُ رؤيةٍ ارتداديّة، وتاليًا، رغبةٍ في البقاء في الماضي، والنَّسْج على منوالِه. يعتبر الأوّل أنّ الماضي جامد، وتاليًا، مَن يَوَدّ البقاء فيه جامدٌ مثلُه، وأنّ الحياةَ حركة نحو الأمام. ويعتبر الثّاني أنّ التّغيير ليس تجديدًا، بل هو انقلابٌ على تاريخ الأمّة، وخيانةٌ لهذا التّاريخ.

مِثْلُ هذا الواقع، يفرز نظريّتَين لا تتلاقيان. وأنت، كشاعرٍ، لك أن تختار موقعَك. قلتُ تختار، لقد أخطأتُ. أو أنقصْتُ. لتختارَ، عليك أن تكونَ حرًّا، منفتِحًا، فهل أنت؟ أم أنت تُقيِّد نفسَك بسلاسل الماضي و«تقدِّسُه»؟

ويبقى تَفاهمٌ غيرُ مباشرٍ، بين هذين. تَفاهم!؟ تفاهمٌ غريبٌ غيرُ مقصود، قلْه تَناقضًا حادًّا. كلاهما «مكرِّسٌ». ألأوّل مُكَرِّسٌ للحرّيّة والثّقة وحَتميّة التّغيير والتّجديد، إغناء للتُّراث والحضارة. ويكرِّسُ الثّاني الماضي فيدعو إليه، لتقليده، حفاظًا على التّراث لأنّه غنيٌّ بذاته.

واضحٌ أنّ الأوّل «يحيا» للزّمن الآتي، بينما «يعيش» الثّاني للماضي، ولتكريسه. ألأوّل «يحفظ» ليحلّل ويفهم وينطلق مُغايِرًا، واثقًا، حُرًّا، رائيًا؛ أمّا الثّاني، فـ«يحفظ» ليتّخذ مِثالاً له، يتفانى في تقليده، والكتابة على منواله، ناسِخًا، مُقَيَّدًا، سجينَ الذّاكرة، وبلا رؤيا.

ألفوارِق

وبعدُ؛

لِمَ هذه الفوارقُ، هذا الاختلافُ، هذا التّناقضُ بين شاعرَين، أو كاتبَين... وفي الزّمن نفسِه!؟ يعود الأمرُ إلى عوامِلَ كثيرة، نتوقّف عند **خمسةٍ** منها، فحسبُ، لئلاّ يطولَ بحثُنا، فنُرهِق ونُملّ، أوّلُها هو الثّقافة.

فما هي الثّقافةُ، لتكونَ أوّلَ العوامل المؤثِّرة؟

ألثّقافةُ مشروعُ تحصين الذّات بوجه الأعاصير الّتي ليس أهمَّها الجهلُ، بل فراغُ النّفس والرّوح ممّا يُجَدِّدُهما، وامتلاؤهما بما يُشينُهما. ما يجدِّدُهما!؟ الرّؤيا وروح التّخَطّي والمغامرة في سبيل جديد خصبٍ ومُثْرٍ. وما يُشينُهما!؟ الجُمودُ والرّكودُ فتأسَنان وتتعفّنان، فلا انطلاقٌ، ولا تغييرٌ، ولا تجديدٌ، بل ثباتٌ على ما اعتادَتا عليه في زمنهما، مستوحًى من ماضٍ أفلَ، لا تزالان تظنّانه الأكثرَ أهمّيّةً وأصالةً، الصّالحَ لعصرِه وأيِّ عصر، ما يتنافى ومبدأَ الانفتاح والتّطوُّر. لكن، يجب ألاّ يكونَ الحاضرُ صورةَ الماضي، أو مرآتَه. هذا قتلٌ للماضي، أو تحجيمٌ له، ونَحْرٌ للحاضر، واغتيالٌ مُسَبَّقٌ للمستقبل!

والثّقافةُ «هَضْمٌ» للمعرفة، فَهْمٌ لها، انطلاقٌ منها، لـ«تهوئتها» وتجديدها، ما يؤمّن، للإنسان، سعادةً أوفر، ورفاهيّةً أَعَمّ. وهاتان من غايات الحياة في كلِّ بيئةٍ، كلَّ زمن؛ وإلاّ، فالحياةُ تَشَرْنُقٌ على الذّاتِ، تَكَرتُنٌ على ماضٍ نريدُه لا يزول، ونعمل على أن يمتدَّ وينسحبَ على كلِّ جيلٍ، ما يخالفُ قانونَ الطّبيعة، وتَفَتُّحَ الذّهن الدّائم، مع الأيّام والعصور. فغيرُ المثقَّفِ يُقيمُ في الماضي، مُعَرقِلاً نموَّ الحياة، مُقيِّدًا لها بحبالِ التقاليد والعاداتِ الّتي يكون الزّمن غَرْبَلَها، فلم يُبقِ منها إلاّ القليلَ الحيَّ الحاملَ بذورَ التَّجَدُّد. إذًا، فالثّقافةُ تَأصيلٌ للأصولِ، وانطِلاقٌ منها، مُتَفَرِّعٌ، مُغنٍ، يُغني ويُفيد.

وما **البيئةُ الحاضِنة**!؟

هي بيئةٌ لا تحيا، إنّما تكتفي بالعيش. البيئةُ الحيّة هي الّتي تحتضنُ المواهبَ الجديدةَ. تجعلُها المُحتضِنة المُحتضَنة في آنٍ. هذا الاحتِضانُ، هنا، يوجِّه، يُطلِقُ، يَدفعُ إلى اقتحام المُغامَرات في سبيل التَّجَدُّدِ الحاضِّ على التّجديد. أمّا البيئةُ المكتفِيَةُ بالعيش، فتهرِسُ النّظَرَ إلى المستقبل، أي الرّغبةَ في تجاوز، ليس الماضي، فحسب، بل الحاضرَ المغايرَ، ومن ثمّ المستقبلَ، والّذي يكونُ، تاليًا، مغايِرًا لهذا المستقبلِ المُغايِرِ الجديدِ المُتَجَدِّد. لا ثباتَ للحيّ، لا جُمودَ للحياةِ. ألعيشُ؟ أمرٌ آخر. هذا الأمرُ الآخَرُ، نَخْرٌ للذّات المستقبَليّةِ. تَقْويضٌ لها. إقامةٌ مطمئنّة، مكتفِيةٌ، كافية. ما يُخَدِّرُ، ما يُعيب.

ألبيئةُ الحاضِنةُ، هذه، تتصرّفُ على أساس أنّها الفاهمةُ، الحسنةُ الفَهْمِ. وأنّها على صَوابِ رأيٍ ورؤيةٍ ورؤيا. فتعملُ على المواجهةِ، وتَحَدّي الآخرِ المختلِف. وتعتبرُه خارجًا على الإجماع، على الأصيل. تعتقدُ أنّ الإجماعَ حقٌّ يجبُ الخضوعُ له، والعملُ بموجبِه، والبقاءُ في عباءتِه. كما ترى أنّ الأصيلَ هو الأوّلُ، الكاملُ، إذًا، المِثالُ الثّابتُ الواجبُ اتّباعُه، والبناءُ عليه. في هذه الحال، لا يكون الجديدُ إلاّ جديدًا زمنيًّا، لا فِعْليًّا. مثلُ هذا «الجديدِ»، ليس جديدًا. إنْ هو إلاّ قديمٌ في كلام مُنَمَّقٍ يُرادُ له أن يكونَ جديدًا عاملاً على التَّجديد، وهو أمرٌ صارخُ الخطإ، واقعٌ في حتميّة التَّقَوقُعِ. كلّ تَقَوْقعٍ انكفاء. كلُّ انكِفاء انحسار. انطفاء. موت.

وشخصيّةُ الشّاعرِ، أو الكاتبِ، عاملٌ، هو الآخرُ، مُهِمٌّ، في هذا المجال. وهي شخصيّةٌ، إمّا انكفائيّةٌ، منطويةٌ، مكتفية؛ وإمّا تَفاعُليّةٌ، انفِتاحيّةٌ، طَموح.

أبحاث

الأولى متعَبة، تعيش كآبةَ مِزاج، تشاؤمَ حال. ألمكتئبُ المتشائمُ بعيدٌ عنْ فرحِ المشارَكة. يعيشُ صاحبُها على هامشِ الحياة، على هامش الفنّ المتجدِّد. يكتفي بتراثه. بـ«محفوظات ذاكرته»! محفوظاتُ الذّاكرة، مجرَّدُ «معرفةٍ تَراكُميّة». تبقى، هذه، منطفئةً، هشّةً، لا يُعتَدُّ بها، ولا يؤخَذُ، لا تتحوّلُ إلى أيّ نوعٍ من الثّقافة. والثّانيةُ فرحةٌ، منفعِلةٌ، متفاعلة؛ إذًا، هي واثقةٌ، مُريدةٌ، قويّة. إذًا ناضجةٌ واعية. ألشّخصيّةُ الأولى تتآكلُ، تسيرُ إلى الوراءِ، إلى الهاويةِ، إلى الاندثار. ماذا يبقى، اليوم، ممّا سُمِّيَ بالتّراث، إلاّ القليلُ المُضيءُ السّابقُ عصرَه! والشّخصيّةُ الثّانيةُ تتفتّحُ، يومًا بعد يوم، تُصفّي ذاكرتَها، تختار المُشرقَ منها. ألمُشرقُ يستمرُّ مُشرقًا في المستقبل، لأنّه، أصلاً، ابنٌ للمستقبل بما فيه من رؤى. كم صمدَ من شعر القُدامى!؟ كم سيصمدُ من شعر المعاصِرين!؟

أمّا **القُدرة، وسمِّها الموهِبةَ**، إن أنتَ شئتَ، فقوّةٌ فطريّةٌ تساعدُ على الإبداع. ألذّاكرةُ، هنا، «تحفظُ». ولكن، ما الحفظُ، ما قيمتُه، ما دورُه!؟ ببساطةٍ صريحةٍ وواقعيّة، لا شيء. ليس للحِفظ قيمة. هو يحوّلُ صاحبَه إلى «بَبَّغاء» تكرِّرُ، تُردِّدُ، ما يجرِّدُ من القيمة، وتاليًا، لا دورَ للذّاكرة الحافظة! وتعني القدرةُ أن يستطيعَ صاحبُها تحويلَ محفوظاتِه إلى ثقافةٍ شخصيّة، عَبْرَ الفَهْمِ والتّحليلِ والتّخَطّي. فأن يفهمَ المرءُ ما «يحفظ»، ويحلّل، و يتخطّى، يعني أنّه «حوّل» ما اكتسب إلى شخصيّته، فما فَهِمَه وحلّله وتَخَطّه، بات يصدرُ عنه كأنّه منه وله. ما يوحي إلى قدرته. وهذه القدرةُ، قوّةٌ داخليّةٌ تُسهِمُ في التّركيب، في البناء، في التّخييل، في التّصوير... فالبعضُ كثيرُ قدرةٍ، والبعضُ قليلُها. ما يؤسّسُ لجودة وتجديدٍ، أو لتَمَثُّلٍ وتقليدٍ.

والقدرةُ قدرات. فقدرةُ تفكيرٍ، وقدرةُ منطقٍ، وقدرةُ خَلقٍ، وقدرةُ تجديدٍ، وقدرةُ تَخَيُّل... وهي تتفاوت بين واحدٍ وآخر. ويَلزمُ القدرةَ رغبةٌ. ألرّغبةُ في الشّيءِ إيمانٌ به، والإيمانُ بالشّيءِ نصفُ الطّريقِ إلى إتمامه! بخاصّةٍ إذا ما كانت مقترنةً بالقدرة.

تبقى الإشارة إلى **الخيال**، وهو أنواعٌ كثيرة، نتوقّفُ عند ثلاثة منها. فهو إمّا مُقارنٌ، ويتّصفُ به الجميع، لأنّه يتّكئُ على الذّاكرة. وإمّا مؤلِّفٌ، يتّصفُ به الكثيرون، فهو يستندُ، في غالبه، إلى الذّاكرة والواقع. وإمّا خَلاّقٌ مُبدعٌ، لا يتّكئُ إلاّ على نفسِه وقوّتِه وقدرتِه وغِناه وخصبِه...

ألنّوعُ الأوّل يبقى في حدود ما هو ماديٌّ واقعٌ تحت الحواسّ، وفي إطارها، يُوضحُ ويُفْهِمُ أكثرَ ممّا يوحي. والثّاني يمزج المادّةَ بالمعقول، ما يجعلُه أرفعَ من سابقه، يوحي قليلاً من دون عميق تأثير. أمّا الثّالثُ، فبعيدٌ عن المادّة، ينطلقُ من التّصَوُّر، من التّجريد، وتأتي صُوَرُه غنيّةً، منوَّعةً، بعيدةَ التّأثير، عميقةَ الإيحاء. ألتّأثيرُ والإيحاءُ أمران أساسيّان في فنّ الأدب، يجب ألاّ يغيبا. هما يُخصِبانه بالوجدانيّة، يُلهِبانه بالعاطفة، بالبَيانِ يُوَهِّجانِه.

وعلى هذا الأساس، نرى أنّ الذّاكرةَ، إمّا مُبدِعةٌ، عند مَن يتّصفُ بمثل هذه الصّفات المهمّة المميِّزة، وإمّا تأريخيّةٌ تسجّلُ المحفوظَ. ولا شكّ في أنّ الأدبَ إبداعٌ لا حِفظ. **للجميع ذاكرة، إلاّ أنّها ليست إبداعيّةً دائمًا، وعند الجميع**. فقد نجد شاعرًا ذا ذاكرةٍ إبداعيّةٍ مرّة، ولا نجده كذلك مرّةً أخرى، لذلك نختبر تَفاوُتًا، في أحيانٍ غيرِ نادرةٍ، بين قصيدةٍ له، وقصيدة. والأمثلةُ وافِرة. فكيف نرى إلى شِعرنا المعاصر من هذه الزّاوية، وإلى تحديثه، من خلال الشّاعر الياس أبو شبكة؟

إلياس أبو شبكة: ألرّومنطيقيُّ «نقيضُ ذاتِه»(١)

تَفترضُ الإجابةُ عن السّؤالِ السّابق، معرفةَ الشّعر المعاصر كلِّه: نوعًا واتّجاهاتٍ وفهمًا ووعيًا... إلى الاتّصاف بالنّضج والموضوعيّة والشُّموليّة والمسؤوليّة... فهل؟

مواجهةً لهذه الفَرَضيّة الواقعيّة المنطقيّة، أكتفي، الآن، بدراسة نموذجٍ واحدٍ من بين شعرائنا: إلياس أبو شبكة، كونُه من المبرِّزين في هذا المَنحى. وأصارح: ليست دراسةً أكاديميّةً معمَّقة، إن هي إلاّ إطلالة على هذا الموضوع الدّقيق، ومن وجهة نظر شخصيّة.

فماذا نجد عند الياس أبو (*) شبكة(٢)؟

زمنُ هذا الشّاعر الرّومنطيقيّ، هو زمنُ ما قبلَ الحربِ العالميّة الأولى، إلى نهاية الحرب العالميّة الثّانية. إلاّ أنّه، وخلافًا للشّائع، وللمتوقَّع، لم يتطرّق، في شِعره، إلى ذلك. لم يسجّل أحداثًا. لم يؤرّخ حربًا. لم يصوّر مشاهدَ معارك، أو قتلى، أو مشرَّدين، أو جياعًا، إلخ. ألم يرَها!؟ ألَم يتأثّر بها؟ هل «حيّد» نفسَه، ونأى بها عنها، كأن لم تكنْ؟ أيستطيع الشّاعرُ أن يكون بعيدًا، وحيدًا، يحيا في جزيرة نائية؟ أوَيُمكنُه ذلك؟ لا، وبالتّأكيد! فماذا فعل!؟ ببساطة تامّة: لقد عبّرَ عن تأثيرِها فيه: إتّجاهًا، موقفًا، مُخيِّلَةً، إيحاءً، فكرًا، عاطفةً، أسلوبًا. ومن تأثيراتها فيه، «هروبُه» إلى المذهبِ الرّومنطيقيّ، على غير وعيٍ منه، أو إرادة.

*آثرت استخدام صيغة الرّفع في حالات الإعراب جميعها، على غرار الشّاعر نفسه. (١) ألتّعبير «نَقيض ذاتِه»، عنوان محاضرة للأب الدّكتور إسطفان صقر تناول فيها الشّاعر. (٢) ١٩٠٣ /١٩٤٧. لبنانيّ من زوق مكايل في كسروان. له مجموعات شِعريّة مهمّة منها: **أفاعي الفردوس** (١٩٣٨)، **الألحان** (١٩٤١)، **نداء القلب** (١٩٤٤)، **إلى الأبد** (١٩٤٥)؛ وفي النّثر: **ألرُّسوم**، (١٩٣١)، **روابط الفكر والرّوح بين العرب والفرنجة**، (١٩٤٥)؛ وعرّب كتبًا فرنسيّة كثيرة منها: «المرأة في حياة بودلير»... هذا وقد حوّلت بلديّةُ زوق مكايل، بلدتِه، بيته إلى متحف ذي مواصفات عالميّة.

كيف استطاعَ أن يسجّلَ تأثيرَها، وأن يلجأَ إلى الرّومنطيقيّة، ولم تكنْ منتشرةً، بعدُ، عندنا!؟

بالموهبة، بالشّخصيّة، بالنّضج الفنّيّ المتّصل بثقافته الغربيّة، الفرنسيّةِ تحديدًا، بوعي جوهر الفنّ الّذي ليس «نقلاً لواقع»، إنّما هو «نقلٌ لأثرِ الواقع»، تصويرٌ لتأثيره في الذّات الشّاعرة، وما أوحى به إليه، بأسلوبٍ «مُطَعَّم» بالبَيان ولا مبالغة، مجدِّدٍ، مؤثّرٍ بدوره، وموحٍ إلى قارئه.

من حيث الموهبة، وهي طاقةٌ، للخَلْق، فطريّةٌ، لا شكّ في أنّه يختزنُها. ومن دلائل هذا، بداياتُه وهو على مقاعد الدّراسة في مدرسة القدّيس يوسف، عينطورة، بالفرنسيّة أوّلاً، وبالعربيّة من بعدُ. ولقد نشر بعض ذلك، مُضيفًا إليه بعضَ ما كتبه في مراهقته في ديوانه الأوّل: (القيثارة، ١٩٢٦). ومع أنّ ديوانَه الأوّل، هذا، وليدُ التّلمذة والمراهَقة، ومع أنّه ليس له قيمةٌ مهمّة شِعريًّا، لم يتطرّق إلى تصوير مظاهر، أو وصف مناظر، أو نَقْل أحداث. إذًا، فهو لم يكن صاحبَ ذاكرة تأريخيّة، حتّى ولا في كتابه الأوّل، والمراهِق.

ومن حيث الشّخصيّةُ، فقد كان شاعرُنا صاحبَ شخصيّةٍ متناقضة: عابس/مبتسم، متشائم/متفائل، غاضب/هادئ، لاهٍ/رصين، مجنون/عاقل، ثائر/مطمئنّ، مُتَفَلِّت/مُتَديِّن، كافر/مؤمن... ألسّبب؟ أسبابٌ، منها: البيئةُ الدّينيّةُ التّقليديّة المحافظة على إيمانها من دون الـ«لماذا». تَرِثُ الإيمانَ وتورثُه كما انتهى إليها ممّن سبقوا، بما في ذلك الإيمان «الأعمى» من عادات وتقاليد لا علاقة لها بالدّين، إن هي إلاّ أساطير، مِثالُ ذلك ما يرافق ذكرى عماد يسوع في نهر الأردنّ، من ركوع الشّجر، (باستثناء التّين، وقيل والتّوت) واختمارِ العجين من دون خميرة، إلخ. ولقد التحق بمدرسة مسيحيّة متشدّدة في ممارسة الواجبات الدّينيّة. وزوق مكايل، بلدته، ذات أديار وكنائس كثيرة، فكيف دار والتفت، رأى أديرةً وكنائسَ، ورهبانًا وراهبات، وسمع أجراسًا تدعو المؤمنين إلى الصّلاة؛ فلمّا «تَحرّر»، وعرض الإيمان على العقل، «اهتزّ» مُبتعِدًا عمّا دعاه: «مظاهر» الدّين، وكان على صدامٍ مع غير واحدٍ من رِجاله. ومن الأسباب، أيضًا، شخصيّةُ أمِّه الكثيرةِ التّديُّن، وتربيتُها له، هو الوحيدُ بين شقيقتَين. فلمّا «نضج»، تفلّت من «قيود» الأمّ، و«حرّر» ذاتَه. ومع ذلك، عاش التّناقض: فقد بقي محافظًا على عادة الصّلاة قبل النّوم، وعند الفجر قبل النّهوض. ومنها مشاهداتُه مآسي الحرب، من جوع وموت وجثث في الطّرقات، وتَشَرُّد وصراعات متنوّعة، إلخ، ما انعكس في شخصيّته وشاعريّته: هرب من هذه البشاعات إلى عالم الأحلام والحبّ والحرّيّة، رومنطيقيّ الطّبع، لا عاملاً على أن يكونَ رومنطيقيًّا، فكان الرّومنطيقيّ الأصيل. عاش الآلامَ النّفسيّةَ والاجتماعيّةَ والوطنيّةَ والماديّةَ والجسديّةَ، ولم يتخيّلها. اختبر الوحدة، حادّةً، ولم يتصوّرها. غدر به المجتمعُ وأهلُ السّياسة، فعليًّا، فعاد إلى الطّفولة. ضاقت به الأيّام، وضيّقت عليه، هرب إلى الأحلام. ورأى المرأة بوجهَين: سلبيّ (وردة، امرأة «أفاعي الفردوس»، ١٩٣٨)، فاعتبرها رمزَ الحضارةِ المُشَوَّهةِ والمتهدّمةِ والحقيرة، وإيجابيّ (ليلى امرأة «نداء القلب»، ١٩٤٤) و(«إلى الأبد»، ١٩٤٥) ورأى أنّها رمزُ الصّدق في الحبّ، بانيةُ حضارة الجمال. إذًا، لقد عاش أبو شبكة صراعَ نفسٍ تتمزّق بين الشّرّ والخير، والبشاعة والجَمال، والعُهر والطُّهر... فازدادت آلامُه؛ لكنّه اعتبر أنّ الألم طريقٌ إلى الله (غَلْواء، ١٩٤٥).

هذا كلُّه، ولم يؤرّخ لحدث، ولا لمشهد، ولم يصوّر جثّة... ما عبّر عنه، هو أثرُ ذلك كلِّه، سلبيِّه والإيجابيِّ، على نفسيّته وتفكيره ونمط حياته، وهذا يؤثّر في «الآخر» ويوحي إليه، ويَلَذُّ له، ما يحقّقُ إحدى غايات الأدب الأهمّ.

أمّا نضجُه الفنّيّ، فيتراءى في كتبه الّتي تلت (القيثارة،١٩٢٦). دارت حياة أبي شبكة الأولى، فترة المراهقة والشّباب، بين زوق مكايل وميروبا (وله فيها قصيدة طويلة) وحراجل وفيطرون وعجلتون، وهذه البَلْداتُ، في حينه، ذاتُ طبيعةٍ بكر، ساحرةٍ، فائقةِ الجَمال: فضاءً وأشجارًا وأطيارًا وينابيعَ وجداولَ وسهولَ قمحٍ وتلالاً ووديانًا... تَمورُ، كلُّها، بالألوان، تموجُ بالخير، تَدفقُ الهواءَ نقيًّا... ففنّى هذه الطّبيعةَ اللّبنانيّة الجميلة، (الألحان، ١٩٤١) بل الفريدة، بالنّسبة إليه، بعين القلبِ والوِجدان. لم يؤرِّخ لها. وصفَ تأثيرَها فيه، وتاليًا، فينا، كما نقل إيحاءها العميق والفتّان. وذكّرنا بأجواء القرية اللّبنانيّة الإيمانيّة: «صلاة المغيب»(٣)، والاجتماعيّة: «عيدٌ في القرية»(٤)، والعائليّة: «ألحان الرّبيع»(٥)، وبعاداتها والتّقاليد: «ألحان القرية»(٦)... ويظهر هذا النّضج، أيضًا، في: (أفاعي الفردوس)، فأبو شبكة عاش تجربةَ الجسد، لكنّه لم يصوّرها. أوحى إليها بشكلٍ ذكيٍّ جديدٍ، في حينه، عَبْرَ استعمالِه الأسطورةَ، والشّرقيّةَ تحديدًا، فلم يتغرّبْ، فكان الشّاعرَ الأوّل، عندنا، ممّن استعملوا الأسطورةَ التّاريخيّةَ كرمز: «شمشوم»(٧)، وكذلك المرأة،

(٣) **ألألحان**: صص٢٨٧،٢٨٦: إلياس أبو شبكة، ألمجموعة الكاملة، في الشّعر، ألمجلّد الأوّل، دار روّاد النّهضة ـ دار الأوديسّيه، ألطّبعة الأولى ١٩٨٥. (٤) م.ن. صص٢٨٤/٢٨٦. (٥) م.ن. صص٢٦٤/٢٦٥. (٦) م.ن. صص ٢٦٨/٢٧٠. (٧) **أفاعي الفردوس**، م.ن. صص ٢٢٠/٢٢٣.

(وتُشير إلى ذلك قصائد الكتاب بجملته!) وقد كان الأمرُ فَتْحًا في عالم الشّعْر العربيّ، قبل السّيّاب وأترابه بعشرات السّنوات، وغالبُهم «اغترب» إلى أساطير الغرب! كما عاش تجربةَ الحُبّ الصّافي، في مرحلة عمره الأخيرة (١٩٣٩/١٩٤٧)، ويظهر ذلك، في: (إلى الأبد،) و (نداء القلب). ففي الأوّل حكى حكايةَ حبّه بطريقةٍ رومنطيقيّةٍ عذبةٍ شفيف، معرِّجًا على الصّعوبات الّتي اعترضتْه، والألسنة الّي طاولَتْه بالسّوء، ذلك كلُّه، بالإشارة والإيماء، من دونِ تفاصيلَ نثريّة. وفي الأخير، عبّر عن حبِّه بقصائدَ قصيرةٍ، تقولُ شوقَه ولوعتَه وحنينَه وحبَّه، وتختزل.

أمّا ما يَلفتُ، وتجبُ الإشارةُ إليه، عند هذا الشّاعر، وهو يُثبتُ وعيَه دورَ الفنّ، فهو أنّه لم يصفِ المرأةَ وصفًا نقليًّا، ماديًّا، خارجيًّا، كآلة تصوير، ولا مرّة واحدة، في دواوينه الّتي خصّصها لها وبها وفيها. فماذا قال فيها؟ وماذا وصف؟ ولمَ اعتبره نزار قبّاني «شاعرَ المرأة الأوّلَ، والأهمّ»(٨)؟

لم يقل فيها! ولم يصفُها! وفي هذا براعةٌ وخَلْقٌ وتَميُّز. وقد تبدّلت نظرتُه إليها، وكذلك رأيُه. في (أفاعي الفردوس)، كانت الأفعى ذاتَ «السّبعة رؤوس»! ورمزَ الحضارةِ المُشوَّهة، والمدنيّةِ الجَهنّميّةِ البدائيّةِ والشّرِّ والخبثِ والخِداع. ورآها المرأةَ الحبيبة الطّاهرة الحنون في: (إلى الأبد)؛ والمرأة الحبيبة الصّادقة المِثاليّة، والّتي قال فيها: «كأنّكِ شطرٌ من كياني أضعتُه، ولمّا تلاقَينا اهتديتُ إلى أصْلي!»(٩) وماذا وصف منها؟ لا شيء! لم يصف. عبّر عن نفسيّة، عن شخصيّة، عنها كقيمة بذاتها، جعلها تُضاهي المِثال! ولا عجب، فهكذا يرى حبيبتَه العاشقُ الولهانُ!

وبهذا يبدو أنّ شاعرَنا يجدُ أنّ دورَ الفنّ إنّما يكونُ بالإيجاز الموحي، فلا تعقيد يُعمي، ولا إيضاح يوقِع في المَلَل. ألفنُّ يومئُ، لا يشرح، يوحي لا يفصِّل. فعلى القارئ . يجعلُ الفنّ، من المُتلَقّي، شريكًا! وهذه تجربةٌ غنيّةٌ مُغنِية.

لهذه العوامل، ولِسِواها، من مثل الصّور البَيانيّة الخياليّة النّادرة، وغير المحسوسةِ، ولا الخاضعة للمادّةِ، حتّى ولا للعين أو الأنف أو اللّسان، اختلف شاعرُنا عن شُعَراء الغزل، وشُعَراءِ الحُبِّ معًا، ما جعل الآخرين يتأثّرون به ويحاولون النَّسْجَ على منواله، فما استطاعوا، بشهادة نزار قبّاني(١٠)، وهو المقدَّمُ، في هذا النّوع من الشّعْر، حين أجاب سائلتَه عن رأيه بأبو شبكة، قال: أبو شبكة أستاذُنا جميعًا، بما عنده من إيجاز وإيحاء وبَيان غير مادّيّ، خصوصًا أنّه تحدّث عن المرأةِ ولم يصِفْها مرّة. أنا ثرثار، في شِعري، لا أستطيعُ الإيجازَ مثلَه... وهذا، أيضًا، ما ركّز عليه صلاح لبكي في كتابه: (لبنان الشّاعر)(١١)، كتب: «لا نقع في شِعر أبي شبكة على أقلِّ وصفٍ للجسد. هنا ما تُثير الحبيبة لا الحبيبة...»

وعليه، هل كان الياس أبو شبكة شاعرَ الذّاكرة الإبداعيّة، أم الذّاكرةِ التّأريخيّة!؟

ما لا شكَّ فيه، بعد العرض الموجَز، هذا، أنّ أحدًا لا يَشكّ في أنّ أبو شبكة شاعرُ الذّاكرةِ الثّقافيّةِ الإبداعيّةِ الدّائمةِ التّوهُّج والإشراق، وهي استوحت تاريخًا أثّر فيه، وأوحى إليه. لقد كان شاعرَ التّفجُّرِ الذّاتيّ. لقد حفظ، لكنّه خمّر محفوظَه، من ثمّ أعلن أثَرَ ذلك وما أوحى به. أنوافِقُه الرّأيَ في ما ذهب إليه من موقف أوّليّ من المرأة، كونها «أفعى»، وترمز إلى شرّ المدنيّة المُشوَّهة الحضارة، ومن رأيه في رفض معالم الحضارة الوافدة، فيطلب العودة إلى ماضٍ رحل يحنّ إليه حنينًا موجَعًا، رافضًا أمورًا عديدة، منها إدخالُ الكهرباء إلى البيت، مفضِّلاً الشّمعة، بما تُحيي من أشباح، وتعكس من ظِلال!؟

أوافقناهُ، أم لا، ليست المسألةُ هنا. إن هي إلاّ في كونه صاحبَ الذّاكرةِ الإبداعيّة. أبدع من واقعه الاجتماعيّ والثّقافيّ والأخلاقيّ والوطنيّ والعائليّ والدّينيّ، شِعرًا مميَّزًا ومميِّزًا يبقى على الأيّام، انطلاقًا من مكوِّنات كثيرة، منها: أنّه تذكّر لينطلقَ مبدِعًا، لا مُصَوِّرًا لواقع؛ وأنّه كان حُرَّ التّفكير والتّعبير، فما خضع لمخزون ثقافيّ ملأ ذاكرتَه؛ وأنّه شاعرُ الأحلام، لا الوقائع! لذا، فلغتُه تتفجّرُ عفويّةً أصيلةً بنتَ ذاتِها لا بنتَ القاموس، ولا بنتَ الآخرين... وأنّه عامَلَ الكلمةَ على أنّها صورةُ وِجدانِه، واعتبرها تَجلّيًا للرّؤيا، رؤياه.

إلياس أبو شبكة، شاعرٌ لبنانيٌّ مميَّزٌ، مميِّز! عرف كيف يحوّل «مرئيّاتِه» بعين الحسّ، إلى «مرئيّات» بعين الرّوح. وقد استطاع أن يجعلَ ذاكرتَه التّأريخيّةَ الحافظةَ، ذاكرةً إبداعيّةً مُشرِقة. وكان أوّلَ مَن استعمل الرّمز، به أوجز فأوحى، فارضًا على قارئه أن يكونَ مطّلِعًا، مُلِمًّا، ليكونَ شريكًا مُبدِعًا، هو بدوره! يكفي أن يُعنون بكلمة واحدة: «شمشون»(١٢)، مثلاً، ليوحيَ إلى أنّ الغَدْرَ أقوى من القوّة، أو «أفاعي الفردوس»، ليُشيرَ إلى المرأة، وقد ذكر أنّ «أفعاه بسبعة رؤوس». هذا كان قبل زمن حُبِّه الكبير، موحيةِ كتابَيه: «نداء القلب» و«إلى الأبد». لقد رأى في المرأة النّقيضَين: الشّرّ والخير، الفساد والصّلاح، الاستغلال والحنان... وأوحى إيحاءً من دون تصوير، ولا ثرثرات. والرّمز أقدر على الإيصال الرّاقي، بل الأرقى.

لقد كان الياس أبو شبكة ابنَ ذاته الوِجدانيّة والثّقافيّة والاجتماعيّة والدّينيّة... على تَفَرُّد، إنّما على تَناغُم وانسِجام، مع قناعاته، وإن تعارضت مع مجتمعه مِن وجوهه كافّة. إنّه ابنُ الحرّيّة المُضيئةِ في شِعرنا اللّبنانيّ والعربيّ. ويبقى العلامةَ الفارقةَ على الزّمن.

(٨) في حديث إلى ليلى رستم، عبر تلفزيون لبنان، النّصف الثّاني من ستّينيّات القرن الماضي. (٩) **نداء القلب**، م.ن. ص٣١. (١٠) في حديثه إلى ليلى رستم، م.س.
(١١) صلاح لبكي: **لبنان الشّاعر، دار الحضارة**، بيروت، ط. ثانية، ١٩٦٤، ص ٢٢٢. (١٢) أولى قصائد مجموعته: **أفاعي الفردوس**. www. eliemarounkhalil.com

لعازر العهد الجديد ولعازر خليل حاوي

-دراسة مقارنة-

د. ديزيريه سقّال

١. **مقدّمة:** كثير من الشعراء والكتّاب أفادوا من قصّة لعازر التي وردت في العهد الجديد، فضمّنوها بعض كتاباتهم، وجاءت عند عدد منهم رمزًا، كما هي الحال عند بدر شاكر السيّاب، وخليل حاوي. ولكنّ القصّة لم ترد عند هؤلاء كما وردت تمامًا في العهد الجديد، بل أدخلوا عليها تعديلاً يفيدهم في كتاباتهم، وهو أمر معروف في عمليّة التناصّ التي تشيع في الكتابات بشكل مستمرّ.

٢. **قصّة لعازر وحيثيّاتها كما وردت في العهد الجديد:** قصّة لعازر معروفة في العهد الجديد، وقد ورت في الإصحاح الحادي عشر من إنجيل يوحنّا. ومفادها أنّ لِعازَرَ أَحدَ أَصحاب المسيح القاطنِ ببيت عَنْيا كانَ مَريضًا، فأرسلت الأختان إلى يسوع تعلمه بهذا، وتسألانه أن يذهبَ إلى هناك لمساعدته. فتلكّأ في الذهاب إلى القرية يومين، ووصلها بعد ذلك. وكان لعازر قد مات، ومجلس العزاء قائمًا. وكان يسوع يعرف أنّ صديقه قد مات، وقد قال للرسل إنّه نائم، وإنّه ذاهب ليوقظه. ثمّ أعلمهم بموته. ولمّا وصل قالت له مريم أخت لعازر إنّ أخاها مات، ولو كان هو هنا لكان عاش. وعندما أمرهم بفتح القبر قالت مرتا، أخت لعازرَ الثانية، إنّه قد أنتن. فسألها إن كانت تؤمن به، فأجابت أن نعم. ففتحوا القبر وردّ المسيح إلى لعازر الحياة، بقوّة الله، ليؤمن الجمع الحاضر بأنّ الله أرسله.

٣. **حيثيّات القصّة الإنجيليّة:** تعني كلمة لعازر: «الله عضَد»(١)، أو «الله مُعين»(٢). وتُبنى على أساس الإيمان؛ فالمعجزة هنا وسيلة لبعث الإيمان في نفوس من لا يؤمنون بالله وبالمسيح الذي أرسله. ولا بدّ لنا من التوقّف عند النقاط الأساسيّة الآتية فيها:

١. أنّ المسيح كان يعرف بأنّ لعازر سيموت، لذلك تلكّأ في القدوم يومين، ولم يصل إلاّ بعد موته. ما يعني أنّ المسيح كان يعرف أنّه قادر على إحداث المعجزة.
٢. أنّ إيمان مرتا بالمسيح كان أيضًا سببًا في بعثه من الموت.
٣. أنّ شكّ بعض اليهود الحاضرين في مجلس العزاء بقدرة المسيح لم يكن في محلّه، لأنّ المسيح عاد فبعثه من الموت، وهم ما كانوا يتوقّعون أنّه قادر على هذا.
٤. أنّ قدرة الله التي تجلّت عبر المسيح كانت مبنيّة على الإيمان قبل كلّ شيء.

بالإضافة إلى هذا، فإنّ هدف هذه القصّة الإنجيليّة هو قوّة الإيمان الذي يريد المسيح أن يتحلّى الناس به. فالهدف من المعجزة هو ترسيخ إيمانهم بالله وبقدرة المسيح الذي أرسله يفتدي به البشر، ويقيم معهم عهدًا جديدًا. لذلك نفهم لماذا تلكّأ المسيح في القدوم إلى بيت عنيا حيث قيل له إنّ صديقه لعازر مريض.

٤. لعازر خليل حاوي:

أ. **إطار القصيدة وحيثيّاتها:** من البديهيّ أنّ خليل حاوي قد اطّلع على قصّة لعازر كما وردت في إنجيل يوحنّا، فهو مسيحيّ من قرية الشوير، تعلّم في غير مدرسة مسيحيّة، لذلك فإنّ معرفته لهذه القصّة أمر بديهيّ. ولكن كيف انتهى الأمر بلعازر في شعر خليل حاوي؟ وما هي الطريق التي سلكها في تفاعل هذه الشخصيّة في كلّ من نصّي «لعازر ١٩٦٢» لخليل حاوي وفصل إنجيل يوحنّا؟

(١) **الإنجيل وأعمال الرسل** (الكتاب المقدّس العهد الجديد)، الكسليك: كليّة اللاهوت الحبريّة، ١٩٨٧، ٤٤٨ (ها).
(٢) مكرم مشرقي، **جمان من فضّة (قاموس أعلام الكتاب المقدّس)**، مصر الجديدة: مكتبة الإخوة، ط١، ٢٠٠٠، ص ١٧٠.

لا بدّ لنا في أوّل الأمر من أن نلفت إلى أنّ الأدب المقارن ينطلق من مفهوم التناصّ الذي يحصل بين النصوص. ففي كلّ أدب مقارن تناصّ، ولكن ليس كلّ تناصّ أدبًا مقارنًا. وهذا الضرب من التناصّات الذي نقع عليه هنا يدعى «التعالُق النصّيّ» hypertextualité، التي يسمّيها بعضهم «محاكاة النصّ»(٣)، فهو يقوم على أن يأخذ نصّ (ب) من نصّ (أ) موضوعًا ما، ثمّ يستعمله بالطريقة التي تناسب غرضه.

فشخصيّة لعازر ونواة قصّتها الإنجيليّة هي محور التناصّ الحاصل هنا، لكنّ طبيعة القصّة ومسارها يختلف بين النصّين، بل إنّه يسير بشكل متعاكس.

إنّ النصّ الإنجيليّ يقوم على أساس الإيمان، والغرض منه تقوية الإيمان بالمسيح وقدرة الله من خلاله وترسيخه. يقول المسيح في الإنجيل مخاطبًا الرسل الذين كانوا معه عندما بُلِّغ بموت صديقه لعازر: «مات لعازر. ويسرّني أنّي ما كنتُ هناك لكيما يُتاح لكم أن تؤمنوا»(٤). ويقول مرّة أخرى لمرتا أخت لعازر: «أنا القيامة والحياة، من يؤمنْ بي وإن يمتْ يحيَ. ومن يحيَ مؤمنًا بي فلن يموت. أتؤمنين بهذا؟ قالت: نعم ، يا ربّ، أنا آمنت أنّكَ أنت المسيح ابن الله، الآتي إلى العالم».(٥)

إذن، فإنّ هذا النصّ مبنيّ على أساس الإيمان، ومفاده أنّ انبعاث الإنسان، كانبعاث الروح، لا يمكن أن يتمّ إلاّ عبر الله، ومن خلال الإيمان فقط، وقد أشرنا إلى هذا قبل قليل.

أمّا حاوي فيبني قصيدته على أمر آخر، مناقض للقصّة الإنجيليّة. فالأسس التي قامت عليها قصيدة «لعازر ١٩٦٢» خاصّة جدًّا، وتستدعي التوقّف عندها من أجل أن نفهم حيثيّاتها.

كتب حاوي في ديوان الناي والريح قصيدة «السندباد في رحلته الثامنة»، وهي تعبّر عن تفاؤله بالوحدة التي قامت بين سوريا ومصر واليمن تحت اسم «الجمهوريّة العربيّة المتحدة» عام ١٩٥٨، والتي استبشر بها حاوي خيرًا، واعتبر أنّ السندباد- وهو رمز للإنسان العربيّ في القصيدة- قد رحل في هذه الرحلة إلى أعماق ذاته، وطهّرها من الأسمال المتراكمة فيها، وعاد شاعرًا «في فمه بشارة» هي رؤيا للآتي.

لكنّ ما حصل بعد هذه السنوات الثلاث كان كارثيًّا بالنسبة إلى الشاعر: فقد انهارت الوحدة المذكورة عام ١٩٦١، «وكانت هذه الحادثة فجيعة لخليل حاوي، لأنّ الانفصال ظاهرة يرفضها الجسم الصحيح والانبعاث الأصيل يولّد وحدة، فيغدو الانفصال صورة حتميّة من صور الانحطاط. وقد عبّر الشاعر عن فجيعته في ديوانه بيادر الجوع، فكانت قصيدة «لعازر ١٩٦٢»... قصيدة الهزيمة قبل الهزيمة كما يقول الشاعر».(٦)

هكذا، فإنّ الحدث المركزيّ الذي قامت عليه القصيدة مختلف عن الحدث المركزيّ الذي قامت عليه قصّة لعازر الإنجيليّة، بل مناقض له. فالأساس هنا هو انعدام الإيمان، وتشوّش الرؤية، والتخاذل والموت المتأصّل في النفس، والتمسّك بالانحطاط. إنّ الانتقال من صفوة الرؤيا في «السندباد في رحلته الثامنة» إلى جحيم الانهزام والسقوط في «لعازر ١٩٦٢» هو الصدمة التي عبّر الشاعر عنها؛ ذلك أنّ «ما حسبه يقينًا نهائيًّا في الحضارة الجديدة... والشعب الجديد، يسقط في هاوية لحد عميق مع إليعازر الذي أنهضه المسيح من الخارج، ولم ينهض هو ذاته من قبره...»(٧) وقد أوضح خليل حاوي نفسه في المقدّمة التي استهلّ بها قصيدته بقوله: «لئنْ كنتَ وجهَ المناضل الذي انهارَ في الأمس، فأنت الوجه الغالب على واقع جيل، بل واقع أجيال يُبتلى فيها القويُّ الخَيِّر بالمحال فيتحوّل إلى نقيضه، ويتقمّص «الخِضْرُ» طبيعةَ «التنّين» الجلّاد والفاسق، وتكونُ المذلّةُ مصدرَ تَعاظُمه... وهكذا، وفي ما يشبه الحدْس، اتّحد الحاضر بكلّ زمان، والواقع بالأسطورة، فاكتسبت اسمًا وكان الاسم جوهرَ كيانِك: لعازر، الحياة، والموت في الحياة، تموتُ القِيَم في المناضل وتحتّقن الحيويّة فيكون الطاغية»(٨). فسقوط المناضل العربيّ هو الذي أعلن ولادة الطغاة العرب، لأنّ الوحدة التي تمثّل تعافي الجسم وحيويّته قد سقطت ليقوم على الأنظمة المتفكّكة طغاةٌ مستبدّون، يرفضون الوحدة خوفًا على مصالحهم الشخصيّة، ويرتهنون للدول الأجنبيّة من أجل المحافظة على سلطانهم ونفوذهم.

وقد عبّر حسين مروّه عن مسألة ارتباط القصص الدينيّ بالأحداث التي يصوّرها خليل حاوي بقوله: «إذا ربطت بين تلك الأحداث وقصّة بعث لعازر من الموت كما تمثّلها القصص الدينيّة، كان لنا أن نأخذ بما يتبادر إلى أذهاننا، لدى النظرة الأولى، من أنّ الشاعر هنا إنّما يعالج فكرة انبعاث منتظر في حياتنا العربيّة يطلع من قلب أحداث العام الذي قرنه باسم لعازر.»(٩)

(٣) لطيف زيتونة، **معجم مصطلحات نقد الرواية**، بيروت: مكتبة لبنان ودار النهار، ط١، ٢٠٠٢، ص ٦٤. (٤) يوحنّا/ ١١: ١٤- ١٥. (٥) يوحنّا/ ١١: ٢٥- ٢٧.
(٦) ريتّا عوض، **أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربيّ الحديث**، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ط١، ١٩٧٨، ص ١١٦.
(٧) إيليّا حاوي، **مقال**: «قراءة في شعر خليل حاوي»، مجلّة **الفكر العربيّ المعاصر**، عدد ٢٦، حزيران- تمّوز ١٩٨٣، ص ٣٥. (٨) خليل حاوي، **ديوان خليل حاوي**، بيروت: دار العودة، ١٩٧٢، ص ٣٠٩- ٣١٠. (٩) المصدر نفسه، ص ٤٥٨.

ب. القصيدة ورموزها/ تحوّل الرمز المحوريّ: يشكّل لعازر، كما يبدو لنا من العنوان، الرمز المحوريّ لهذه القصيدة، وهو يشكّل «ذروة المعاناة العدميّة والزواليّة فيما كانت الرحلة الثامنة ذروة المعاناة الإبداعيّة والتفاؤليّة»(١٠). فالقصيدة هي، في الحقيقة، رمز «لمأساة الأمّة العربيّة في معاناتها الانبعاث المشوّه، وهو أقسى من الموت»(١١). وإذا أردنا أن نذهب إلى أبعد، قلنا إنّ قصيدة «لعازر ١٩٦٢» يمكن أن «تُعدّ رمزًا لتفاعل الإنسان والحضارة. فعلى الإنسان أن يمدّ الحضارة بأسباب الحياة والاستمرار. لكنّ الشعب العربيّ- الذي اتّخذ الشاعر لعازر رمزًا له- مات وبُعث بعثًا مشوّهًا، كان، عليه وعلى الحضارة العربيّة، أقسى من الموت، فتحوّل إلى نقيض كلّ المناقب التي كان يفخر بها عندما كان شعبًا حيًّا»(١٢). وعليه، فإنّ السمة الأساسيّة في الرمز المحوريّ (لعازر) سمة حضاريّة، وهي ذات بعد سياسيّ، لأنّ السياسة، خصوصًا عند خليل حاوي، جزء جوهريّ من الحضارة، طالما أنّها تعبّر عنها، وعن المستوى الذي وصلت إليه.

من هذه المعطيات يجب أن ندخل إلى شخصيّة لعازر الذي يصفه حاوي في مقدّمة القصيدة؛ وهو يرمز «إلى الإنسان العربيّ الذي يعاني آلام الانبعاث المشوّه بعد أن يعصى عليه تغيير الواقع المهترئ، فيتحوّل من مناضل إلى عميل»(١٣). وفي هذا تقول قصيدة لعازر:

«ماردًا عاينته
يطلعُ من جيبِ السفيرْ»(١٤)

لقد اشتهى لعازر الموت والمحو التامّ في هذه القصيدة، منذ مطلعها:

«عمّقِ الحفرةَ يا حَفّارْ
عمّقْها لقاعٍ لا قرارْ
يرتمي خلفَ مدارِ الشمسِ
ليلاً من رمادْ
وبقايا نجمةٍ مدفونةٍ خلفَ المدارْ

▪▪▪▪

لُفَّ جسمي، لُفَّهُ، حَنِّطْهُ، واطمُرْهُ
بكلسٍ مالحٍ، صَخرٍ من الكبريتِ
فحمٍ حجريٍّ».(١٥)

الموت متأصّل في نفس لعازر، منذ مستهلّ القصيدة. وهذه هي المفارقة الأولى بين القصّة الأساسيّة لهذه الشخصيّة (القصّة الإنجيليّة) وقصّته عند حاوي. الانطلاقة مختلفة في جوهرها. فلعازر إنجيل يوحنّا ينطلق من الإيمان، ومن تسليم أختَي هذا الرجل ورسل المسيح بقدرته على بعثه حيًّا، أي بإيمانهم، في حين أنّ انطلاقة لعازر حاوي هي من موته المتأصّل. فشهوة الموت متأصّلة فيه، لا يزحزحها أيّ بعث له؛ ويلي هذا مباشرة تصوير لعازر وقد فقد إيمانه بقدرة المسيح على بعثه حيًّا:

«صلواتُ الحبّ والفصحِ المغنّي
في دموعِ الناصِري
أترى تبعثُ ميتًا
حجّرته شهوةُ الموتِ،
تُرى هل تستطيعْ
أن تزيحَ الصخرَ عنّي
والظلامَ اليابسَ المركومَ
في القبر المنيعْ ؟»(١٦)

هكذا، منذ البداية، «يُعلن لعازر إيمانه بعجز المسيح عن بعثه لأنّ شهوة الموت أقوى في ذاته من أيّة قوّة غيبيّة تسعى إلى منحه الحياة... ويعجز المسيح عن إحداث المعجزة... فالمأساة... هي في استمرار الوضع الفاسد الذي يعصى على كلّ إصلاح، ويعشق الموت الكليّ، ويرفض الانبعاث»(١٧). ويتفشّى فقدان الإيمان هذا في كلّ القصيدة، وينتقل إلى زوجة لعازر (في القصيدة) التي لم تعد قادرة على اللجوء إلى الصلاة لأنّها، بدورها، فقدت إيمانها:

«كُنتَ طيفًا قبل أن يمتصّكَ
القبرُ السفيهْ
عبثًا لن أدفعَ الإصبعَ
في فجوةِ جرحٍ تدّعيهْ».(١٨)

(١٠) إيليّا حاوي، مقال: «قراءة في شعر خليل حاوي»، ص ٣٥. (١١) ريتّا عوض، **أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربيّ الحديث**، ص ١٢١. وقارن: ريتّا عوض، **أدبنا الحديث بين الرؤيا والتعبير**، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ط١، ١٩٧٩، ص ٧٤. (١٢) المرجع الثاني نفسه، ص ٩٥. (١٣) المرجع نفسه، ص٧٤ وراجع: ريتّا عوض، **أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربيّ الحديث**، ص١ ١٢. (١٤) خليل حاوي، **ديوان خليل حاوي**، ص ٣١٠، ٣٥٢. (١٥) المصدر نفسه، ص ٣١٣- ٣١٥.(١٦) المصدر نفسه، ص ٣١٥- ٣١٦. (١٧) ريتّا عوض، **أدبنا الحديث بين الرؤيا والتعبير**، ص ٧٦. (١٨) خليل حاوي، **ديوان خليل حاوي**، ص ٣٤٠- ٣٤١.

فقد صارت «تؤمن أنّ الإله لا يستطيع أن يتفهّم آلام البشر لأنّه من عنصر روحيّ لا يستطيع أن يتفهّم البشريّ الذي يعاني الآلام الجسديّة»(١٩)، لهذا السبب ترفضه بدورها:

«كُنتَ طيفًا قمريًّا
وإلهًا قَمَري
كنتَ ثوبًا غائمًا
يعبقُ بالضوء الطري
يتمشّى في جروحِ المريَماتْ».(٢٠)

هذه هي الإشكاليّة الأولى في القصيدة، وهي نقيض الإشكاليّة الأولى في إنجيل يوحنّا: الإيمان الراسخ مقابل الإيمان المفقود. ولتأكّد هذا، مهّد الشاعر لقصيدته بكلمة اقتبسها من العهد الجديد، ووضعها قبل مقدّمته، مباشرة تحت العنوان، جاء فيها: «وذهبت مريم، أخت لعازر، إلى حيث كان الناصريّ وقالت له لو كنت هنا لما مات أخي، فقال لها إنّ أخاك سوف يقوم».(٢١)

لقد تمّ التفاعل بين القصّتين، ولكن بطريقة متناقضة: فالقصّة- النواة هي عينها: قصّة الرجل الذي مات وبعثه المسيح، إلاّ أنّ مسارها قد تحوّل وانقلب: فبات لعازر (الرمز) نقيض لعازر الأساس، وبات جوهر القصّة متعارضًا.

ج. **عود إلى الرموز/ تحوّلات النصّ الأخرى**: إلى جانب ما ذكرنا، نجد الشاعر، في قصيدته، يغيّب الشخصيّات الأخرى، في نصّ لعازر الإنجيليّ الأصليّ، حيث إنّنا لا نعثر على أختي البطل في القصيدة. لكنّنا نعثر على شخصيّة أخرى يضيفها الشاعر، وليست في الأصل، هي زوجة لعازر. فالنصّ الإنجيليّ الأصليّ لا يذكر أنّ لعازر متزوّج، ولا يتكلّم على زوجة له.

والزوجة هنا ضروريّة، لأنّها تمثّل الأرض العربيّة «التي مازالت فتيّة مشرقة مثل المرآة. لكن لعازر... يخلع على صفائها وإشراقها ظلّه الأسود فيقتل البريق»(٢٢). فمن خلالها يتمثّل عمق المعاناة، وترتبط القصّة بالعمق الحضاريّ والسياسيّ العربيّ. والشاعر يمثّل اصطدام الحيويّة التي في الأرض بالموت الذي يمثّله لعازر بقوله:

«كان ظلاًّ أسودًا
يغفو على مرآة صدري
زورقًا ميتًا
على زوبعة من وهجِ
نَهديَّ وشَعري
كان في عينهِ
ليلُ الحفرةِ الطينيُّ يدوي ويموجْ
عبرَ صحراءَ تغطّيها الثلوجْ
عبثًا فتّشتُ فيها
عن صدى صوتي وعن وجهي
وعينَيَّ وعمري».(٢٣)

ونتيجة هذا، نجد أنّ الفاجعة يقوى وقعها ويزداد، لأنّ «الزوجة تتفجّر حيويّة... وتذوب صفاءً وإشراقًا... وقد فرض على مثال الصفاء والحيويّة معاشرة رمز الاعتكار والموت، فنشأ عن هذا الموقف الدراميّ مأساة الزوجة بزوجها: الحضارة بأبنائها».(٢٤)

وإلى جانب الزوجة نجد شخصيّة أخرى ليست في القصة الأصليّة، هي مريم المجدليّة(٢٥)، سمّيت كذلك نسبة إلى المكان الذي ولدت فيه، أي مَجْدَلَة. وهذه الأخيرة، كما نفهم من إنجيل لوقا، هي امرأة شفاها المسيح، فأخرج منها سبعة أبالسة(٢٦). وليس المقصود بالأبالسة السبعة أنّها كانت خاطئة معروفة، بل إنّ العدد سبعة يعني كثرة الأرواح الشريرة، وهذه الأرواح يمكن أن تعني عند القدماء المرض العضال، فيكون المسيح، بهذا قد شفاها من مرض عضال عجز الناس عن شفائها منه(٢٧). وقد خلط الشاعر، في قصيدته، قصّتها بقصّة المرأة الخاطئة التي ورد ذكرها في إنجيل لوقا، والتي تابت، وغسلت قدمي المسيح بقارورة طيب، ومسحتهما بشعرها، وروتهما بدمعها (في دليل على التوبة)(٢٨). ولعل مردّ هذا أنّ بعضهم كان يخلط قصّة المجدليّة بقصّة هذه المرأة. ولكنّ المهمّ في هذه الشخصيّة أنّها، بدورها، تعكس قوّة الإيمان، فالمسيح يقول لها، بعد أن غفر خطاياها: «إيمانك نَجّاكِ، فاذهبي بسلام»(٢٩). وتصير بالتالي مرتبطة بزوجة لعازر التي اصطدم صفاؤها وحيويّتها بشرّ لعازر وموته. وهذه المرأة، من خلال عيني زوجة لعازر، ترتبط بمصير الزوجة نفسه، لأنّها تصطدم بفقدان الإيمان:

«كُنتَ طيفًا قمريًّا
وإلهًا قمري
كنتَ ثوبًا غائمًا
يعبق بالضوءِ الطري
يتمشى في جروح المريماتْ...»(٣٠)

إنّ المشكلة التي ينقلها الشاعر في هذه القصيدة، والتي تتجلّى في فقدان الإيمان، يربطها هنا بالسقوط في الغيبيّات، فالإله المتعالي على التجربة الحسيّة، وعلى تجربة الألم والمعاناة البشريّة، لا يمكن أن يكون خلاصًا للإنسان. فزوجة لعازر تبكي وتصلّي، ولكن عبثًا، لأنّ الصلاة والتمسّك بالغيب لا يمكن أن يبعد عنها تجربة الموت التي تواجهها، والأمّة التي يعاني إنسانها الموت الحضاريّ لا يمكن أن تنبعث بالصلاة، بل عليها أن تشارك في الفعل، وأن تشترك في صنع الحضارة وبنائها:

«ما تُرى تُغني دموعي والصلاةْ
لإلهٍ قمريٍّ ولِطيفٍ قمري
يتخفّى في الغيومِ الزُرْقِ
في الضوءِ الطري
حيث لا يُرعِدِ جوعٌ مارجٌ بالزفَراتْ».(٣١)

وتظهر شخصيّة أخرى تضاف إلى هاتين الشخصيّتين من التراث المسيحيّ العريق، تحتلّ شهرة كبيرة في التقاليد المسيحيّة، وفي الفكر الشعبيّ المسيحيّ. إنّها شخصيّة الخضر (القدّيس جاورجيوس)(٣٢). ولهذا القدّيس، عند المسيحيّين، مكانة كبيرة، وكذلك عند المسلمين. ويربط حاوي قصّة هذا القدّيس بالمنقول عنه شعبيًّا، لا بحقيقته التاريخيّة، وبالتالي يستفيد حاوي من قصّة التنّين وقتل القدّيس له، لينقذ ابنة الملك. ولكنّ قوّة هذا القدّيس هي بفعل إيمانه، وخسارته هذا الإيمان في القصيدة يجعله يسقط أمام التنّين، فيتغلّب الشرّ على الخير:

«حلوةٌ جُرَّت إلى التنّينِ، جُرَّتْ، دُمِغَتْ
للموتِ وانهارتْ تعانيه انتظارْ
شكلُ كابوسٍ ولا جسمٌ
وأشداقٌ طَواحينُ الشرَرْ
مِخلَبُ ذَوَّبَ سيفي
غاصَ في صلبِ الحجرْ
مخلبٌ في كبدي مِعولُ نارْ...»(٣٣)

وبسقوطه أمام التنّين يصير مثله، قوّة من قوى الشرّ، لأنّه لا يردعه، بل يؤمّن له مصلحته، وهذه حال الحاكم السيّئ الذي يصوّره حاوي في قصيدته، وحال المناضل الذي يتحوّل إلى مثل هذا الحاكم.(٣٤)

٥. حصيلة الدراسة: يتحصّل لنا، بعد هذه الدراسة، أنّ حاوي بنى نصّه على فكرة محوريّة واحدة، استقاها من النصّ الأساس (قصّة لعازر في العهد الجديد)، وعكسها في قصيدته، ومَحوَرَ حولها بعض الشخصيّات لتقوية الفكرة: فاخترع للعازر زوجة، واستلهم قصّة مريم المجدليّة، وقصّة المرأة الزانية التي غفر لها المسيح خطاياها في إنجيل لوقا، وقصّة الخضر (القدّيس جاورجيوس) كما عرفتها عند العامّة.

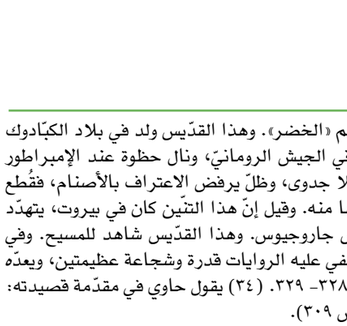

ولكنّ كلّ هذه الشخصيّات تصبّ في خانة مركزيّة واحدة، كما ذكرنا؛ وطريقة التناصّ في القصيدة مع هذه القصص الأربع كلّها من باب «التعالق النصيّ»، حيث أخذ الشاعر قصّة محدّدة، ثمّ غيّر مسارها بما يناسب توجّهه وفكرته التي يريد أن يعبّر عنها. والانتقال من النصّ غير العربيّ (النصّ الإنجيليّ) إلى القصيدة، هو الذي جعل الدراسة تصبّ في باب الأدب المقارن. فالنصّ الأساس دخل في أدب الشاعر (خليل حاوي) وحدّد مسارًا خاصًّا، وكان له تأثير محدّد ومميّز فيه، لأنّه تفاعل معه، وأفرز خصوصيّة متأثّرة به، ولكنّ لها شخصيّتها الخاصّة.

(١٩) ريتّا عوض، **أدبنا الحديث بين الرؤيا والتعبير**، ص ٨٥. (٢٠) خليل حاوي، **ديوان خليل حاوي**، ص ٣٤٣- ٣٤٤. (٢١) المصدر نفسه، ص ٣٠٧. (٢٢) ريتّا عوض، **أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربيّ الحديث**، ص ١٢٤. (٢٣) خليل حاوي، **ديوان خليل حاوي**، ص ٣٢١- ٣٢٢. (٢٤) ريتّا عوض، **أدبنا الحديث بين الرؤيا والتعبير**، ص ٧٨. (٢٥) تظهر هذه الشخصيّة في المقطع الحادي عشر من قصيدة حاوي. (٢٦) جاء: «مريم، المدعوّة بالمجدليّة، وكان قد خرج منها سبعة أبالسة». (لوقا/ ٨: ٣). (٢٧) راجع: **الإنجيل وأعمال الرسل**، ص ٢٩١ (ها). (٢٨) لوقا/ ٧: ٣٧- ٥٠. (٢٩) لوقا/ ٧: ٥٠. (٣٠) خليل حاوي، **ديوان خليل حاوي**، ص ٣٤٣- ٣٤٤.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٣٥٤. (٣٢) المسلمون يسمّون القدّيس جاورجيوس (أو القدّيس جرجس) باسم «الخضر». وهذا القدّيس ولد في بلاد الكبّادوك من أبوين مسيحيّين من الأشراف. ارتحل مع أمّه إلى فلسطين بعد موت والده. تجنّد وصار ضابطًا في الجيش الرومانيّ، ونال حظوة عند الإمبراطور ذيوكلسيانوس، فلمّا اضطهد هذا المسيحيّين عارضه، فسُجن، وحاول الإمبراطور أن يستميله، ولكن بلا جدوى، وظلّ يرفض الاعتراف بالأصنام، فقُطع رأسه. وقد ارتبطت قصّة هذا القدّيس بقصّة خياليّة مفادها أنّ ابنة الملك تَهدّدها تنّين، فقتله وأنقذها منه. وقيل إنّ هذا التنّين كان في بيروت، يتهدّد المدينة كلّها، ويقدّمون له أضحية لردّ غضبه عن المدينة، فلمّا جاء دور ابنة الملك، أنقذها القدّيس جاروجيوس. وهذا القدّيس شاهد للمسيح. وفي الإسلام، يسمّى هذا القدّيس الخضر، وهو يتساوى مع القدّيس جاورجيوس، ولكنّ له قصّةً أخرى، وتضفي عليه الروايات قدرة وشجاعة عظيمتين، ويعدّه الإسلام نبيًّا حيًّا في كلّ زمان ومكان، محجوبًا عن الأبصار حتّى يوم القيامة. (٣٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٨- ٣٢٩. (٣٤) يقول حاوي في مقدّمة قصيدته: «ويتقمّص «الخضر» طبيعة «التنّين» الجلاّد والفاسق، وتكون المذلّة مصدر تعاظمه». (المصدر نفسه، ص ٣٠٩).

في الزّواجِ والأعراس عند العرب
(بين القدسيّة والرّغبة)

د. عصام الحوراني

في الزّواج بعامّة

الزواج لدى الكائن البشريّ، هو علاقة طبيعيّة تقوم بين ذكر وأنثى، له أبعاده العميقة البيولوجيّة والنفسيّة والاجتماعيّة المختلفة. وفي الحياة المتقدّمة، يتمّ الزواج بين ذكر وأنثى مِن البشر، بعد أن يصير بينهما صداقة، ومودّة، وانسجام، وتقارب في الطباع والأخلاق، وشغف، واهتمام، ورغبة جنسيّة، وحاجة، وانشغال، وإخلاص، والتزام، وإرادة ملحّة بعدم الانفصال أو الفرقة أو الهجر. هذا هو الحبّ المتعارَف عليه تقريبًا في المجتمعات الرّاقية بين رجل وامرأة. والحبّ قد ينتهي بالزّواج، وقد لا ينتهي به. والزّواج قد يتمّ في أوقات كثيرة بلا مقدّمات من الحبّ الذي تحدّثنا عنه، وتحلّ محلّه المصالح الاجتماعيّة والاقتصاديّة، والحاجة، والتقاليد الاجتماعيّة، والعادات السائدة وغيرها.

الأصل في الزّواج هو رباط الحبّ، الذي يصهر الزّوجين في بوتقة واحدة، فيصيران جسدًا واحدًا، كما قال السيّد المسيح: «إذاً ليسَ بعدُ اثنانِ بل جسدٌ واحدٌ، فالذي جمعَهُ اللهُ لا يُفرِّقه إنسان»(١). وكما جاء في سفر التكوين: «لذلك يتركُ الرّجلُ أباه وأمَّهُ ويلزمُ امرأته ويكونان جسدًا واحدًا».(٢)

الزّواج نظام اجتماعيّ وقانونيّ، إنّه التعبير عن العلاقة الإنسانيّة الحميمة، التي تسهم في الاستمرار والبقاء وحفظ النوع، وذلك عن طريق التناسل والإخلاف، كما هو حاصل عند كلّ المخلوقات الحيّة، وجاء في القرآن: «ومِن آياته أنْ خلقَ لكم مِن أنفسِكُم أزواجًا لِتَسْكُنوا إليْها، وجعلَ بينكمْ مودّةً ورحمَةً إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكّرون».(٣)

الزّواج، بحدِّ ذاته، متعة وفرح، إنّه حدثٌ مهمٌّ في حياة الإنسان وفي المجتمع، ينتقل معه المرء مِن حال إلى حال. إنّه تحقيق لرغبة عميقة الجذور، ولغرائزَ متوثّبة، جامحة، متوتّرة، ثائرة، نهمة، شرهة، جائعة، تقبع في أعماق الإنسان، في لاوعيه، وهي كذلك، عند كلّ المخلوقات الحيّة الأخرى. بيد أنّ الإنسان اهتمّ بفعل الزّواج كثيرًا، فأغلق على هذه الرّغبات الأبوابَ، وأوصدها بإحكام، وحاصرها مِن كلّ صوب، ووضع في وجهها سدًّا منيعًا عند بوّابة الضمير. لقد أحاط الإنسانُ منذ القِدَم هذه الغرائز بهالات قدسيّة، وجعلها من المحرَّمات. ولمّا كان الذكر أشدَّ قوّةً وبأسًا مِن الأنثى جسديًّا، فقد سيطر على الموقف واستبدّ به، وجعله لمصلحته الخاصّة، وتنفيذًا لرغباته، ولمآربه، وأهدافه، وشهواته.

مترادفات فعل تزوّج كثيرة عند العرب، نذكر منها: تأهّل، إقترن، بنى، نكح، بَعَل، ضمَد وغيرها. لفظة زواج بحدِّ ذاتها، كما جاء في القاموس العربيّ وبخاصّة في «لسان العرب» لابن منظور، تعني شرعَنة تلك العلاقات الجنسيّة بين الذّكر والأنثى، وجعلها مقيّدة بقيود العقود والعهود المرتبطة بالثّقافات المختلفة في العالم منذ ألوف السّنين، وأهمّها الأفكار الميثولوجيّة والدّينيّة. والعرب كانوا، قبل الإسلام وبعده، يُطلقون على فعل الزّواج لفظة النّكاح، وكما جاء في «تهذيب اللّغة للأزهريّ» (٨٩٥ – ٩٨٠ م): «أصل النِّكاح في كلام العرب الوطء، وقيل للتزوّج نكاحٌ لأنّه سببٌ للوطء المُباح»، أي أنّ الوطءَ يصير اسمه زواجًا عندما يتمّ برغبة الأهل والمجتمع ورضاهم، وبمباركة الأعراف والميثولوجيا والدّيانات. ويرادف لفظة الوطء الجِماع والمباضعة والدّحم الذي يعني الدّفع الشّديد. ورد في حديث لابن هرَيْرة عن النبيّ: «أنّه قيل له: أنطأ في الجنّة؟ قال:

(١) إنجيل متّى، ١٩/ ٦. (٢) الكتاب المقدّس، تكوين ٢/ ٢٤. (٣) سورة الرّوم ٢١.

نعم! والذي نفسي بيده، دحمًا دحمًا، فإذا قام عنها رجعت مطهَّرةً بكرًا». نرى أنّ للزواج عند العرب مدلولين كانا شائعَين في الجاهليّة وفي الإسلام. ونذكر في هذا السِّياق قول أحد الشّعراء قديمًا:

وِلِلنِّكاحِ شروطٌ في لَذاذاتِهِ ... قَدِ اجْتَمَعْنَ لَنا في سِتِّ غَيْناتِ
غُنْجٌ، وَغَمْزٌ وَغَمْراتٌ، وَغَرْبَلَةٌ ... وَغَضُّ طَرْفٍ، وَغَزْلٌ بِالغُوَيْناتِ

والنِّكاح يعني الزّواج، كما جاء في الآية الكريمة: «يا أيُّها الّذينَ آمنوا إذا نكَحْتُمُ المُؤمناتِ ثمّ طلَّقتموهُنّ مِن قبلِ أنْ تَمَسُّوهُنّ فما لكم عليهُنّ مِن عِدّةٍ...»/الأحزاب ٤٩ ويعتبر الإسلامُ الزّواجَ أمرًا مهمًّا جدًّا له قدسيّة مميّزة، كما يعتبر تقرّب المرأة مِن زوجها ومطاوعتها له وحُسن تبعُّلها له جهادًا في سبيل الله. وكما ورد في كتاب «شقائق الإترنج في رقائق الغنج» لجلال الدّين عبد الرّحمن السُّيوطيّ (١٤٤٥ – ١٥٠٥) أنّ الرّسول قال لأسماء بنت يزيد الأنصاريّة التي اشتكت إليه عن مدى تفضيل الرّجال على النساء بالجمعة والجماعات... والحجّ بعد الحجّ، وأفضل مِن ذلك الجهاد في سبيل الله... فقال لها: «حُسْنُ تبعُّل إحداكُنّ لزوجها، وطلبُها مَرْضاتِه، واتِّباعُها موافقتَهُ، يَعْدِلُ ذلك كلَّهُ»(٤). والتبعُّل هو تعشّق المرأة لزوجها، وتزيُّنها، وتودُّدها، ودلّها، وتحبُّبها له.

الزّواج محبَّب في الدنيا كما في الآخرة، فقد وعد الله المتَّقين المؤمنين المجاهدين بزوجاتٍ مطهَّراتٍ في الجنّة، وفي ذلك آيات كثيرة منها: «وبشِّر الذين آمنوا وعمِلوا الصّالحاتِ أنّ لهم جنّاتٍ تجري مِن تحتِها الأنهارُ ... ولهُمْ فيها أزواجٌ مطهَّرةٌ وهمْ فيها خالِدونَ»(٥). وقد جاء في وصف نساء الجنّة: «إنّا أنشأناهُنَّ إنْشاءً، فجَعَلْناهُنَّ أبْكارًا، عُرُبًا أتْرابًا»(٦)؛ والعُرُبُ هنّ المتحبِّباتُ لأزواجهنَّ، والأتراب هنَّ المتساوياتُ في السِّنّ؛ ولهُنّ عُيونٌ جميلة محبَّبة لدى العرب وقد اشتدّ بياضُ بياضِها وسوادُ سوادِها، وهي مثلُ اللآلِئ المخبَأة في الأصداف: «وحورٌ عينٍ، كأمثالِ اللُّؤلُؤِ المَكْنونِ».(٧)

وقدسيّة الزّواج في دياناتنا لها أبعادها في الميثولوجيا الشرقيّة التي فيها أمور غريبة ومعتقدات متمايزة ترقى إلى ألوف السنين قبل الميلاد. فقد عُرف، على سبيل المثال، «البغاء المقدَّس»، الذي كان يُمارَس إرضاءً للآلهة وتقرُّبًا إليها. كانت الفتاة العذراء تُمارس الجنس لمرّة واحدة مع رجل غريب تلتقي به في المعبد، فيلقي في حُجْرها قطعةً مِن الفِضّة قائلاً لها: «أضرَع إلى الإلهة عشتار أن ترعاكِ فتنالي بما فعلتِ رضا الإلهة وبركتها»، وكانت الفتاة تقدِّم للإلهة ما تناله لقاء هذا البغاء المقدَّس. وقد عُرفت هذه العادات، كما يروي هيرودوتس، في مناطق متنوّعة في العالم، منها: بابل، ومُدن في آسيا الصغرى، ومصر، وبلاد اليونان، وأرمينيا وغيرها. ويُذكَر أنّ الفتيات كنَّ يقصدن معبد أفروديت في هليوبوليس (بعلبك) للقاءِ غريب يُضاجعهنَّ، وباعتقادهنّ أنّ هذا الغريب ربما يكون الّها ظهر على صورة إنسان عاديّ، أو ربّما يكون ملكًا عظيمًا تخفّى، وتبدّى بصورة رجل مِنْ عامّة النّاس. وهناك نوع آخر مِن البغاء الدّينيّ، وهو ممارسة الجنس مع كهّان المعبد وزوّاره لمدّة طويلة. ويُذكر أنّ هذه المارسة، كانت بسبب أن تحلّ بركة الإلهة الأمّ على الفتاة، فتنال مع زواجها الخير والبركة والخصب بالذريّة. وتقول إحدى الأشعار القديمة بهذا الخصوص:

«أيّتها السيِّدة الجليلة، الملك سوف يحرثه لكِ، دمُوزي الملك، سوف يحرثه لكِ، إحرِثْ فَرْجي يا رجلَ قلبي». إنّ البحث في قدسيّة الزّواج والجنس في الميثولوجيا الشرقيّة تحتاج إلى دراسة معمّقة خاصّة منفردة، نظرًا لما تشمله مِن تقاليد متنوّعة ومعتقدات مختلفة يُمكن استئنافها إلى عصورنا ومقارنتها بمعتقداتنا في أمور مختلفة.

الزّواج عند العرب في الجاهليّة

عرف العرب في جاهليّتهم ضروبًا مختلفة من الزّواج، تذكرها كتب التاريخ العربيّ القديمة، نذكر منها ما ذكره البخاريّ وأبو داود في «التّاج»، وذلك نقلاً عن حديث رُوِي عن السيِّدة عائشة زوج الرّسول، فقد حدّث البخاريّ عنها قولها: «كان النِّكاح في الجاهليّة على أربعة أنحاء: فنكاحٌ مثل نِكاح النّاس اليوم، يخطب الرّجلُ إلى الرّجل وليَّته أو ابنته، فيُصدِقها ثمّ ينكحها. ونِكاح آخر كان الرّجل يقول لامرأته، إذا طهُرَت مِن طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجُها، حتّى يبينَ حملُها، فإذا تبينّ أصابها إذا أحبّ. وإنّما يفعل ذلك طمعًا في نجابة الولد، ويُسمّى هذا النِّكاح نِكاح الاستبضاع. ونِكاح آخر: يجتمع الرّهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلّهم يُصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرّ عليها عدّة ليالٍ، أرسلت إليهم، فلا يستطيع رجل منهم أن يمتنع حتّى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم ما كان من أمركم، وقد ولدتُ فهو ابنك يا فلان، تسمّي مَن أحبّت باسمه، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنعَ منه الرّجل. ونِكاح رابع: يجتمع ناس كثير فيدخلون على المرأة، لا تمتنع ممّن جاءها، وهنّ البغايا، ينصبنَ على أبوابهنّ راياتٍ تكون علمًا، فمن أرادهنّ، دخل عليهنّ، فإذا حملت إحداهنّ ووضعت، جمعوا القافة ثمّ ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به، (أي التصق به) ودُعِيَ ابنه، لا يمتنع من ذلك. فلمّا بُعث محمّد بالحقّ هدم نكاح الجاهليّة كلّه، إلاّ نِكاح النّاس اليوم».(٨)

مِن خلال هذا الحديث الذي نُسِب إلى السيِّدة عائشة، يتبيّن لنا أنواع الزّواج المختلفة التي كان العرب في جاهليّتهم يُمارسونها، ومنها «الاستبضاع» كما أشار الحديث أعلاه، ونذكر في هذا النوع مِن الزّواج الذي كان شائعًا في الجاهليّة عند العرب ما رواه الميداني (ت. ١١٢٤) في كتابه المشهور «مجمع الأمثال» بأنّ امرأة رأت رجلاً جميلاً جدًّا مِن بني سليط يُدعى جارية، فدعته ومكّنته مِن نفسها وحملت منه. وعندما علمت أمُّها بالأمر لامتها على

(٤) جلال الدين السُّيوطيّ، شقائق الإترنج في رقائق الغنج، تحقيق عادل العامل، ط١، دار المعرفة، دمشق ١٩٨٨، ص ٥٥. (٥) سورة البقرة، آية ٢٥.
(٦) سورة الواقعة، آية ٣٥- ٣٧. (٧) سورة الواقعة، آية ٢٢- ٢٣. (٨) عبد السلام الترمانيني، الزّواج عند العرب في الجاهليّة والإسلام، ص ١٦-١٧، نقلاً عن رواية للبخاري وأبي داود: التاج ٢/ ٣٦٨ – ٣٦٩.

فعلها هذا. وبعد مدّة أبصرت الأمّ «جارية ابن سليط» هذا فعذرت ابنتها، وقالت: «بِمِثلِ «جارية» فَلْتَزنِ الزّانيَة، سرًّا وعلانيَة»، وذهب قولها هذا مثلاً.(٩)

وثمّة نوع آخر هو «المُضامدة»: كان هذا الزّواج يُطلق على معاشرة المرأة لغير زوجها، ولاسيّما الفقيرات منهنّ، وفي زمن القحط والجوع. وكان الرّجل إذا ضامد امرأة يرفض أن تعاشر معه غيره. ففي زمن الجاهليّة يُروى أنّ أبا ذؤيب الهذلي كان يُضامد امرأة، وأرادت هذه المرأة أن تُشرِكَ معه رجلاً يُدعى خالدًا، فرفض وقال:

تُريدينَ كَيْمـــا تُضمِديني وخــالدًا   وهـل يُجمَعُ السَّيفانِ، وَيحكِ، في غِمْدِ؟

وثمّة أيضًا زواج «المخادنة» أي المصاحبة، فالخِدْن هو الصّديق أو الصّديقة. وهي معاشرة عدد من الرِّجال لامرأة واحدة، كما جاء في الحديث الآنف الذكر. وهذه العادة كانت مألوفة في مناطق كثيرة من العالم ولاسيّما في الهند، وسيلان، وفيتنام، وبورما، والفيليبّين وغيرها من البلاد في آسيا والشرق الأقصى.(١٠)

نذكر أيضًا زواج الضّيزن، أو وراثة الزّواج، وكان هذا النوع من الزّواج معروفًا في بلاد فارس قبل أن ينتقل إلى الجزيرة العربيّة. وهناك زواج «الشّغار»، أي أن يتزوّج الرجل ابنة أحدهم أو أخته، على أن يُزوِّجه الآخر ابنته أو أخته، وليس بينهما مَهر، وكان هذا الزّواج شائعًا عند قبائل بدويّة متنوِّعة في أوستراليا، والهند، وإفريقية، وسيبيريا.

ونذكر أيضًا زواج «البدل»، أو تبادل الزوجات بين الرِّجال، كأن يقول الرّجل لصاحبه: بادلني زوجتك أبادلك بزوجتي، وكان معروفًا أيضًا لدى قبائل إفريقيّة متنوِّعة، وفي جبال حملايا والتيبت.(١١)

نذكر مِن أنواع الزّواج الأخرى عند العرب زواج المسبيّات والمخطوفات. كان العرب في غزواتهم ينهبون الأرزاق ويأسرون الرِّجال، ويسبون النساء، اللّواتي كانوا يتخذونهنّ مثا السّراري والإيماء، ويتزوّجوهن، والعرب كانوا يقدرون مدى أهمّيّة السّبايا ومقامهنّ الرّفيع لدى أزواجهنّ، ذلك أنّ أولاد السّبايا الغريبات بالنسبة إليهم كانوا يتمتَّعون بالذكاء والنَّباهة والكرم، يقول الشّاعر مِسكين الدّارميّ الأمويّ (ت ٧٠٨ م):

وكَـــمْ مِـنْ كـــريمٍ بـوّأتْـــهُ رِمـــاحُـهُ   فـتـاةَ أُنــاسٍ لا يـســوقُ لَـهـــا مَـهْـرا
ومـا أنـكـحونـــا طائـعـيـنَ بنـــاتِـهِـم   ولـكِـن نَـكَـحْنــاهـــا بـأرمــاحِنـــا قـــسرا

نذكر أيضًا زواج «المُتعة»، الذي كان يُعقد بين رجل وامرأة لمدّة معيَّنة ومُحدَّدة، وكان معروفًا لدى شعوب أخرى غير عربيّة في إفريقية الغربيّة، وفي جبال التيبت، ولدى هنود أميركا الشّماليّة. جاء الإسلام وأبطل أنواع الزّواج التي ذكرنا، واستبقى زواج البعولة الشرعيّ، القائم على أساس المَهر والعقد بالشروط التي عيّنها الدّينُ الحنيف. كذلك فقد استبقى على زواج المتعة، ولاسيّما بعد الهجرة إلى المدينة. وقد جاء عمر ابن الخطّاب فنهى عنها وأبطلها كما هو معروف. لم يأخذ الشيعة بهذا النهي، معتمدين في ذلك على الآية الكريمة: «فما استمتعتم به منهنّ فآتوهنّ أُجورَهنّ فريضة»/ النساء ٢٤. كذلك لم يأخذ الشّيعة بصحّة الأحاديث المنسوبة إلى الرّسول الكريم، والتي تقول بأنّ النبيّ نهى عنها يوم فتح خيبر في السنة السّابعة للهجرة. وجاء في صحيح مسلم، في باب المتعة، أنّ النَّهْي جاء مِن قِبَل الرّسول نفسه في خطبة الوداع، إذ قال: «إنّي كنتُ أذنتُ لكم في الاستمتاع مِن النساء وأنّ الله حرّم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهنّ شيء فليُخلِّ سبيله، ولا تأخذوا ممّا آتيتموهنّ شيئًا».

أمّا قدسيّة الزّواج عند المسيحيّين، فترقى إلى بداية خلق الله لآدم وحوّاء: «لذلك يترك الرّجل أباه وأمَّهُ ويلتصقُ بامرأته ويكونان جسدًا واحدًا». / تكوين٢/ ٢٤ فالزّواج عند المسيحيّين هو ترتيب مقدَّس مِن الله، وقد أكّد المسيح على وحدة الزّواج وارتباطه بالترتيب الإلهيّ./ متّى ١٩: ٢-٧ كان الزّواج يتمّ قبل السيِّد المسيح وبعده بسنوات بلا وسيط دينيّ أو كاهن. ولكنّ الكنيسة هي التي وضعت لعقود الزّواج شروطًا وقوانين ونظمًا، مستلهِمة إيّاها مِن الأناجيل ومن الكتاب المقدّس. والإكليل الذي يرتبط بتاج الملك هو تنصيب العروسين ملكين في ملكوت الربّ. وقد جعلت الكنيسة من الزواج سرًّا، وأصبح يُجرى بوساطة الكاهن وبإشرافه، قائلاً قدّام العروسين: «مباركٌ أنتَ أيُّها الربُّ إلهنا، يا مكمّلاً للعرس السرّيّ الطّاهر، ومشترِعًا للعرس الجسدانيّ... أيّها الربّ إلهنا بالمجدِ والكرامةِ كلِّلهما». على الرّغم من أنّ الكنيسة تميل إلى العذريّة والتبتُّل، فنسمع الرسول بولس يقول في رسالته الأولى إلى أهل كُورِنْتوس: «وأمّا مِن جهة الأمور التي كتبتم لي عنها فحسنٌ للرجل أن لا يَمَسَّ امرأةً. ولكن لسبب الزِّنا لِيَكُنْ لِكلِّ واحدٍ امرأته ولْيكُنْ لِكلِّ واحدةٍ رجُلُها... حسنٌ لهم إذا لبثوا كما أنا (غير متزوِّجين) ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فَلْيتزوّجوا، لأنّ التزوُّجَ أصلحُ مِنَ التحرّق». / كُورِنتوس ٧ : ١-٩

(٩) م.ن. ص ٢٠. (١٠) م. ن. ص ٢٠- ٢٥. (١١) م.ن. ص ٣٢، ٣٦.

هي نماذج متنوِّعة للزواج المؤقَّت والدّائم، ولصُوَر من تقاليده وممارساته، ترينا كيف تعامل الناس منذ القدم مع أمر الزّواج. كان همّهم الأوّل وهاجسهم الذي لم يُفارق أحلامهم، وقد مثّل دورًا بارزًا في مسرى تفكيرهم ورغباتهم، فأقاموا لمناسبة عقده والإعلان عنه الاحتفالات الكبيرة، وأنفقوا في سبيله الأموال، وصار يُدعى ذلك عندنا «العرس».

الأعراس: صورٌ مِن التّاريخ

لفظة العُرس قد ترقى إلى أصولٍ آراميّة، والعُرس يعني العرش، فعُرس الملوك يتّصِل، بلا شكٍّ، بعروشهم. والصّمدة التي تجلس العروس عليها في أثناء حفلة الزّفاف هي بمكانة العرش الذي يجلس عليه الملك، كذلك الهودج الذي تعتليه العروس فهو يُشبه العرش أيضًا. والأعراس في بلادنا تتمّ تحت إشراف رجال الدّين. والطقوس المختلفة التي يُجرونها في الأعراس ما هي إلاّ ترداد لما كان يقوم به الآلهة في الميثولوجيا القديمة الذين يُمثّلون قوى الطّبيعة بنظر الأقدمين، والعرس في طبيعته هو رمز لتجدّد الحياة واستمراريّتها لدى البشر كما لدى الحيوان والنبات.

الأعراس، أقامتها الملوك والنّاس منذ القدم، وكانت لها طقوس وتقاليد وعادات، تتباين وتختلف بحسب الأصقاع والمناطق والبيئات والمجتمعات. فمن عهد إبراهيم، إلى داود، والمسيح، والأعصر العربيّة، إلى أن نصل إلى عصرنا الحاليّ، كانت أعراس الملوك وسادات القوم وكبارهم أعراس بذخ، وبذل، وإسراف بلا حساب. فهلِّموا معي نلتقط صورًا من هنا وهناك لأفراح البشر، ولاسيّما الملوك منهم.

فهذا داود النبيّ، الرّاعي، والقائد، والملك المِزواج الذي اتَّخذ لنفسه سراري ونساءً مِن أورشليم بعد مجيئه مِن حَبْرون، فوُلِد له بنون وبنات(١٢). وكان داود شاعرًا وإمام المغنّين، فنسمعه في مزاميره يترنَّم بالمحبّة، ويُناجي عروسه الحسناء المطيعة، الغنيّة. نسمعه يُعدِّد صفاتها، ويذكر محاسنها، وملابسها، ومواكبها: «منسوجةٌ بذهبٍ ملابسُها. بملابسَ مطرَّزةٍ تُحضَرُ إلى الملك. في إثرِها عذارى صاحباتُها. مقدَّمات إليكَ. يُحضَرن بفرحٍ وابتهاج. يدخُلنَ إلى قصر الملك». ونقرأ داود يُقدِّم للعروس نصائحه: «إسمعي يا بنتُ وانظُري، وأَميلي أُذنَكِ وانسَيْ شعبَكِ وبيتَ أَبيكِ، فيشتهيَ الملكُ حسنَكِ لأنّه هو سيِّدُكِ فاسجدي له، وبنتُ صورَ أغنى الشُّعوبِ تترضّى وجهَكِ بهديَّةٍ».(١٣)

وسليمان بن داود الملك الشّاعر، «وكانت له سبعُ مئةٍ مِن النساءِ السيِّداتِ وثلاثُ مئةٍ مِن السّراريِّ فأمالتْ نساؤهُ قلبَهُ»(١٥). نسمعه يتغنّى بعروسه مناديًا بنات أمّته أن يخرجنَ وينظرن «الملكَ سليمانَ بالتاجِ الذي توّجَتهُ به أمُّهُ في يومِ عُرسِهِ وفي يومِ فرحِ قلبِهِ»(١٦). عروس سليمان حبيبة حسناء، راعية سمراء، قد لوّحتها الشمسُ، شفتاها تقطران شهدًا، ولسانها عسلٌ، ورائحة ثيابها كرائحة لبنان. فإذا هي جنّةٌ مغلقةٌ، هي فردوسٌ، ينبوع جنّاتٍ، بِئرُ مياهٍ حيّة وسيولٌ مِن لبنان(١٧). ويُردف الملك مخاطبًا عروسه أن تُوافيَه مِن لبنان، فلعلّها كانت كنعانيّة لبنانيّة الأصل والمنبت، فيقول: «هلمّي معي مِن لبنانَ يا عروسُ معي مِن لبنانَ. اُنظري مِن رأس أمانةَ، مِن رأسِ شنيرَ وحَرْمونَ، مِن خُدورِ الأسودِ مِن جبال النمور».(١٨)

يبقى العرس منتهى الأفراح، وغاية السّعادة القصوى، والأمل الذي يُراود بني البشر منذ آلاف السِّنين، على اختلاف طبقاتهم. فمنذ عهد ابراهيم مرورًا بجميع الملوك الذين حكموا عبر حقبات متتالية منذ أقدم الأعصر التي وصلتنا فيها أخبارهم بطريقة أو بأخرى، وصولاً إلى السيِّد المسيح الذي شبّه ملكوت السّموات بملك أقام عرسًا لابنه، «وأرسل عبيده لِيدعوا المدعوّين إلى العرس فلم يُريدوا أن يأتوا. فأرسل أيضًا عبيدًا آخرين قائلاً: قولوا للمدعوّين هوذا غدائي أعددتُه. ثيراني ومسمَّناتي قد ذُبحَتْ وكلّ شيء مُعدٌّ، تعالوا إلى العرس...» تهاون هؤلاء ولم يأتوا ونكّلوا بعبيده. وعندما سمع الملك بالأمر غضب، وأرسل جنوده وأهلك القاتلين وأحرق مدينتهم. ثمّ إنّه أرسل عبيده لِيدعوا كلَّ مَن يجدونه إلى العرس، فجاء الكلّ، الأشرار منهم والصّالحون، وامتلأ العرس بالنّاس. «فلمّا دخل الملك لينظر المتَّكِئين رأى هناك إنسانًا لم يكن لابسًا لِباس العُرس»، فطرده من بيته، وأردف: «لأنّ كثيرين يُدعَون وقليلين ينتخبون».(١٩)

نلاحظ مِن خلال ما ورد في الآيات السّابقة أنّه كان للعرس أصول، وكذلك نرى أيضًا أنّ له مراتب ومقامات، وكلّ مدعوٍّ يعرف مقامه. فإذا دُعِيَ أحدهم إلى

(١٢) الكتاب المقدَّس، صموئيل ٢ ، ٥/ ١٣. (١٣) المصدر نفسه، مزامير ٤٥/ ١٣-١٥، ١٠ -١٢. (١٤) المصدر نفسه، مزامير ٤٥، ١٠- ١٢. (١٥) م.ن. الملوك الأوّل، ١١/ ٣. (١٦) م. ن. نشيد الإنشاد، ٣/ ١١. (١٧) م. ن. مِن نشيد الإنشاد ٤/ ٨ -١٥. (١٨) م. ن. نشيد الإنشاد، ٤/ ٨. (١٩) إنجيل متّى، ٢٢/ ١-١٤.

عرس وجب عليه أن يجلس في المكان الذي خُصِّص له بحسب مقامه، ولا يجلس على مقاعد أماميّة أُعِدَّت لكبار القوم مِن المدعوّين. وهذا ما عبّر عنه السيِّد المسيح مِن خلال مثل، قائلاً: «متى دُعيتَ مِن أحدٍ إلى عرس فلا تتكِئ في المتَّكإ الأوّل، لعلّ أكرمَ منك يكون قد دُعِيَ إليْه». (٢٠)

ولقد أشار السيِّد المسيح إلى نفسه وإلى ملكوت السّموات، جاعلاً من ذاته العريس المنتظر، الذي يستعدّ الجميع للقائه. فأعطى مثلاً على ذلك مشيرًا إلى أنّ عشر عذارى خرجنَ للقاء العريس في اللّيل، خمسٌ مِن هؤلاء كنّ حكيمات فأخذن معهنّ زيتًا كافيًا لمصابيحهنّ، بينما الخمس الأخرى الجاهلات لم يأخذنَ معهنّ زيتًا. وعندما أبطأ العريس بالقدوم، نعِسَ هؤلاء ونمنَ. وفي منتصف الليل وصل العريس. فالخمس اللّواتي جلبن الزَّيت الكافي معهنّ، أوقدنَ للحال مصابيحهنّ واستقبلْن العريس، بيد أنّ الأخريات لم يجدن الزّيتَ، فسعيْنَ يُفتِّشنَ عن الزّيت وفاتهنّ استقبالُ العريس. بينما المستعدّات منهنّ رافقنَ العريس إلى داره حيث يُقام الاحتفال، وأُغلِقت الأبواب. ولمّا عادت بقيّة العذارى وكان الأوان قد فات، أجابهنّ السيِّد، بعد أن طلبنَ منه السَّماح لهنّ بالدُّخول: «الحقُّ أقول لكنّ إنّي لا أعرفكنّ. فاسهرْنَ إذن لأنّكنّ لا تعرفن اليوم ولا السّاعة التي يأتي فيها ابنُ الإنسان». (٢١)

عندما قدِم تلاميذ يوحنّا المعمدان يسألون يسوع عن الصّوم قائلين له: «لماذا نصوم نحن والفرّيسيّون كثيرًا، بينما تلاميذكَ لا يصومون؟(٢٢)» أجابهم السيِّد: «هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا ما دام العريس معهم، ولكن ستأتي أيّامٌ حين يُرفع العريس عنهم فحينئذٍ يصومون». (٢٣)

لمّا كانت الأحلام رموزًا وإشارات تُخبر عن أمور وعن نبوءات، فقد أبصر يوحنّا، تلميذ السيِّد المسيح، في رؤياه أورشليم المقدَّسة «نازلة من السّماء من عند الله مُهيَّأةً كعروس مزيَّنة لرجلها» (٢٤). والعريس كان المعلِّم، فهتف يوحنّا: «لنفرح ونتهلَّل ونعطِهِ المجد لأنّ عرسَ الخروف قد جاء وامرأته هيّأت نفسها، وأُعطِيَت أن تلبسَ بزًّا نقيًّا بهيًّا، لأنّ البزّ هو تبرُّرات القدّيسين». (٢٥)

عُرسُ قانا الجليل

ترقى أهمّيّة هذا العرس إلى كونه يتّصِل ببدايات تعاليم السيِّد المسيح وآياته الأولى، وذلك بعد اعتماده على يد يوحنّا، الّذي كان يُعمِّد بالماء في منطقة بيت عبْرا قرب نهر الأردن. وهناك، بحسب ما ورد في إنجيل يوحنّا، كان السيِّد المسيح يتنقَّل في أحد الأيّام، وقد أبصره يوحنّا المعمدان فقال لتلميذَيه: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطيّة العالم» (٢٦). فما كان مِن هذين التِّلميذيْن إلاّ أن تبعا يسوع، وعندما التفت السيِّد نحوهما قال: ماذا تريدان؟ فأجابا: أين تسكن؟ فقادهما السيِّد المسيح إلى المكان الذي كان يُقيم فيه، فمكثا معه هناك. ثمّ أنّ أندراوس أخبر أخاه بأنّه وجد المسيح الّذي كانا يطلبانه منذ زمن، فالتحق سمعان بطرس للحال بالسيِّد المسيح.

يذكر يوحنّا في إنجيله أنّه بعد هذه الحادثة بيوم، أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل، فاصطحب معه الأخوين أندراوس وبطرس وكانا مِن بلدة بيت صيدا في الجليل بين قانا وكفرناحوم، وكذلك التحق بهم فيليبُس وكان أيضًا مِن بيت صيدا المذكورة. فيليبّس هذا، دعا نتنائيل الإسرائيليّ، وكان مِن بلدة قانا الجليل، دعاه لمرافقتهم. وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل، فتكون المدّة التي استغرقها يسوع وتلاميذه في انتقالهم من بيت عبرا إلى قانا الجليل في الشّمال الغربيّ نحو ثلاثة أيّام تقريبًا. وربّما مرّوا بالنّاصرة وهم في طريقهم إلى قانا الجليل المجاورة لبلدة يسوع.

يتحدّث يوحنّا بعد ذلك عن وجود أمّ يسوع في العرس. وقد دُعِي إلى هذا العرس أيضًا يسوع وتلاميذه. ما هي طبيعة تلك العلاقة بين أسرة السيِّد المسيح وأهل العرس؟ إنّها، بلا شكّ، علاقة طيِّبة جدًّا، وربّما كانت بين الأسرتين روابط عائليّة واجتماعيّة معيَّنة. فنحن نعلم كم تكون الرّوابط وثيقة بين بلدتين متجاورتين، ولاسيّما إذا كانتا ترتبطان معًا بديانة واحدة. مِن سياق كلام يوحنّا نرى أنّ سكّان قانا الجليل كانوا مِن الإسرائيليّين، بدليل أنّ نتنائيل الذي كان مِن قانا الجليل هو كما وصفه السيِّد المسيح: «إسرائيليّ حقًّا لا غِشَّ فيه». (٢٧)

لفظة قانا، قد تكون مشتقَّة مِن (القان) وهو شجر يأخذون منه أعوادًا قاسية ومفردُه (قانة)، وتعني قانا أيضًا العشّ ومكان القصب. نلاحظ أنّ اسم هذه البلدة يقترن دائمًا مع اسم المنطقة التي تنتسب إليها وهي الجليل، وذلك مِن أجل التمييز بينها وبين بلدات أخرى تحمل الاسم نفسه، مثل بلدة قانا اللبنانيّة القريبة من مدينة صور في الجنوب، التي ربّما كانت تسمّى (قناه) وجرى تحريف الاسم مع الزّمن فصارت قانا. ولقد صار حول قانا الجنوبيّة هذه لغط كثير ولغو في السنوات الأخيرة، وذلك عندما نشر أحد الباحثين، لأسباب سياسيّة واقتصاديّة مختلفة، كتابات يزعم فيها أنّها نفسها البلدة التي جرت فيها آية السيِّد المسيح المعروفة، والتي ذكرها يوحنّا في إنجيله. إِعتمد هذا الباحث وغيره، في فرَضيّاتهم

(٢٠) إنجيل لوقا، ١٤/ ٧. (٢١) إنجيل متّى، ٢٥/ ١- ١٣. (٢٢) الفرِّيسيّون هم طائفة يهوديّة ظهرت في عهد المكابيين (١٦٨ — ٣٧ ق.م.). كانوا يعملون للدفاع عن الشّريعة وصفاء الإيمان، تعلّقوا بالحرف من دون الرّوح. لامهم السيِّد المسيح على شدّة تزمّتهم، فقاوموه. (٢٣) إنجيل متّى، ٩/ ١٤-١٥. (٢٤) رؤيا يوحنّا اللاهوتيّ، ٢/٢١. (٢٥) المصدر نفسه، ١٩/ ٧-٨. (٢٦) إنجيل يوحنّا، ١٩/١. (٢٧) إنجيل يوحنّا، ٤٧/١.

على ما استنبطوه من كتابات لمؤرِّخين قدماء، وعلى وجود نقوش وأجران ونواميس في البلدة وفي جوارها، افترضوا أن تكون بقايا آثار عِبريّة. والجدير بالذكر أنّ تلك المنطقة المجاورة لمدينة صور هي فينيقيّة تمامًا.

إنّ الأدلّة التي نستمدّها مِن الإنجيل تكفي للردِّ على هذه المزاعم، فالإنجيل هو المصدر الوحيد الذي نستقي منه أخبار هذا العرس. البلدة عِبريّة، بدليل وجود ستة أجران مِن حجر موضوعة في البيت بحسب تطهير اليهود. كذلك فإنّ تحديد نسبة نتنائيل الإسرائيليّ إلى هذه البلدة إشارة أيضًا إلى كون هذه البلدة عِبريّة. كما أنّ العلاقات والرّوابط الاجتماعيّة القائمة بين أسرة عبريّة مِن النّاصرة وأخرى مِن قانا الجليل لدليل على ارتباط هذه القرى المجاورة بعضها ببعض من ناحية التمازج، والتّصاهر، والاندماج عقائديًّا واجتماعيًّا. هذه القرى كانت محاذية لبحر الجليل (بحيرة طبريّا)، التي اختار منها يسوع تلاميذه، وعلى طرقاتها سار وتنقَّل، وأمضى معظم أيّامه التي نشر فيها تعاليمه وصنع آياته.

نتبيّن مدى هذه العلاقات القويّة بين البلدتين والأسرتين بالتحديد، مِن مسألة تدخّل أمّ يسوع بأمر نفاد الخمر، إذ كلّمت يسوع بالأمر، وأومأت إلى الخدم أن يفعلوا ما يأمرهم به ابنها يسوع. وهذا دليل على مشاركة مريم شخصيًّا في أمور العرس الخاصّة، ولا يحدث مثل هذا إلاّ إذا كان المرء مِن الأقرباء أو المقرَّبين لأصحاب العرس الذين هم أيضًا مِن العبرانيّين؛ بينما قانا اللبنانيّة البعيدة عن النّاصرة وعن قانا المقصودة بالعرس، هي بلدة كنعانيّة قديمة، لا تمتّ بصلة إلى العبرانيّين، ولم تكن في يوم مِن الأيّام تحت سيطرتهم أو في نطاق حدودهم. يذكر يوحنّا أنّه بعد انتهاء حفل العرس، «انحدر يسوع إلى كفرناحوم هو وأمّه وإخوته وتلاميذه وأقاموا هناك أيّامًا ليست كثيرة» (٢٨). وكفرناحوم تقع إلى الشّمال مِن قانا الجليل، والمجاورة لبيت صيدا. وجميع هذه القرى، كما

ذكرنا، يرتبط بعضها ببعض جغرافيًّا واجتماعيًّا. عرس قانا الجليل لم يكن عرسًا بسيطًا متواضعًا، وأصحابه لم يكونوا مِن عامّة النّاس، بل كانوا، كما يظهر، مِن كبار القوم أو مِن سادات تلك النّواحي المحيطة ببحر الجليل. فالدّعوة إلى العرس كانت عامّة وشملت أناسًا مِن القرى المجاورة، بدليل حضور أهل يسوع من النّاصرة. وكذلك فإنّ خبر نفاد الخمر والعرس ما زال قائمًا، لدليل على كثافة النّاس الّذين تناولوا ما في الدِّنان مِن خمر، على الرّغم مِن أنّ أهل العرس لا بدّ أن يكونوا قد استعدّوا مسبقًا لتكريم الضّيوف المدعوّين مِن قِبلهم، وأنّ عددهم كان في الحسبان. أمّا بالنسبة إلى ثراء أهل البيت، فنلاحظ ذلك مِن سياق الكلام على الخدم الّذين كانوا يُقدِّمون الخمر والطّعام إلى المدعوّين، وعلى رأس هؤلاء رئيس المتّكأ الذي كان بمنزلة كبير القوم، الذي يتصدّر الموائد العامرة، وتُقدَّم إليه الخمر الجيّدة قبل تقديمها لباقي النّاس، وذلك مِن باب الإكبار والتعظيم. وهذا ما فعله السيِّد المسيح، فبعد أن حوّل الماء، الذي وضعه الخدّام في الأجران، إلى خمر، طلب منهم أن يُناولوا «رئيس المتّكأ» أوّلاً، الذي ذاق الخمر ولم يكن يعلم بما حدث من آية تحويل الماء إلى خمر، وقد سُرَّ بها جدًّا لدرجة أنّه استدعى العريس واستوضحه الأمر قائلاً: «كلّ إنسانٍ إنّما يأتي بالخمر الجيِّدة أوّلاً، فإذا سكروا، فعند ذلك يأتي بالدّونِ، أمّا أنتَ فأبقيتَ الخَمر الجيِّدة إلى الآن». (٢٩)

هكذا نرى، من خلال عرس قانا الجليل، أنّ الخمر هي المادّة الأساسيّة التي كانت تُقدَّم في أعراس ذلك الزّمان عند العبرانيّين. كانوا يشربون لِيفرحوا فينتشوا ويسكروا، على حدِّ ما جاء في كلام رئيس المتّكأ. وقال الملك داود صاحب المزامير: «وخمرٍ تُفرِّح قلبَ الإنسانِ لإلماعِ وجهِهِ أكثرَ مِن الزّيت» (٣٠). نذكر أنّ بولسَ الرّسول قد نهى عن الإفراط في شرب الخمر إلى حَدّ السكر، فقال: «ولا تسكروا بالخمرِ الذي فيه الخلاعةُ، بل امتلِئوا بالرّوح، مُكلِّمينَ بعضُكم بعضًا بمزاميرَ وتسابيحَ وأغانيَ روحيّةٍ مترنِّمينَ ومرتِّلينَ في قلوبِكم للربِّ» (٣١). وغيرها من الآيات التي نهى فيها الرسول بولس عن السكر والإدمان عن الخمر. المسيحيّة دعت إلى الامتناع عن كلّ شبه شرّ، فالسكر في نظرها شرٌّ أو شبه شرّ. قال الرسول بولس: «امتنعوا عن كلّ شبه شرّ». (٣٢)

المسيحيّة لم تدعُ إلى تحريم الخمر تحريمًا كاملاً، بل الخمر التي توصل إلى السُّكر. فطالما لا ينتهي الأمر بالشّارب سلبًا على الله وعلى الإنسان والمجتمع، فهذا غير محرَّم.

وكما جاء في رسالة القدّيس بولس إلى أهل رومية: «لا تنقضْ لأجلِ الطّعام عملَ الله، كلُّ الأشياءِ طاهرةٌ لكنّه شرٌ للإنسانِ الذي يأكلُ بعَثرَةٍ. حسنٌ ألاَ تأكلَ لحمًا ولا تشربَ خَمرًا ولا شيئًا يصطدِمُ به أخوكَ أو يَعثُرُ أو يَضعُفُ» (٣٣). إنّ الأشياء أو الطّعام أو الشّراب التي تسيء إلى غيرنا، وإن كانت طاهرة فيجب الامتناع عنها. «كلُّ الأشياءِ تَحِلُّ، لكِنْ ليسَ كلُّ

(٢٨) يوحنّا، ١٢/٢. (٢٩) يوحنّا، ١٠/٢. (٣٠) الكتاب المقدَّس، المزمور ١٥/١٠٤. (٣١) رسالة القدّيس بولس الرّسول إلى أهل أفسس ١٨/٥. (٣٢) رسالة القدّيس بولس الأولى إلى تسالونيكي ٢٢/٥. (٣٣) رسالة بولس الرّسول إلى أهل رومية ٢٠/١٤ -٢١.

الأشياءِ تُوافِقُ(٣٤). ومثل هذا القول في الحرّيّة، أتى أيضًا على لسانه في رسالته إلى أهل كولوسي: «فلا يَحكُمْ عليكُمْ أحدٌ في أكلٍ أو شُربٍ أو من جهةِ عيدٍ أو هلالٍ أو سبتٍ، التي هي ظلُّ الأمورِ العتيدةِ، وأمّا الجسدُ فللمسيحِ».(٣٥)

الأعراس عند العرب

كان العرب في جاهليّتهم يتطيَّرون مِن الزّواج في شهر شوّال، وفي ليالي المِحاق، أي في أواخر الشهر القمريّ، أو قبل ليالٍ مِن آخره. ونذكر هنا ما جاء في «لسان العرب» لابن منظور، وفي «تاج العروس» لمرتضى الزَّبيدي، على لسان أحد الشعراء الأقدمين الذي قال:

بَنيتُ بها قبلَ المِحاقِ بليلةٍ فكانَ مِحاقًا كلُّهُ ذلكَ الشَّهرُ

بيدَ أنّ الإسلام أبطل هذه العادات الجاهليّة، وتزوّج الرّسول عائشة في شهر شوّال، وحذا حذوه المسلمون فيما بعد، وصار ذلك الشهر مِن أحبّ الشهور لإقامة الأعراس.

العرس هو الاحتفال الذي يُعلن فيه للملأ عن الزواج الذي يتمّ بين ذكر وأنثى. ولا بدّ مِن إعلان الأمر وإذاعته عن طريق الاحتفالات ودعوة الناس إليها، وعن طريق الأهازيج والغناء مع مصاحبة الآلات الموسيقيّة على أنواعها. وهذا الاحتفال يكون بمكانة الموافقة من قِبَل الأهل والجماعة، والتأكيد على شرعيّة الزّواج من الناحية الدّينيّة والخلقيّة. نذكر الحديث الشريف القائل: «أعلنوا النِّكاح واجعلوه في المساجد». وقد حضّ الرّسول على وليمة الزّواج، كما على الغناء والنقر بالدُّفوف في أثناء إقامة الاحتفال بالزّواج. كما دعا النّاس إلى تلبية الدعوة للزّواج، «ومَن لم يُجِب الدّعوةَ فقد عصى اللهَ ورسولَه».(٣٦)

لقد أقرّ الإسلام الغناء والضرب على الدُّفوف في مناسبات الأفراح، بهدف الإعلان عن الزّواج الذي يتمّ بحسب الأصول الدّينيّة والشرعيّة، وذلك تمييزًا له عن الزّواج الحرام غير الشّرعيّ، كما جاء في الحديث الشّريف: «فصلُ ما بين الحلال والحرام، الصّوت بالدّفّ».

في هذا السّياق، يُروى عن السيِّدة عائشة أنّها زفّت امرأةً إلى رجل من الأنصار، فقال نبيّ الله: «يا عائشة، أما كان معكم لهو، فإنّ الأنصار يُعجبهم اللّهو». وفي رواية أخرى، أنّه قال لها: «فهل بعثتم معها جارية تضرب بالدَّفّ وتغنّي؟» قالت له: تقول ماذا؟ أجاب تقول:

أتيناكُم أتيناكُم فحيّونا نُحيّيكُم
فلولا الذّهبُ الأحمَر ما حَلّت بَواديكُم
ولولا الحِنطَةُ السّمراءُ ما سَمِنت عذاريكُم(٣٧)

في الأعراس بعامّة، وفي مناطق مختلفة في العالم، تعمر الحفلات التي يتخلّلها شرب الخمر والغناء والموسيقى على أنواعها. أمّا بالنسبة إلى العالم الإسلاميّ فإنّ الدين قد نهى عن الخمر بآيات نزلت تدريجيًّا، أوّلها الآية المكّيّة الكريمة: «ومِن ثمراتِ النَّخيلِ والأعنابِ تتَّخِذونَ مِنهُ سَكَرًا وَرِزقًا حَسَنًا إنّ في ذلك لآيةً لِقومٍ يعقلونَ»(٣٨)، ثمّ نقرأ الآية القائلة: «يسألُونَكَ عنِ الخَمْرِ والمَيْسَرِ قُلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ومَنافِعُ لِلنّاسِ وإثمُهما أكبَرُ مِن نفعِهما»(٣٩). ونقرأ التحذير في الآية: «يا أيُّها الّذينَ آمنوا لا تقرَبوا الصَّلاةَ وَأنتُمْ سُكارى حتّى تعْلَموا ما تَقولونَ»(٤٠). ثمّ كانت الآية التي فيها ما يُشبه التحريم: «يا أيُّها الّذينَ آمنوا إنّما الخمرُ والميْسَرُ والأنْصابُ والأزْلامُ رِجْسٌ مِن عملِ الشّيطانِ فاجتنِبوه لعلّكُمْ تُفلِحونَ».(٤١)

(٣٤) رسالة بولس الرّسول إلى أهلِ كورنتوس ٢٣/١٠. (٣٥) رسالة بولس الرّسول إلى أهلِ كُولُوسّي ١٦/٢-١٧. (٣٦) محمّد أحمد التيجاني، **تحفة العروس ومتعة النفوس**، تحقيق جليل العطيّة، ط١، دار الرّيّس، لندن- قبرص، ١٩٩٢، ص ١٠٠-١٠١، نقلاً عن مقال بعنوان «قداسة النِّكاح» لمحمود مفلح البكر، الحداثة، عدد ١٩/ ٢٠، ص ١٩١. (٣٧) قداسة النِّكاح، المصدر نفسه، ص ١٩١، ويُراجع «التّاج» ٢، ص ٣٣٤. (٣٨) سورة النحل ٦٧. (٣٩) سورة البقرة ٢١٩. (٤٠) سورة النِّساء ٤٣. (٤١) سورة المائدة ٩٠.

أمّا الغِناء، فلم تنزل به آيات تحريم أو نهي صراحة، بل أتى المفسِّرون والفقهاء باجتهادات في النهي عن الغناء، نسبوها إلى آيات متنوِّعة فسّروها بحسب اجتهاداتهم الخاصّة. كذلك الحال بالنسبة إلى الموسيقى التي تُصاحب المغنّي أو المغنِّية في أدائه. فقد عملت المذاهب المتشدِّدة في الإسلام على تحريم العزف وسماعه، ولاسيّما في بداية الدَّعوة. بيد أنّ الأمر قد اختلف في ما بعد، وازدهر العزف والغناء في البلاطات، وفي مرابع الأنس وأماكن الأفراح والحفلات، وفي دور اللّهو وغيرها. كان النّاس يطربون عند سماعهم نغماتٍ وألحانًا وأصواتًا تصدر مِن أفواه المغنّين والمغنِّيات وبخاصّة في الأعراس. فالعرس، كما يرون، لا طعمَ له إن لم يُصاحبْهُ الغناءُ والطَّرَب، كما أسلفنا عمّا رُوي عن أمّ المؤمنين السيِّدة عائشة، مِن كلام نُسِب إلى الرّسول وفيه دعوة لإقامة اللّهو في العرس والغناء والضرب على الدفّ. وأحاديث عائشة بنت أبي بكر مهمّة، ذلك أنّها رافقت الرّسول في سنواته في المدينة المنوَّرة، فحفظت، لصغر سنّها، أكثر أحاديث الرّسول وسنّته، وعنها قال الرّسول: «خُذوا نصفَ دينِكُمْ عن هذه الحُمَيْراء».(٤٢)

أعراس مشهورة في التّاريخ العربيّ

عُرس الخليفة هارون الرّشيد على زُبيدة ابنة جعفر بن المنصور

هارون الرّشيد الذي صار الخليفة العبّاسيّ الخامس (١٧٠-١٩٣ هـ/ ٧٨٦ — ٨٠٩ م) احتفل قبل تولّيه الحكم بهذا العرس المشهور سنة ١٦٥ هـ. وقد شهد بذخًا لا نظير له، فقدّم الرّشيد لعروسه مِن الجواهر والحليّ والذّهب والفضّة والطّيب، والثِّياب الثّمينة ما لم يُقدَّم لامرأة مِن قبل في ذلك الزّمان. ويُذكَر أنّه مِن النَّفائس التي قدّمها «بَدَنة»، وهي قميص لا كمَّين له تلبسه النساء، مُوشّاة بالجواهر والدُّرّ الثّمينة جدًّا، عليها مِن ناحيتَي الصّدر والظَّهر خطّان مِن الياقوت الأحمر. وهذه «البدَنة» كانت لعَبدَة ابنة عبد الله بن يزيد بن معاوية زوجة الخليفة الأمويّ هِشام بن عبد الملك (٦٩٠ — ٧٤٣ م).

أُقيم عرس الرَّشيد في قصر الخُلد في بغداد، وقد دُعِيَ إليه النّاس جميعًا مِن كلّ الأقطار؛ ويُذكر أنّ الأموال التي بُذِلت والتي نُثِرَت على النّاس لا تُحصى، وكانت الدّنانير يُطاف بها على النّاس في كؤوسٍ مِن فضّة، والدّراهم يُطاف بها في كؤوسٍ مِن ذهب. كذلك كان الخدّام يطوفون على النّاس بالمسك والعنبر الكثير جدًّا، فضلاً عن الشُّموع مِن العنبر الخالص التي أُضيئت في آنية مِن الذّهب بين يدَي العروسَيْن. ودُعِيَ إلى العرس نساء بني هاشم، وكانوا يدفعون لكلّ واحدة

هذه نماذج لأعراس مشهورة في التّاريخ. وهناك غيرها كثير، لا يقلّ عنها شهرة في المشرق العربيّ وفي المغرب، من أعراس الملوك والأمراء، وأعراس كبار القوم من الأثرياء

(٤٢) صحيح البُخاري. والحُمَيراء التّي هي تصغير لِحَمراء كانت تعني عند العرب البيضاء، كما ورد في لسان العرب.

منهنّ كيسًا فيه دنانير وكيسًا آخر فيه دراهم، وصينيّة كبيرة فيها طيب، ويُخلع على كلّ واحدة خلعة وشي مثقّل، وإلى ما شابه ذلك مِن مظاهر الترف والبذل والإنفاق السّخِيّ. وقد بلغ ما أنفقه الرّشيد في هذا العرس خمسين ألف ألف دِرهم.(٤٣)

عرس المأمون على بوران ابنة الوزير الحسن بن سهل السّرخسي

العريس هو عبد الله بن هارون الرّشيد الملقّب بالمأمون (١٧٢- ٢١٨ هـ/ ٧٨٦ — ٨٣٣ م). وهو الخليفة العبّاسيّ السّابع، الّذي تولّى الحكم بعد نزاع مع أخيه الخليفة الأمين سنة ١٩٨ هـ/ ٨١٣ م، وكان المأمون مِن كبار الخلفاء العبّاسيّين، وقد عُنِي بالآداب والعلوم، وأنشأ «بيت الحكمة» في بغداد، فازدهرت في عهده حركة الترجمة، وتقرّب مِن «المعتزلة» أهل العقل، الفرقة الإسلاميّة التي اعتمدت في فكرها على العقل والمنطق. جرى العرس سنة ٢١٠ هـ في مدينة «فم الصُّلح» التي بناها المأمون قرب واسط بين البصرة والكوفة على نهر دجلة. يصف المؤرِّخون مدى ما بذله والد العروس الحسن بن سهل والخليفة المأمون في هذا العرس مِن بذخ ومال كثير. فقد فُرِش بهو القصر بحصير منسوج بالذّهب، ونُثِر عليه مِن اللآلِئ الكثيرة ما أدهش كثيرين من النّاس وأغناهم، وكان بياض الدرّ يُشرق على الذّهب الأصفر. نظر المأمون إلى هذا المنظر الخلاّب فذكّره ببيت مِن الشّعر، لشاعر والده وأخيه الأمين أبي نوّاس يصف فيه الخمر والحُباب يتراقص فوقها عندما تُسكَبُ، فيقول:

كأنّ صُغرى وكُبرى مِن فواقِعِها ... حَصْباءُ دُرٍّ على أرضٍ مِن الذّهبِ

قال المأمون: قاتل الله أبا نوّاس فلقد شبّه شيئًا بشيء ما رآه قط، فأحسن في وصف الخمر والحُباب الذي فوقها، فكيف به لو رأى هذا مُعاينةً!

يُذكر أنّهم أشعلوا شمعة مِن العنبر زنتها ثمانون رطلاً. وعندما زُفّت العروس نُثِرَت على الهاشميّين والقوّاد والوزراء وكبار الرِّجال كُرات مِن مِسك تحتوي على رقاع تحمل أسماء ضِيَع، ومجمّعات سكنيّة، وصلات، وأسماء جوارٍ وغيرها. فكان الذي يلتقط منهم إحداها تصبح الضّيعة أو غيرها ممّا هو مدوَّن على الرِّقاع ملكًا له. يُذكر أنّ المأمون أطلق لوزيره الحسن والد العروس خراج فارس والأهواز مدّة سنة كاملة.

وكذلك فقد نُثِرت الدَّنانير والدّراهم والمسك والعنبر على سائر النّاس. قُدِّرت نفقة ذلك العرس بسبعة وثلاثين ألف ألف دينار(٤٤). يذكر ابن خلدون في تاريخه (١- ١٤٥) أنّ المأمون أعطى بوران «في مهرها ليلة زفافها ألف حصاة مِن الياقوت، وأوقد شموع العنبر، في كلّ واحدة مائة من المنّ زنة رطلين، وبسط لها فرشًا كان الحصير منها منسوجًا بالذّهب، مكلّلاً بالدرّ والياقوت».(٤٥)

عرس المعتضد بالله على قطر النّدى

المعتضد بالله هو أحمد بن الموفّق الخليفة العبّاسي السادس عشر (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ — ٩٠٢ م). عقد صلحًا مع أمير مصر خُمارَويه بن أحمد بن طُولون، وتزوّج ابنته قطر الندى. جرى العرس سنة ٢٧٩ هـ، وقد حُمِلت العروس إليه من مصر إلى بغداد. جهّزها أبوها بجهاز لم يُرَ مثله. حتّى قيل إنّه صنع لها ألف هاون ذهبًا. وخرجت معها عمّتها العبّاسيّة بنت أحمد بن طولون، مشيِّعة إلى آخر عمارة الديار المصريّة مِن جهة الشّام، ونزلت هناك وضربت فساطيطها (بيوت مِن الشَّعر) وبنت هناك قرية باسمها تُدعى العبّاسيّة.(٤٦)

عرس الخليفة المقتدي بأمر الله على ابنة السُّلطان مَلكشاه

عبد الله بن محمّد المقتدي بأمر الله، كان الخليفة العبّاسي السّابع والعشرين (٤٦٧ — ٤٨٧ هـ/ ١٠٧٥ — ١٠٩٤ م) الجدير بالذِكر أنّ الحكم الفعليّ في عهد هذا الخليفة كان بيد السّلاجقة. وعروسه كانت الأميرة ماه ملك، ابنة ملكشاه الأوّل (١٠٥٥ — ١٠٩٢) السُّلطان السّلجوقيّ الكبير الذي خلف أباه ألب أرسلان. جعل وزيره نظام الملك، وعاش في أيّامه العالِم والشاعر الفارسيّ المشهور عمر الخيّام. جرى العرس سنة ٤٨٠ هـ، وقد نُقِل جهاز العروس مِن بلاد فارس إلى بغداد، على مئة وثلاثين جملاً، وكان يتألّف من أمتعة نفيسة وجواهر ثمينة. استقبلت العروسَ وفودٌ مِن نساء الأمراء وكبار القوم، اللّواتي تقدَّمن الموكب زرافات زرافات، بين أيديهنّ فرسان يحملون الشُّموع والمشاعِل، وبعدهنّ تقدَّمت العروس في هودج مجلّل بالذّهب والجواهر، تحيط بها مئة جارية من الأتراك، والمراكب العجيبة. فسار الموكب إلى دار الخلافة، حيث التقت العروس بعريسها الخليفة. كانت ليلة مشهورة لم يُرَ مثلها في بغداد.(٤٧)

(٤٣) الشّابشتي، الدِّيارات، ص ١٥٦ — ١٥٧. (٤٤) يُراجع بخصوص هذا العرس: **الدِّيارات**، ص ١٥٨ -١٥٩، و«**الزّواج عند العرب**» للترمانيني، ص ٢١١- ٢١٢. (٤٥) يُراجع أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج١، ط٧، القاهرة ١٩٦٤، ص ١١٥. (٤٦) ابن خلّكان ٢، ص ٢٤٩. (٤٧) **الزواج عند العرب**، نقلاً عن ابن الأثير ١٠/ ١٦٠- ١٦١.

هذه نماذج لأعراس مشهورة في التّاريخ. وهناك غيرها كثير، لا يقلّ عنها شهرة في المشرق العربيّ وفي المغرب، من أعراس الملوك والأمراء، وأعراس كبار القوم من الأثرياء الذين كانوا يُجارون الملوك في بذخهم وترفهم. يروي الأصفهاني في كتابه الأغاني حديثًا عن ناهض بن ثومة، وكان شاعرًا بدويًّا جافًّا، عاش في العصر العبّاسيّ، أنّه «شهد حفلة عرس في حلب، فدار عقله واختبل فكره ممّا رأى ممّا لا عهدَ له به في البادية. عجب وأفرط في العجب من الاحتفاء بالعروس، ومن ألوان الملابس، ومن ألوان الأطعمة والشّراب، ومن آلات الغناء الفارسيّة، حتّى أمعن النّاس في الضّحك مِن إمعانه في الغفلة»(٤٨). يقول أحمد أمين معلِّقًا على رواية الأصفهاني في الأغاني بأنّ الشّاعر«كان يجنّ حقًّا لو شهد حفلة العرس هذه في بغداد».(٤٩)

(٤٨) **الأغاني** ١٢/ ٣٦. (٤٩) **ضحى الإسلام**، ج ١، ص ١٠٣.

مقالات

تحدّيات المياه وفرص التغيير

د. لويس حبيقة

لا تخفى على أحد أهميّة المياه للحياة بمختلف جوانبها الغذائيّة والصحيّة والبيئيّة والإنتاجيّة، كما كمصدر للطاقة. استعملت المياه تاريخيًّا في الاستهلاك والإنتاج والتدفئة والتبريد، كما للنقل وتحقيق جزء من السياسة البيئيّة التي لا يمكن إهمالها في عصرنا اليوم. ٧٠٪ من المياه تستعمل للإنتاج الزراعيّ، فلا زراعة من دون مياه متوافرة بسهولة وبتكلفة مقبولة. كما للمياه فوائد كبرى لا تحصى ولا بديل عنها، تسبّب أحيانًا خسائر في البشر والحجر عبر الطوفان والفيضان اللذين لا يرحمان أحدًا، بمن فيهم الفقراء وأصحاب الحاجات الخاصّة وغيرهم. يحتاج الانسان إلى شرب ليترين من المياه العذبة النظيفة يوميًّا للاستمرار في الحياة. نفهم قيمة المياه خاصّة عندما تكون غير متوافرة، تمامًا كما يحصل في لبنان مثلاً ودوريًّا منذ عقود. سنة ٢٠١٤ كانت صعبة بسبب شحّ المطر، وبالتالي اضطرّ اللبنانيّون لشراء المياه للاستهلاك المنزليّ بأسعار باهظة. تشير هذه السنة إلى إمكانيّة توافر المياه صيفًا نتيجة الأمطار التي هطلت بغزارة فوق بيروت والمناطق.

انخفاض أسعار النفط، سمح للّبنانيّين، خاصّة في الجبال، بالتدفئة في الأيّام الباردة التي فاقت التوقّعات في عمقها وطولها. لا تقتصر أهميّة المياه على الاستهلاك العاديّ، إنّما تشكّل مصدرًا للطاقة المباشرة وغير المباشرة، أي عبر الطاقات الأخرى. هنالك دول غيّرت عواصمها وموقع مؤسّساتها بنقلها إلى الشاطئ. الدول التي ليس لها منفذ على البحار تعتبر مغلقة، وهنالك ملامح مشتركة لمواطنيها تميّزهم بوضوح عن سكّان الدول العاديّة. المياه مهمّة جدًّا للانسان والدول، ليس فقط للاستمرار في الحياة، وإنّما للتقدّم عبر الاختراعات التي ارتكزت في جزء منها على المياه. التحدّي الذي يواجه الإنسانيّة والمجتمعات هو كيفيّة إدارة هذا المورد أو هذه الثروة ضمن معايير الشفافيّة والفعاليّة والنوعيّة للحفاظ على استمراريّتها.

لا خوف من الشحّ المائيّ العالميّ، إذ أنّ الدورة الطبيعيّة العلميّة مستمرّة. تتبخّر المياه فتحدث غيومًا، فالمطر الذي يغذّي الأرض والينابيع والأنهر والسدود. هنالك مشكلة تكمن في توافر المياه العذبة، التي تصبح أكثر أهميّة مع التزايد السكّانيّ في كلّ المناطق، وخصوصًا منطقتنا العربيّة. خلال القرنين الماضيين، ارتفع استهلاك المياه العذبة ضعفي الزيادة السكّانيّة، ومن المرجّح أن ترتفع النسب أكثر مع انتقال الصين والهند إلى مجتمعات أكثر استهلاكيّة من الماضي. معظم الحروب الماضية كان مرتبطًا بالطاقة من نفط إلى غاز أو فحم. من المرجّح أن تكون حروب المستقبل مرتبطة بالمياه مع التكاثر السكّانيّ والانحدار البيئيّ. من ناحية أخرى، تشير الإحصائيّات إلى زيادة سكّان المنطقة العربيّة ٦٣٪ قبل سنة ٢٠٥٠، ما يحتّم الانتباه إلى المصادر والاهتمام بالبيئة كي تكون المياه المتوافرة نظيفة ولا تحدث أمراضًا تفوق في خطورتها ما نعرفه اليوم في العديد من الدول.

لويس حبيقة

هناك من أطلق على الأرض تسمية «الكوكب المائيّ»، إذ ٧٠٪ من مساحتها مكوّنة من مياه، كما أنّ ٩٧٪ من المياه مالحة، ما يفرض التحلية في دول عدّة، ومنها دول مجلس التعاون الخليجيّ. اخترع «جيمس وات» المحرّك البخاريّ الذي قلب الصناعة رأسًا على عقب وكان السبب الأساسيّ في إحداث ثورة صناعيّة غيّرت معالم التاريخ وأثّرت على العلوم والثقافة وطرق الحياة وكافّة المجتمعات. كانت المياه وما زالت أهمّ سلعة يحتاج إليها الانسان متفوّقة على النفط الذي يمكن الاستغناء عنه، على عكس المياه التي لا بديل لها. ٢٠٪ من السكّان يفتقدون إلى المياه العذبة للشرب والطّهي، و٤٠٪ يفتقدونها للحفاظ على مستويات صحّة عامّة ونظافة منزليّة مقبولة. تربط المياه الانسان بأرضه وتدفعه إلى الحفاظ على حقوقه والاستمرار في العيش في دولته. تخلق المياه علاقة قويّة بين الانسان وأرضه، وتعتبر إحدى معالم الجغرافيا الأساسيّة التي يعيش ضمنها.

كما النفط وبقيّة السلع والموادّ الأوّليّة، المياه ليست موزّعة دوليًّا بشكل عادل. هنالك دول قليلة محظوظة بالمياه، بل هنالك ٨ منها تعتبر الأغنى مائيًّا وتتوافر فيها كميّات كبرى تؤثّر إيجابًا على اقتصادها، وهي: البرازيل، روسيا، كندا، الصين، اندونيسيا، الولايات المتحدة، بنغلادش والهند. من العوامل الأساسيّة التي تميّز دولاً عن أخرى مدى توافر المياه فيها. في منطقتنا، هنالك أنهر عدّة، إلاّ أنّ أهمّها هي النيل ودجلة والفرات. تتقاسم مياه النيل عبر اتفاقيّة وقّعت في سنة ١٩٥٩ ثلاث دول، أي مصر وحصّتها ٥٥،٥ مليار متر مكعّب في السنة، والسودانَين بمجموع ١٨،٥ مليار متر مكعّب سنويًّا. تحاول أثيوبيا التي سيرتفع سكّانها من حوالى ٨٥ مليون اليوم إلى ١٢٠ مليون نسمة في سنة ٢٠٢٥، أخذ حصّة كبيرة عبر تغيير مجرى النهر عمدًا، وهذا ما ترفضه مصر. المعلوم أنّ أثيوبيا تحتوي على مساحات كبرى من الأراضي الخصبة التي تسمح لها بإنتاج كميّات كبيرة من الغذاء إذا توافرت لها المياه. تغتنم أثيوبيا الأوضاع الدقيقة التي تمرّ بها مصر للاستفادة من الثروة المائيّة العربيّة.

يبلغ طول نهر دجلة ١٨٠٠ كلم، ويمرّ في ٣ دول هي تركيا وسوريا والعراق. يبلغ طول الفرات ٢٧٩٥ كلم، ويغذّي الدول نفسها. حاولت تركيا الاستفادة من النهرين، فأنشأت بدءًا من سنة ١٩٧٦ حوالى ٢٢ سدًّا (٩ على دجلة و١٣ على الفرات)، كما ١٩ معمل إنتاج كهربائيّ بطاقة سنويّة تبلغ ٣٠ مليار كيلوات ساعة وهي تصدّر اليوم الكهرباء. كما ارتفعت الإنتاجيّة الزراعيّة التركيّة بفضل توافر المياه للريّ، فزادت الكميّات المنتجة وتنوّعت. استغلّت تركيا طبعًا الأوضاع المتقلّبة في المنطقة العربيّة لتوسّع استفادتها المائيّة، ما انعكس إيجابًا على مجمل اقتصادها بما فيه الصناعة والسياحة بالإضافة إلى الزراعة. تستفيد إسرائيل أيضًا من الأوضاع الفلسطينيّة والعربيّة المتردّية، وتسرق المياه من لبنان وفلسطين. يستهلك الفلسطينيّ ٨٠ مترًا مكعّبًا من المياه سنويًّا مقارنة بـ ٣٢٣ للإسرائيليّ و١٥٠ للأردنيّ. ٦٨٪ من المياه المستهلكة إسرائيليًّا تأتي من الخارج، بينها ٢٨٪ من لبنان.

هنالك ضرورة عالميّة لترشيد استعمال المياه منعًا للهدر وحفاظًا على توافر المادّة للأجيال القادمة. من العوامل المرشدة الأسعار التي تتفاوت بين مدينة وأخرى، تبعًا لتوافر السلعة. بالدولار وللمتر المكعّب الواحد، تتفاوت الأسعار بين ٣،٢٧ في مدينة نيويورك، ٧،٣٨ في كوبنهاغن، و٣،٨ في لندن، و٢،٤٥ في دبي، و٠،٠٣ في جدّة و٢،٨ في لوس أنجليس. تعبئة المياه العذبة للمنازل تعتبر من أنشط الصناعات العالميّة، حيث بلغ حجم مبيعها السنة الماضية ١٠٠ مليار دولار مع تزايد سنويّ يقدّر بـ ١٠٪. تقيم أنشطة المياه للاستعمالات المختلفة بحوالى ٤٠٠ مليار دولار سنويًّا. هنالك دول تخصخص قطاع المياه فيها، لكنّ التجارب العالميّة متفاوتة بين النجاح والفشل تبعًا لطريقة الخصخصة وسياسة تحديد الأسعار والرقابة الموضوعة على النوعيّة.

لماذا القلق بالنسبة للمياه في المنطقة العربيّة، وما هي الحلول الممكنة؟ تكمن المشكلة في البيئة الملوّثة المؤثّرة سلبًا على توافر ونوعيّة المياه. هنالك الزيادة السكّانيّة وارتفاع الاستهلاك إلى مستويات غير مسبوقة. هنالك الإدارة السيّئة للمادّة، والتي تعود إلى عدم توافر المعلومات والأرقام، أي إلى غياب الشفافيّة واعتماد أسعار منخفضة تشجّع على الهدر كما إلى غياب السدود وقنوات النقل والتوزيع وغيرها، بالإضافة إلى عامل الطقس. في لبنان هنالك عجز مائيّ سنويّ نتيجة سوء التخزين وتردّي أنابيب النقل كما بسبب الهدر، ما حتّم على المجتمع المدنيّ وضع مشروع «الذهب الأزرق»، وهي خطّة خمسيّة تهدف إلى تحسين وتفعيل إدارة قطاع المياه بحيث يستفيد اللبنانيّون أكثر بكثير من هذه الطاقة المتوافرة في كلّ الربوع اللبنانيّة.

استشهاد الحضارة

د. سليمان الصّدّي

سليمان الصّدّي

صدق المتنبي الشاعر العظيم حين استشعر الواقع العربيّ الحاضر، فقال:

قوم إذا مسّت النعالُ وجوهَهم... شكتِ النعالُ بأيّ ذنبٍ تُصفَعُ

لقد سكت الرجال، فنطقت الأحذية. فكلّنا صدمنا بفيلم يُظهر الدواعش وهم يحملون فؤوسهم، ويحطّمون التاريخ والحضارة. لم أتصوّر يومًا أنّني سأشهد استشهاد الحضارة، وأنّ الحجارة المرصوفة من آلاف السنين لها دماء تجري وحياة تنبض، وأنّ البشر أضحَوا حجارة، والحجارة الحقيقيّة أضحت بالغة النطق والإحساس. لم تكن المطارق التي هوت تهوي على تماثيل متحف نينوى بل هوت على قلبي. لم تحطّمها بل حطّمت قلبي. لم تكن المدن الأثريّة التي فُجّرت سوى بركان تفجّر في داخلي. لأوّل مرّة أشعر أن للتماثيل حياة، ولأول مرة أسمع صوتًا قادمًا من عمق التاريخ، صوت الملوك العظام الذين بنوا وأسّسوا مجدًا وحضارة قائلين لي: كيف تستبدلون بملوك النور أمراء الظلام، ولسان حالهم يذكّرني بقول الشاعر:

لا بأس بالقوم من طولٍ ومن عظمٍ جسمُ البغال وأحلامُ العصافيرِ

وكثيرًا ما تساءلت من الذي شعر بنشوة النصر حين قتل الحضارة في سورية والعراق؟ داعش التي تظنّ أنّها تحطّم أصنامًا هي رموز لآلهة يجب ألاّ تُعبد حسب معتقدهم، أو إسرائيل؟

إنّ لإسرائيل قصّة مع الحضارة البابليّة والآشوريّة، عمرها ٣٠٠٠ سنة. أمّا الدواعش فمهووسون ببيع السبايا وذبح الرهائن وحرقهم أحياء، لا يعرفون شيئًا عن التاريخ قبل محمّد عبد الوهّاب. إنّهم أدوات غير عاقلة بأيدي عقول شريرة، لا يشبهون سوى المعاول التي هدمت الآثار.

إنّ فكرة هدم الحضارة فكرة إسرائيليّة، وهدف يهوديّ بامتياز؛ إذ يحدّثنا التاريخ عن الثأر بين بابل وملوك آشور وأورشليم القديمة؛ فقد سبيت أورشليم مرّتين، وتعرّضت للخراب مرّتين على يد ملوك بابل وآشور منذ ٣٠٠٠ سنة، وحين عجز ملوك بني إسرائيل عن الأخذ بثأرهم بأيديهم أرسلوا دواعشهم ليتحقّق حلم أورشليم بالقضاء على بابل وآشور، كما ستحقّق حلمها لاحقًا بالقضاء على المسجد الأقصى.

لا تريد إسرائيل أثرًا لبابل في الشرق بعد اليوم، وإلاّ فكيف لها أن تدّعي ملكيّة أرض من الفرات إلى النيل إذا بقيت فيها آثار وتماثيل تمثّل شهادة زمنيّة كبرى لوجود عدوّها؟ أليست هذه التماثيل والمعابد صكّ ملكيّتنا لهذه الأرض؟

لقد قطع الدواعش رؤوس التماثيل المجنّحة لملوك وأباطرة هزّوا الشرق قديمًا، فارتجف المسجد الأقصى والكعبة وبيت لحم، لأنّ الدور التالي على ما تبقّى من شواهد تاريخيّة؛ حتّى أبو الهول الفرعونيّ شعر بالارتجاف، وخاف خوفو على وجوده.

لقد بدا واضحًا للعيان أنّ إسرائيل لن تهدم المسجد الأقصى بيديها؛ فكما هشمت أختام الزمن، ومات شهود الحضارة وبقي شهود الزور ستعيد تنفيذ حكم الإعدام بحقّ الحضارة في فلسطين بأيد داعشيّة فلسطينيّة.

للتاريخ دوراته، والزمن سيل من العقود المتتالية؛ إنّه نهر يفيض كلّ بضعة قرون. وللتاريخ بصماته، وبصماته تماثيل ملوكه ومعابده وقناطره ومدنه الأثريّة. هذه التماثيل والأيقونات ذاكرة التاريخ. وحين أرادت إسرائيل هدمه، أرادت إنهاء زمن وبدء زمن جديد. فيا أخي في الإنسانيّة، المعركة اليوم لم تعد معركة بين حالمين بالحريّة ونظام، بين حريّة واستبداد، حلفاء ومحاور، إنّها معركة تاريخ، معركة فاصلة بين ملوك إسرائيل القدماء وملوك الشرق القديم هانيبعل وآشور ونبوخذ نصر. لقد بدأت المعركة منذ آلاف السنين ووصلت لذروتها في الربيع العربيّ، فتنبّهوا واستفيقوا أيّها العرب قبل أن يتحطّم سحر الشرق، وغيّروا رؤية المتنبّي لكم حين قال:

أغايةُ الدين أن تحفوا شواربكم يا أمّةً ضحكت من جهلها الأممُ!

ماذا بقيَ من الشَّرق الرُّوحاني؟

د. يوسف عيد

يوسف عيد

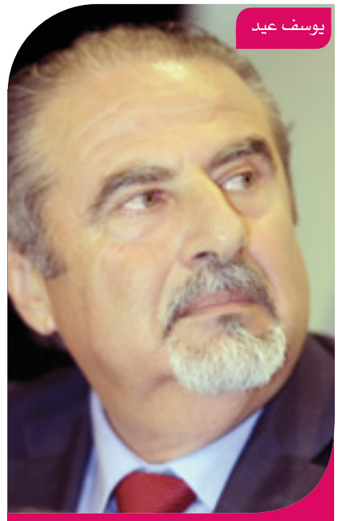

«الشرق الروحانيّ» تسمية شاعت في القرن الماضي إبّان النهضة العربيّة– طاب ذكرها– فقد هبّت عليها عواصف أطاحت تلك المفاهيم أو كادت، وأفرغت هذا المصطلح من معناه. إذ إنّه من المفترض، أن نكون، نحن، بألف خير، أهل دين وفضائل، نحيا حياة كريمة لا تشوبها شائبة. أليس ذلك بدعة غريبة، تستوقف الإنسان اليوم ليسأل عن هذا المفهوم؟ لاسيّما أنّ القوى التي تدفع به نحو البربريّة الجديدة، والتي تحول بينه وبين تحرّره، قوى مخيفة ومذهلة؟

إذا كنّا نؤمن، ونحن نؤمن، بأنّ نشأة الأديان الرئيسيّة: اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، كانت في ربوعنا، وأنّ هذه الربوع مهبط الوحي؛ فذلك يرتّب علينا الكثير من التديّن والتقوى والفضيلة. لكنّنا نعيش على حافّة الهاوية، هاوية الكوارث؛ لأنّ هذه الأوهام التي قامت على تلك الدعوى: «الشرق الروحانيّ»، من أنّنا روحانيّون بالطبع، ناتج من خلط بين الكُهانة والدين الحقيقيّ. فالكُهانة طقوس وفروض وتقديم ذبائح، وحرق، وتجويع للعقل، وسبي، وغزو، وإراقة دماء، وإلغاء للآخر... فمتى كانت هذه الأمور من صميم الدين؟! أيّ دين سماويّ؟ أمّا الدين فهو سلوك وأخلاق وفضائل ومعاملة، واعتراف بالإنسانيّة وبالإنسان...

■■■■

إنّ كثيرًا من المعايير الأخلاقيّة والسلوكيّة التي فرضتها عبارة «الشرق الروحانيّ» غدت مجوّفة من معانيها، نتيجة ضياع الضوابط التي تحدّد الأخوّة الإنسانيّة والنزاهة والعدالة. وبهبوط المستويات السلوكيّة إلى هذا الدرك، يصحّ الكلام على شيوع ثقافة الإلغاء في المجتمع الشرقيّ... ننظر إلى ذلك كوصمة تلازم أيّ عمل ينطوي على تجاوزٍ أو هتكٍ للقواعد الأخلاقيّة والسلوكيّة المألوفة أو لمضامين القوانين والأنظمة المطبّقة أو للتعاليم الدينيّة السامية.

■■■■

ماذا لدينا من كلّ ذلك في «الشرق الروحانيّ»؟ إنّنا نشهد أمام أعيننا تهافت القيم، وتداعي روح التضامن بين البشر، وانحسار روح المسؤوليّة، وعدوان الإنسان على الإنسان، وعبادة الشرّ والقوّة والسلطان، وسوى ذلك من آفات.

لكنّ الصحيح أيضًا، أنّ اللعبة لم تنته بعد، وعلى الإنسان أن يسعى للأخوّة وإن كان دون ذلك عقبات كأداء ومطامع ذاتيّة أنانيّة قاتلة. على الإنسان أن يقاوم أمّارة السوء، وما يتعرّض له من تمزّق وظلم وبربريّة وانحدار.

■■■■

ما نريد أن نصل إليه هو التنبّه إلى هويّة الشرق الروحانيّة بأنّها بدأت تزول، وبالتالي، يستلزم أوّلاً، وقبل كلّ شيء، إصلاح الفكر، وإصلاح التربية، والاقتناع بأنّ استجلاء أسرار الله في خلقه ليست عمليّة قمعيّة كُهانيّة ظالمة، بل عمليّة محافظة على القيم الإنسانيّة التي يستلزمها بناء شرق جديد يتّجه صوب مرتجيات الإنسان وحاجاته العميقة إلى فضائل راقية، ومحبّة وتسامح؛ والله، سبحانه، يريدنا أن نتحلّى بثمار تلك الروحانيّة.

متصرّفيّة جبل لبنان خلال الحرب العالميّة الأولى

-وقائع وأرقام-

رمزي توفيق سلامة

رمزي توفيق سلامة

الوضع قبل الحرب:

- المساحة: ٣٢٠٠ كم
- الأراضي الزراعيّة: ٤٠٠ كم؛ أي ١٢٪ من المساحة العامّة، فلا تكفي إلاّ ٦٠،٠٠٠ شخص.
- عدد السكّان حسب إحصاء عام ١٩١٣: ٤١٤،٨٠٠ فرد: ٣٢٩،٤٨٣ مسيحيًّا؛ و٨٥،٢٣٢ مسلمًا، بينهم ٤٧،٢٩٠ درزيًّا. أي ١٦١ فردًا/كم.
- العائدات الماليّة: ٢٢٠،٠٠٠،٠٠٠ قرش، موزّعة كما يلي:
  - ٩،٠٩٪ من الزراعة
  - ٩،٠٩٪ من الاصطياف
  - ٤،٥٤٪ من الصناعة
  - ٣٧،١٧٦٪ من موسم الحرير
  - ٤٠،٩٪ من المهجر
- إنتاج القمح ١٥٠٠ طن، في حين أنّ الإستهلاك يحتاج إلى ٢١٠،٠٠ طن
- عدد المواشي ٣٠،٠٠٠ رأس، ثلثها يستفاد منه في الزراعة
- الاعتماد على الاستيراد للعيش

الإبادة المخطّط لها، وتنفيذها على يد جمال باشا السفّاح:

- احتلال جبل لبنان و إلغاء المتصرّفيّة
- مصادرة الجامعات والمدارس والأديرة التابعة للإرساليّات الأجنبيّة
- مصادرة المواشي وجميع أنواع وسائل النقل
- مصادرة المحاصيل الزراعيّة في حوران
- وضع اليد على الوثائق السريّة للقنصليّة الفرنسيّة في بيروت
- إنشاء المحكمة العرفيّة في عاليه
- شنق المطالبين بالاستقلال والمناهضين من القوميّين العرب
- نفي رجال الدين والمفكّرين والوجهاء المعارضين وغيرهم
- اضطهاد وتحقير الإكليروس والطوائف المسيحيّة بمن فيهم البطريرك المارونيّ
- الحصار البرّيّ من قبل العثمانيّين، والحصار البحريّ من قبل الفرنسيّين والإنكليز
- الاحتكار وجنون ارتفاع الأسعار؛ فرطل القمح مثلاً كان سعره ١٠ غروش سنة ١٩١٦ وارتفع إلى ٢٥٠ غرش في آخر سنة ١٩١٧، والليرة العثمانيّة انهارت من ١٠١ غرش في آذار ١٩١٦ إلى ٨ غروش في ١٩١٨

عامل طبيعيّ:

اجتياح الجراد في ١٣ نيسان ١٩١٥ للبلاد، ومكوثه فيها ثلاثة أشهر حتّى قضى على الأخضر واليابس.

النتائج:

- إغاثة غذائيّة ملحّة لـ ١٧٥ ألف شخص و٨٣٥ قرية؛ فعملت المستشفيات والوحدات الطبّيّة المتنقّلة على إسعاف المرضى، واستقبلت مراكز الإيواء أكثر من ١٠ آلاف طفل وآلاف الفتيات.
- وفاة أكثر من ١٨٠،٠٠٠ شخص من الجوع، أي حوالى نصف المتصرّفيّة.

من كتاب الناجون (١٩١٤–١٩١٨)

آمِنوا باللّه ... وحرّروه

الأب جوزف قزّي

١. ليس لدينا دليل على أنّ اللهّ هو الذي صنع الأديان، ووضع قوانين للإنسان، وسنّ له شرائع وفرائض، ليسير الإنسانُ بموجبها. لقد خلق اللهّ الإنسان حرًّا، يتميّز عن جميع الكائنات بهذه الحرّيّة.

٢. فالذي يشترع للإنسان هو الإنسان نفسه، أو هو المجتمع الذي ينتمي إليه ويعيش فيه. وهذا المجتمع متنوّع، متغيّر، متطوّر، يواكب الإنسانَ في تطوّره وتنوّعه.

٣. هذا المجتمع الذي يشترع للإنسان هو: إمّا هيئة الأمم المتحدة، أو الدولة، أو الكنيسة، أو الحزب، أو الجمعيّة، أو القبيلة... جميعها تتولّى شؤون الإنسان وتعمل على رقيّه ونموّه ومواكبته في تطوّره في جميع مراحل حياته...

٤. هذا يعني أنّ ما يُسمَّى أديانًا سماويّة لا يمكن أن تواكب الإنسان ولا العلم ولا متغيّرات الكون... تعاليم هذه الأديان، بكونها سماويّة، هي تعاليم ثابتة جامدة لا تتغيّر ولا تتطوّر ولا يعنيها ثقافات البشر وحضاراتهم وتقاليدهم...

٥. هدف الأديان السماويّة هو في أن تقدّم هذه للإنسان كلّ ما يعود إلى خلاصه وسعادته الأبديّة في الحياة الثانية، وأن تساعده في معرفة اللهّ والقيم الروحيّة والماورائيّة... ولا شأن لها في سلوك الإنسان الدنيويّ ولا في قوننة حياته وتنظيم أعماله...

٦. ليس اللهّ هو الذي صنع الأديان، ووضع القوانين، وسنّ الشرائع، وعيّن أنبياء، وبعث رسلاً، ونزّل كتبًا ورسائل، وحدّد للإنسان سلوكَه، فقيّد حرّيتَه. اللهّ لا يشاء أن يقيّد حرّيّة الإنسان إطلاقًا...

٧. إنّي أخشى فوق هذا كلّه، أن يقول المؤمنون المطمئنّون بأنّهم يعرفون مشيئةَ اللهّ، ويدركون هويّتَه، ويحدّدون كمالاته وصفاته، ويُخضعونه لبراهينهم العقليّة، وأدلّتهم المنطقيّة. فاللهّ هو الكائنُ المطلق، الكلّي الكمال، الذي لا يطاله عقلُ إنسان...

٨. وإنّي أخشى أيضًا أن نجهل كلام يسوع الذي قال: «قيل لكم.. أمّا أنا فأقول لكم».. والذي قال أيضًا: «لا أحد يعرف الآب إلاّ الابن»؛ أي إنّ الإنسان المحدود في الزمان والمكان لا يمكنه أن يعرف اللامحدود واللامتناهي..

٩. فما بال «رجال الدين» يتّهمون اللهّ بصنع أديان، وتنزيل شرائع، وبكتابةِ كتبٍ؛ ويدّعون معرفةَ اللهّ، ويطمئنّون إلى ما جاء به السلَف، فيقيّدون اللهّ بمنطقهم وبمقولاتهم.. ونسأل: هل غير اللهّ يستطيع أن يقول شيئًا عن اللهّ؟!

■■■■

١. يهمّنا من الأديان، التي اتُّهم الله بصنعها تلك الأديان المسمّاة «سماويّة» أو «توحيديّة»، كاليهوديّة، والمسيحيّة، والإسلام؛ لأنّها تعنينا، وتشغل حياتَنا، وتملأ عقلَنا، ونعيش معها. وهي أيضًا تدّعي معرفة اللهّ وكنهَ سرّه.

٢. أنا لا أدعو إلى إلغاء ما قدّمتْه الأديان للبشريّة من حضارات؛ بل أدعو إلى تبرئة اللهّ من صنع هذه الأديان، من معتقداتها، وتعاليمها، وشرائعها، وقوانينها، وكتبها، ورسلها، وأنبيائها...

٣. ما من عاقلٍ يحقّ له أن يقول إن الله أعطى هذا الدّين لهذا الإنسان وذاك الدّين لذاك الإنسان، واختار شعبًا من دون شعب، وأوحى لهؤلاء ولم يوحِ لأولئك، فميّز النّاس بعضهم عن بعض، فاختلفوا بسببه، وتباغضوا، وتقاتلوا من أجله...

٤. إذا كان الله هو نفسه الذي أوحى بهذه الأديان المختلفة والمتناقضة، فيكون هو نفسه الذي شاء للبشر أن يختلفوا ويتقاتلوا، ويكون بالتالي غير عادل، لا يعرف الرحمة ولا المحبّة، بل هو، في الحقيقة، إله شرّير. وإذا كان ثمّة شيطانٌ، فهو هو الشيطان الرجيم.

٥. ثمّ إنّ رسلاً وأنبياء كثيرين قالوا إنّ الله هو الذي بعث بهم، وأوحى إليهم بهذه الأديان، وزوّدهم بشرائع وتعاليم أزليّة أبديّة، ثابتة لا تتغيّر. هؤلاء أشرار، مثل إلههم، عمّقوا الإختلاف، ودعوا إلى اقتتال الناس بعضهم مع بعض.

٦. هذه حالٌ لا يقبلها إنسان. ولهذا، رفضها كثيرون وأنكروها، وحرّروا الله والإنسان منها. ولهذا أيضًا اعتبروا ملحدين، وكافرين. وبسبب إنكارهم لهذه الأديان، أنكروا الله نفسه. وكان سبب إنكارهم الله لا عدم معرفتهم به، بل اطمئنانهم لمعرفة الآخرين به معرفةً لا شكّ فيها.

٧. يشجّعني على هذا الكلام يسوع نفسه، الذي كان أوّل من تجرّأ على تبرئه الله من التقاليد الموروثة، ومن الشرائع السماويّة، ومن التعاليم اليهوديّة، ومن رجال الدين: فرّيسيّين وكتبة وأحبارًا ورؤساء... هؤلاء صلبوا يسوع، بحقّ، لأنّه لم يترك عليهم سترًا يسترهم. حتّى إنّه هاجمهم في عقائدهم الدينيّة، مثل الختان، والرجم، وحرمة السبت، قيل عنها بأنّها من عند الله، لا من صنع الإنسان. هذه التّعاليم، جمّدت تطوّر الإنسان، كبّلته، وقيّدت حرّيته.

«إنّما يسوع هو مُخلِّصُ الإنسان ومحرِّرُه. هكذا يعني اسمُه. وهذه هي مهمّته ورسالته... هو مخلِّص الإنسان من شرائعَ وعقائدَ ومحرّماتٍ وممنوعاتٍ، وضعها الإنسانُ على نفسه باسم اللهّ».

٨. لقد كان يسوع، حقًّا، أعظم ثائر في التاريخ، لا على الظلم والحكّام الظالمين فحسب، بل على الله نفسه الذي اتّهم ظلمًا بأنّه هو الذي صنع أديانًا ومذاهب، وسنّ شرائع وقوانين باسم اللهّ... وهو بهذه الثورة على الله، فتح الباب واسعًا للملحدين. فإذا به كان هو رأس الملحدين، وأوّل الرافضين، وأعظم الثائرين من أجل حريّة الإنسان وكرامته وتطوّره.

٩. وإذا كان ثمّة احتمال أن تكون الأديان من عند الله، فيجب ألاّ تختلف... والحال إنّها تختلف بعضها مع بعض، وتتباغض، وتتناحر، وتتقاتل، لأنّ كلّ دين يدّعي امتلاك الحقيقة من دون سواه. والله وحده يملك الحقيقة كاملةً...

١٠. هذا علمًا بأنّ الله خلق الناس إخوةً، خلقهم بمحبّةٍ إلهيّة متساوية ،غير محدودة، لذلك فهو يشاء خلاص الجميع بمحبّة إلهيّة متساوية وغير محدودة... هذا الخلاص لم يحرم الله منه أحدًا، لأنّه هو الذي خلق كلّ واحدٍ. وسوف يخلّص أيضًا كلّ واحد. لهذا فهو بريء من هذه الأديان المختلفة والمتناقضة جميعها، ولا يدَ له فيها.

١١. الإنسان حرّ، وهذه هي عظمته وكرامته. هكذا خلقه الله، وهذه هي أيضًا عظمة الله، فلا الله يتخلّى عن عظمته هذه، ولا الإنسان يتخلّى عن كرامته وعن حريّته... لن يتخلّى الإنسان عن حريّته، والله يريد له ذلك. وكذلك فإنّ الله لن يتراجع عن خلقه الإنسان حرًّا، ولن يرجعه إلى العدم بسبب عصيانه.

١٢. الدين، إذًا، كما أفهمه شخصيًّا، يطعن في الله وفي الإنسان معًا. لهذا يجب تبرئة الله والإنسان منه، مهما كلّف الأمر، بذلك تسلم البشريّة ويسلم الإنسان، ويتقدّم العالم إلى كماله، وتنجلي صورة الله الحقيقيّة الرائعة في الكون.

١٣. يسوع، في المسيحيّة، ليس مؤسّس دين، ولا رابانًا يهوديًّا، ولا كاتب إنجيل، ولا باعث رسائل، ولا حكيمًا كالحكماء، ولا زعيمًا كالزعماء، ولا قائد حركة سياسيّة أو اجتماعيّة، ولا واضع قوانين وشرائع، ولا مرسِلاً رسلاً وأنبياء... إنّما يسوع هو مُخلِّصُ الإنسان ومحرِّرُه. هكذا يعني اسمُه. وهذه هي مهمّته ورسالته.

١٤. يسوع هو مخلّص الإنسان، لا من خطيئة آدم، كما تقول الأديان؛ بل هو مخلِّص الإنسان من شرائعَ وعقائدَ ومحرّماتٍ وممنوعاتٍ، وضعها الإنسانُ على نفسه باسم اللهّ، فقيّد بها حرّيّتَه التي جاء يسوعُ ليخلّصَها من سلاسلها وأغلالها وقيودها.

لاءَات الأب ميشال حايك الثلاث

الأب باسم الراعي

هناك مداخل متعدّدة لقراءة نصوص كتاب الأب ميشال حايك: «المارونيّة: ثورة وحريّة»[1]، وهو أمر طبيعيّ، ما دام الأب حايك قد أشار في أكثر من موضع في نصوصه أنّ مقاربته تأويليّة (ص ١١، ٦٠). ومتى دخلنا مجال التأويل لا بدّ من السير بهدي القاعدة الذهبيّة التي أرساها بول ريكور في شأن أيّ نصّ، بأنّ النصّ متى خرج من يدي صاحبه لا ينتمي إليه بعد. ونصوص الأب حايك قد انعقدت على مفتاح تأويليّ هو «الرفض»، رفض ما آلت إليه المارونيّة في زمن وضع هذه النصوص. والرفض يعتبره الأب حايك سمة الذات المارونيّة، وهو في الوقت عينه واحد من مقوّمات التأويل. والرفض لديه لا يعني الرفضيّة، بل هو أقرب إلى «فلسفة اللاء» عند غاستون باشلار التي حدّدها بثلاث لاءَات:

- لاء للانغلاق في التجارب السابقة من دون تهميشها طبعًا، ونعم لحركة معرفة ديالكتيّة تقوم بين الماضي والحاضر، حتّى تبرز الهويّة الحقيقيّة.

- لاء للمفاهيم الجامدة على خلفيّة التحديدات المتداولة، ونعم لتحديدات ديالكتيّة بين ما هو مألوف وما تمّ التوصّل إليه معرفيًّا.

- لاء للتسطّح الماديّ للوجود وللمعرفة، ونعم للعبور في الواقع إلى ما هو أبعد من الواقع، حتّى يبدو الواقع لحظة في مسار تحقّق موجّه بإتقان.

ويخرج باشلار من هذه اللاءَات بتحديد «لفلسفة اللاء» يقول: «تعتبر فلسفة اللاء أنّ الروح بنشاطه هو عامل تطوير، بحيث أنّ الفهم الرصين للواقع، يعني الافادة من الابهام الذي يعتري هذا الواقع بغية تحويل وإيقاظ الفكر، بحيث أنّ وضع الفكر في حال ديالكتيّة، هو مناسبة لضمان التوّصل إلى إيجاد ظواهر كاملة علميًّا، ولتجديد المتغيّرات البالية أو المخنوقة بسبب إهمالها من قبل العلم أو الفكر الساذج [أي الفكر الذي لم يعرها اهتمامًا]» (Gaston Bachelard, La philosophie du non. Tunis 1993. P.16). ويوضح في مكان آخر من الكتاب أنّ فلسفة اللاء لا تأتي من الخارج بأحكامها ونقدها، بل تبقى «أمينة لقواعد من داخل منظومة تتمتّع بقواعدها الخاصّة» (ص ١٢٤).

هذه الأبعاد الخاصّة بفلسفة اللاء نجد شبيهًا بها في نصّ الأب حايك؛ فهو ينظر إلى المارونيّة على أنّها روح وثّاب يأبى الاختزال والخنوع والتقوقع، روح مناهض لكلّ حصر أو حصريّة، ذلك أنّ المارونيّة انطلقت فعل اعتراض بدأه مارون «الرافض» (ص٢٠). وبكونها نشأت من الاعتراض، فلا تستقيم إلاّ في «الإقدام» (ص٢١) أي التطوير، وإلاّ خانت انطلاقتها. ومتى حدثت هذه الخيانة تكون سببًا في كبوة المارونيّة وانكفائها وحتّى زوالها. وإذا تصلّبت أو غالت في تصلّبها خانت ما في روحها. والكلام هنا ليس سرياليّة؛ فنصُّ حايك يظهر أنّ الواقع هو مجال الروح المارونيّ ومدى فعله، ذلك لأنّ الروحانيّة المارونيّة، كما قال يومًا، اختارت سبت الفصح، لا جمعته أو أحده، منطلقًا روحيًّا. هي إذًا في الواقع بين حاله ومآله. ولذلك، فمتى انتقد حايك المارونيّة، إنّما يأتي فعل الانتقاد نابعًا من الروح المارونيّ لا من خارجه. وهذا الروح يختصره حايك ببعض سطور، أسوقها هنا، قبل الخوض في تفصيل اللاءَات الحايكيّة: «إذا ضيّق عليهم، رغم ضيق مداهم، احتموا في صخرة الوادي واعتزلوا وتقوقعوا؛ وإذا وسع لديهم المجال تدفّقوا من أعالي الجرد إلى الساحل فالجنوب فالبحر حتّى يصلوا إلى أقاصي الدنيا ويختبروا كلّ فكرة ويجرّبوا كلّ شعار. فهم أكثر الناس تقدّميّة إذا أَمِنوا، وأشدّهم رجعيّة إذا فزعوا. وإذا ضمنوا الحريّة نفخوا في الشرق روح التحرّر، وإذا أذلّهم استعمار فضّلوا الانتحار. لقد كانوا أوّل من استقدم إلى الشرق فكرة الوطن، فأرادوه كيانًا مستقلاً قائمًا

« لقد كانوا أوّل من استقدم إلى الشرق فكرة الوطن، وكانوا أوّل من استنبط فكرة القوميّة».

[1] منشورات جامعة الروح القدس- الكسليك، ٢٠١٥.

بذاته منعوتًا بصفاته غير مضاف إليه. ومع هذا التزمّت الوطنيّ، كانوا أوّل من استنبط فكرة القوميّة ونظّروا لها وجعلوا نفسهم دعاتها. إنّهم غلاة في كلّ شيء!» (ص١٠٠).

والبارز في هذا النصّ، سيطرة فكرتين موجّهتين: التجواز أو التطوّر (والفكرة الثانية) متى كان ذلك موافقًا للذات المارونيّة ولا يخرجها من حدود هذه الذات. فالانطلاق في المارونيّة متأصّل في ذاتها، وهو امتداد لذاتها، إنّه باختصار فعل حريّة. وهذه هي مقوّمات الهويّة المارونيّة تأصيلاً: الذات التي تعي ذاتها والإقدام، أي الانعزال (بمعنى العودة الجذريّة إلى الذات) والرسالة. هذا هو اليقين الأوّل في المارونيّة، إنّه فعل الحريّة الأولى: انعزال وإقدام. وهذا الفعل، كما يبيّن هوسرل، إضافة إلى كونه «تثبيتًا لحضور الإنسان في العالم، هو تحرّر للإنسان في وجه العالم» (Henri Duthu, Husserl vu par Lévinas. Une philosophie de la liberté. http://espacethique.free.fr/dwnld.php?lng=lng&pg=290)، بمعنى قذف لمعنى لا فعل تفلّت، إنّه التزام. فالمارونيّة تنعزل لتُقدِم أي لتحدّد شروط إمكان رسالتها من جديد. وهنا يبدو بوضوح أنّ روح المارونيّة لا تفهم خارجًا عن رساليّتها.

في هذا السياق نفهم لاءات حايك الثلاث؛ وبعيدًا عن هذا السياق ندخل مع الأب حايك حكمًا في متاهات النصّ والنقل والتاريخ وما شاكل...

- **اللاء الأولى**، لا للانغلاق نعم للانعزال، أي نعم لديالكتيّة الماضي والحاضر تمنع التقوقع في هويّة جامدة. ينبّه الأب حايك في هذه النصوص إلى هذه المسألة عندما يقول: «لن ندخل [...] في مباراة المغالاة والبهورة و«التفشيط» والإدّعاء. ولا اعتدنا أن نستقبل التاريخ من هذا الباب كما تعلمون، ولا أن نستلذّ القصص العشائريّة، والجلوس في أرخبيل الطوائف [...] فإذا كانت المارونيّة [...] حركة قامت بوجه العصبيّات، فكيف نعتنق ما كفرت به، من دون أن نكون كافرين بها؟ المهمّ [...] أن نستخلص ما أمكن استخلاصه من نموذجيّة تعني الجميع، أمّا الباقي فنتركه للإستهلاك والإستغلال الداخليّ...» (١١). ذلك ما جعله يلوذ بالتأويل (ص١٦)، والتأويل يأبى القوالب، فهو فعل حريّة ودليل عليها كما يقول ديلتاي، لأنّه يخلق مسافة تفكّريّة بين الذات والواقع. وهذا معنى كلام حايك، في النصّ المذكور أعلاه، نكفر بالعصبيّة من دون أن نكفر بالمارونيّة. فالعصبيّة ضدّ الديالكتيّة، أمّا الانعزال فلا، لأنّه زمن تأويل كما يقول: «الأمس، كيف يمكن أن يكون؟ إن هو بنصوصه وآثاره وأحداثه ليس سوى عمليّة إبداع عند من ينتمون إليه ويعتنون به» (ص١٢). والمحرّكان الأساسيّان لعمليّة التأويل تلك هما خطّان متواصلان: ذات تعي ذاتها أنّ لها تاريخًا، وتاريخًا يختزن قوّة دفع تنتفض على معوّقات التاريخ. فالمارونيّة في نظره تعيش زمنها الذاتيّ منعزلة، أي عصية على التغريب متى هدّدت، كإصرار على الاستقلاليّة ورفض للإندماج أو الذوبان (راجع، ص٢٥)، وكسر للقيود متى أوجدت لذاتها مساحة لا تلغي الذات؛ وهذان هما باب الحريّة الأصيل. من هنا قوله: «لم تنكسر فيهم (أي الموارنة) روح الحريّة على الرّغم من هزائمهم عبر التاريخ!» (ص١٢) وكأنّه يقول بكلام آخر، تفقد المارونيّة ذاتها متى مسّت استقلاليّتها وتعطّلت إرادة المبادرة لديها. ومتى أصيبت بهذا الداء انتفت قضيّتها (ص١٤)، أي ذلك اللقاء بين الحريّة والتاريخ.

من هنا ينصبّ جهد حايك في نصوصه، وهي غالبيّتها من زمن الحرب، على إبراز خيار، سار عليه أيضًا موارنة آخرون أمثال المطران حميد موراني ويواكيم مبارك، في تأصيل المارونيّة في الحريّة، محاولين ثني الموارنة عن الانزلاق الإنتنيّ، وهم لم يعرفوا ذلك إلاّ متى صار لهم دولة، وعن التكبّش الأعمى بالمكتسبات إلى حدود إلغاء الذات، حتّى تجد المارونيّة الروحيّة ما تقوله لهم، إنّهاتعني أيضًا أن المارونية تتجاوز الانغلاق في أرض. ذلك ما دفع حايك إلى القول إنّهم يأتون الأرض من حريّتهم وتبقى «الأرض»

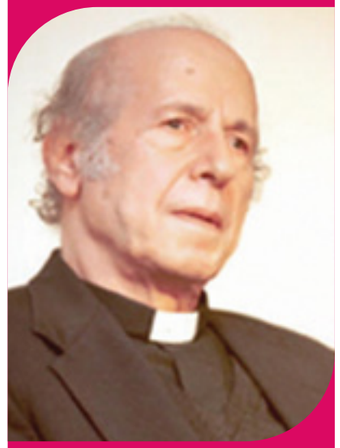

« لم تنكسر فيهم روح الحريّة على الرّغم من هزائمهم عبر التاريخ!».

الوحيدة التي لا تنزع من تحت أقدامهم الحريّة: «إنّ وطنهم ليس في أرض أوّلاً، [والأوّلاً مهمّة هنا]، بل في مناخ حريّة» (ص١٤)، إنّه آتٍ من «حركة روحيّة نسكيّة، غير مرتطبة أصلاً بأرض أو بعرق ولا بقوميّة ولا بلغة» (٢٧). إنّ المارونيّة عيش في أثر المسيح الذي صلب خارج أسوار المدينة (راجع، ص٣٢). وإذا أردتُ أن أكون أكثر راديكاليّة في الاسترسال بهذه الفكرة، أحيلكم إلى موقف المطران موراني الذي ذهب أبعد من تأرجح حايك، حين قال في واشنطن سنة ١٩٨٠: «القضيّة الجوهريّة ليست في أن تبقى للمارونيّة أرض أو لا تبقى، بل في أن تبقى المارونيّة أرضًا، أي قاعدة ثابتة من جهة ومنطلقًا فعّالاً من جهة أخرى» (الوجدان التاريخيّ الماروني، ١٩٨١، ص٧٠).

- **اللاء الثانية:** لا للعجز، بالانقياد إلى مفاهيم جامدة كـ«المارونيّة السياسيّة» التي هي نقيض الأصل أي «المارونيّة الروحيّة» (٣٤)، فالمارونيّة كما قال سليم اللوزي لا تخاطب إلاّ بلغة الرسالة، لأنّها علّة وجود الماورنيّة (٨٤) وتجسيدًا لحركيّتها بين الأصالة والتجديد. فالموارنة فقهوا وجودهم مشروعًا قيد الإنجاز باستمرار (وهذا شرط أساس في النسك وهو التجدّد المستمرّ)، إذ ارتضوا وجودهم كما يرى حايك «وثيقة حيّة» (١٥) تأبى التصنيم، حتّى لا تتناقض وخيارهم الذي أخذوه عن مارون الناسك الذي اختار أن «يتشفّع للعالم، لا أن يملك أشياء هذه الدنيا، بل أن يتمالك عن كلّ أشيائها [...] هذا الموقف الماروني الأوّل. وقد ظلّ هذا النموذج الرهبانيّ عالقًا طويلاً بالمارونيّة، ينعكس على تاريخها وذهنيّتها ونوع تفكيرها ومسلكها الاجتماعيّ وكلّ منشآتها الزمنيّة» (٣٠). يمكننا القول إنّ حضارتهم تنبعث في روح الدير عندهم. ويذهب حايك في شكل راديكاليّ أيضًا إلى أنّ وجودهم في الجبل كان علامة هذا الخيار الرساليّ عندما يقول: «نزلوا عهد الانتداب إلى الساحل، شعروا بحدس عميق، بأنّ هذا النزول هو انحطاط، وأنّهم سيفقدون النموذج، ويضيّعون الأصالة» (٣٢). وتاريخهم صنعوه من دون أن يحتكروه أو يجعلوا منه ماركة مسجّلة. فهم على رغم أنّهم «ولدوا على جبل [...] سيظلّون أبدًا أبناء جبال أو أبناء وديان» (١٩)، ليظلّوا خاضعين لرساليّتهم التي هي صنو «إقدامهم»، يقول: «نزلوا إلى الساحل، يتسلّقون جبالاً أخرى، يمدّون يدهم إلى الدروز والسنّة والشيعة من المسلمين، إلى سائر الطوائف، في سبيل تجسيد تلك الفكرة البدعة، وإقامة ذلك الوطن الفريد» (٢٣). والواضح لديه أنّ الجذريّة المارونيّة تخالف المارونيّة السياسيّة ورواسبها (٢٧) التي حوّلت الوطن المارونيّ من «مساحة روحيّة، وحيث تكون الروح هناك الحريّة» (ص١٣) إلى مجرّد أرض ولعبة سياسيّة.

- **اللاء الثالثة:** لا للتسطّح أي العيش في أفق محصور خانق وفي توجّهات لا مستقبل لها، بل العبور في الواقع إلى ما هو أبعد من الواقع، حتّى يبدو الواقع لحظة في مسار تحقّق الروح المارونيّ. وهو عبور لا يتمّ، في نظر حايك، من دون استنهاض روحيّ يمليه واقع يطرح على المارونيّة مسألة وجودها: «اليوم، أكثر من خمسة عشر قرنًا، المارونيّة تطرح كمسألة وجود. تكون أو لا تكون!» (٣٨). ومصيرها مرتبط بمقدار وعيها لشموليّتها لا البقاء في ارتهانها لمكتسباتها وضماناتها، ذلك بأن يحسن الموارنة البقاء على وفائهم «لذاتهم وللأرض» (٤٢). إنّ خلاصهم رهن بهذه الأمانة التي هي صليبهم في آن، كما يقول (٨٢)، لأنّ التاريخ كشف أنّهم قد خسروا رهانهم على «لبنان الحديث [...] صنيعة [...] التوافق» (٤٢) على التعدّد، فهل يعون كيف يظلّون «هم هم لا غيرهم» (٤٨)؟ فلبنان الذي هو «المحور الذي يدور حوله المصير المارونيّ» (٤٩)، هو على شفير الزوال. برز هذا الموقف في المحاضرة الثالثة بعنوان: «مارونيّة الأرض والروح»، حيث يقول صراحة: «اليوم يختبرون (الموارنة) الموت، وفي ذلك دليل لكلّ واحد على أيّة ميتة سيموت بها [الشرق] بدوره [...] أترى أتت أخيرًا ساعة موت الموارنة؟» (٥٠-٥١). والمخرج الوحيد الذي يراه حايك هو في فكّ الارتباط الذي أدّى إلى تسطّح المارونيّة روحيًّا بالمعنى الفلسفيّ والدينيّ للكلمة. فلعلّ العودة إلى روح المارونيّة تكون المخرج

« لا ضمانات سياسيّة للموارنة، فهم يوم ربطوا مصيرهم بالضمانات ضاعت المارونيّة. لا امتيازات لنا، إلاّ بما نتميّز به من مبرّرات في تجميل الأرض والفكر والروح».

الذي يعتق الموارنة ويطهّرهم من رجس السياسة المارونيّة. بلغة أفصح لا ضمانات سياسيّة للموارنة، فهم يوم ربطوا مصيرهم بالضمانات ضاعت المارونيّة (٨٤)، إذ «لا امتيازات لنا، كما يكتب، إلاّ بما نتميّز به من مبرّرات في تجميل الأرض والفكر والروح» (٨٥). بالإمكان العودة إلى الصفحات ٥٤-٥٧، حيث يتكلّم على إعادة اكتشاف قيمة العراء، وهم قد خبروه مع بداية الحرب في لبنان ولا زالوا يلمسونه اليوم في أزمة الرئاسة التي، كما أرى، هي تعرية للموارنة من اللهاث وراء الضمانات. يقول: «بسبب هذا التعرّي قد يشعرون الآن أنّهم أخفّ ثقلاً [...] ممّا مضى، في السعي إلى تسلّق جبال لبنان من جديد [...] حتّى يستنشق الهواء النقيّ» (٥٥). إنّهم بحكم تاريخهم على موعد مستمرّ مع الترك ليولد تاريخ جديد من رحم الحريّة التي من أجلها تربّوا على روح التخلّي تاريخيًّا كما يقول حايك: «هم دومًا [...] على استعداد للتخلّي عن فرنسا وعن العرب وعن مجتمعهم نفسه، عن بطريركهم وعن رهبانهم وحتّى عن إيمانهم بالله وبالمسيح، إذا قَسَت هذه الحريّة، التي هي عندهم أساس الإيمان، ركن المجتمع، سبب الالتزام بالغرب، وهي حلمهم للعرب (...)» (٧٢). والترك حتّى ولو أتى من هزيمة لا يخيف حايك البتّة: «فإذا أخفق الموارنة أو نجحوا، يقول، ففي إخفاقهم كما في نجاحهم معان وأبعاد أوسع من إطار طائفتهم ومن حدود تخوّفهم الضيّق» (٥٢).

في كلامه واقعيّة خالصة مقرونة برجاء كبير، فالمارونيّة تختبر الموت لا لتبقى فريسته بل للتطهّر وتعتق من الاستسلام الهانئ، وتعود إلى القلق المبدع، لتعود من التكتكيك إلى الأصل (راجع، ١٠٣). وهذه العودة لا بدّ من أن تكون ثورة على الرواسب، كما جاء في الفصل الأخير من نصوص الكتاب، ولا ثورة من دون تمرّد على الحاضر أي الحاضر الماورنيّ، باستلهام لثورة المسيح المتمرّد على الحاضر والماضي والمستقبلات (١١٥)، ذلك أنّ، كما يقول: «الحقيقة لا يمكن أن تكون استقرارًا بل استنفار، لا تقليدًا بل تجديد مستمرّ وإبداعٌ إلى ما لانهاية (...) فالمسيحيّة الحقيقيّة لا يمكن أن ترضى بوضع ونظام، مهما كان الوضع، ومهما كان النظام؛ أو تقنع بعرض أو أن تطمئنّ لحاضر، مهما كان هذا الحاضر (...) ولنفترض افتراضًا، يوم تبطل كلّ الثورات، إذا افترضنا، فهل ينعم الناس بكلّ ما تشتهي نفوسهم من مأكل ومشرب وحريّة ومعرفة. يوم يحطاطون لنفسهم بكلّ الضمانات، تبقى المسيحيّة خميرة للقلق وتوقًا إلى ما سيجيء، إلى من سيجيء (...)» (١١٧). ومرامي هذه الثورة تبدأ بالذات، «في هذا الانقلاب الروحيّ، من الظاهر إلى الأعماق لانتزاع الذات من حالة الاغتصاب، وتسليمها إلى الروح المجدّد وجه الأرض، المغيّر وجه الإنسان» (١٢١).

بهذه اللاءات الثلاث تُفهم مارونيّة ميشال حايك ثورةً وحريّة، شرط أن تستعيد المارونيّة ذاتها من الشتّات الذي أنهكها، يوم تركت الجهاد الروحيّ ولهثت وراء الضمانات، فلا هي نفسها بعد ولا ما صَوَّرَتهُ من رحم هويّتها يتطابق وروح الحريّة التي أُعتِقت بواسطته من أسر التاريخ. فهل يكتب للمارونيّة أن تخرج من جديد معافاة إلى نهار التاريخ ؟ سؤال ليس برسم المارونيّة بل برسم الموارنة إذا ما أصابهم سهم الروح المارونيّ من جديد وخفق به تاريخهم، وإلاّ كتبوا لذواتهم ورقة نعيهم.

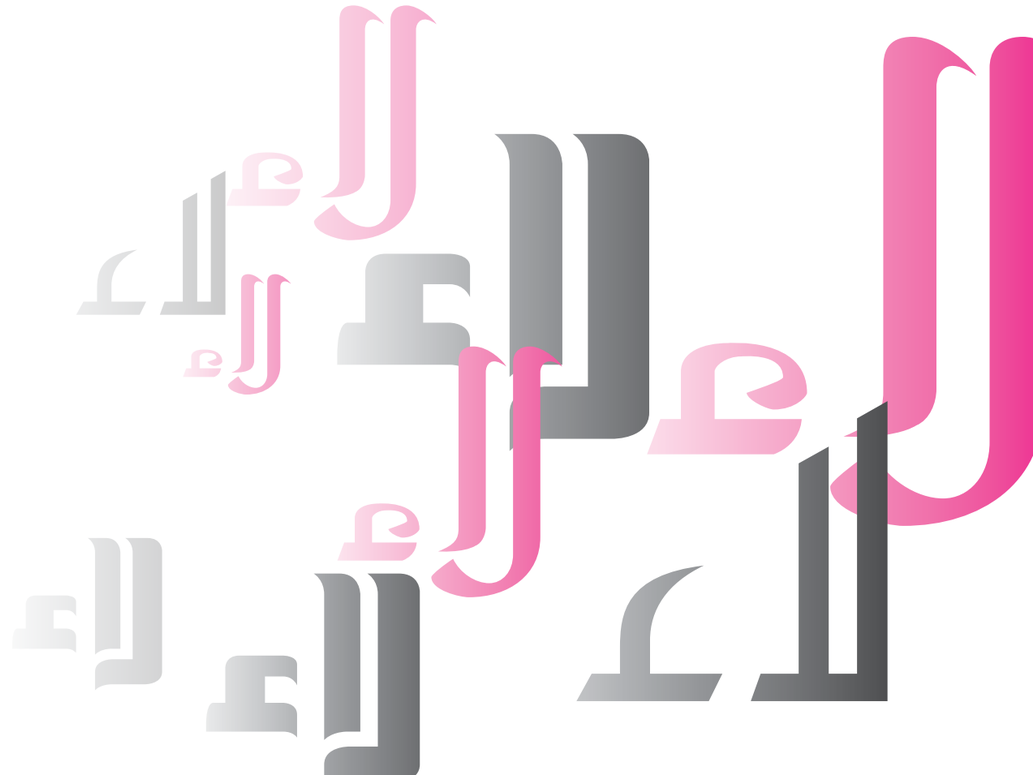

من أفلاطون إلى القدّيس أغوسطينوس كما في البدء وإلى قيام الدهر: مدينة الله أم مدينة الأرض؟

د. أنطوان يوسف صفير

أنطوان يوسف صفير

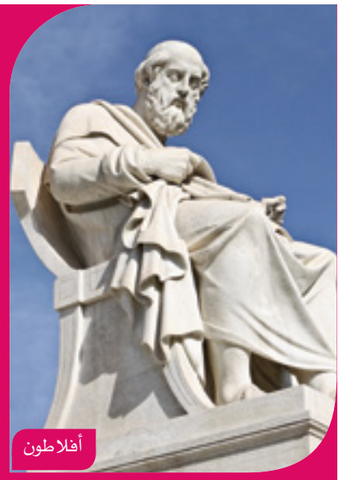

أفلاطون

.... وجاء سقراط ولمع نجمه في سماء اليونان القديمة. أنزل الفلسفة من علياء فضاء النظريّات إلى أرض البشر، إلى داخل قلب المدينة. ثمّ ترك لتلميذه أفلاطون أن يصوغ بفكره نموذج المدينة الفاضلة ويرسي مفاهيم مرتكزاتها النظريّة. ودار الزمن واحدة من دوراته، وجاءت المسيحيّة تقدّم النقيض عبر مفهوم نموذجها الخاصّ: مدينة الله.

في بلاد اليونان نشأ الفكر السياسيّ وترعرع. رائد هذا الفكر في أعلى مرتبة سيكون أيضًا أحد أكبر المفكّرين، إن لم يكن أعظمهم، عنيتُ به أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م.).

أفلاطون هذا جسَّد بأبهى صور الكمال العبقريّة الهلّينيّة. اسمه اشتقاق من لفظة Platos أي عريض، لكتفيه العريضتين. عاش فتوّته رياضيًّا يهوى ألعاب القوى، واشتُهر بقيادة عربات الخيل والسباق، كما بهواية اتقان فنّ الديالكتيك أو فنّ المجادلة. مناسبة لقائه بسقراط كانت الحدث الأبرز الذي قرّر مسار حياته.

المبدأ المنطلق الأوّل في الأشياء والكون

فلاسفة اليونان ما قبل سقراط كان شغلهم الشاغل سبر الأغوار والبحث والتحرّي

عن مبدأ أصل الأشياء أو المادّة الأولى المكوِّنة للكون، ويُشارُ إليها في اليونانيّة بكلمة Archê. هكذا جرى مع طاليس Thalés (٦٢٥ - ٥٥٤ ق.م.) تلك المادّة الأولى هي الماء. أمّا الفيلسوف Anaximandre فكان يقول إنّ المبدأ الأوّل للكون هو L'apeiron أو اللانهائيّ واللامحدود.

في أعقاب هذه الحقبة من النظريّات الكوسموغونيّة أو النظريّات العلميّة الطبيعيّة ذات المنحى الميتولوجيّ يبرز إلى الوجود اسم فيتاغوروس Phythagore (٨٥٠ - ٥٠٠ ق.م.) ومبدأ العدد؛ إذ هو يُرجع أصل الكون إلى العدد. مع فيتاغوروس تبطل الفلسفة أن تكون محصورةً فقط في البحث عن طبيعة الأشياء، أي أن تكون علمًا وحسب، لتصبح قبل أيّ شيء آخر عمليّة تفكير في واقع النفس أو الروح المغلق عليها في مدفن الجسد Sâma؛ فتغدو الفلسفة هنا عمليّة تفكير وتفكُّر، ثمّ تأمّل في الموت على أنّه السبيل والطريق للخلاص. بهذا المعنى كان بأنّ فيتاغوروس هو السابق لسقراط، وهو مَن وضع الأساس لمدرسة فلسفيّة عُرفت بالنظام الفيتاغوريّ أو L'ordre phythagorique.

ويأتي Heraclite d'Ephèse (٥٤٤ - ٤٨٣ ق.م.) الذي غلب على خطابه المنحى التنبّؤيّ، ولقبُه الغامض L'abscur. فهو يرى أصل العالم L'archê في ما أسماه «**النار الدائمة التوهُّج**» المبدأ المستدام، المولّد للكون والمُدمِّر له في آن. وفي هذا يُعتبر هيرا كليت مفكّر الصيرورة Le devenir والتبدّل: «**كلّ شيء إلى تلاشٍ Panta rhei**». وهو يرى في الخلاف والجدال أصل الأشياء كلّها، والتقاطع بين شبكة المتعاكسات يجعل لكلّ منها استقلاليّته الذاتيّة. وكذلك المتناقضات يتلقّفها العقل الجامع Logos الذي على الإنسان أن يخضع له ويأتمر بأمره، فيفهم الكون على أنّه وِحدة «انسجام **بين توتّرات مشدودةٍ تارةً ومتراخية تارةً أخرى، تمامًا كما تكون أوتار القوس**».

اللوغوس Le Logos في قلب المدينة

سقراط

يأتي سقراط – وهنا يكمن سرّ الثورة السقراطيّة– فيُنزل الفلسفة إلى قلب المدينة، مدينة البشر، وكأنّ لسان حاله يقول: ماذا تنفع التنظيرات الكوسموغونيّة والميتافيزيقيّة؟ وماذا يُستفادُ من علوم الطبيعة، إذا كان الإنسان يعيش في جهل ما هو حقٌّ وخيرٌ وجمال؟ وماذا ينفع الجدال حول مبدأ الأشياء والكون، إذا كان الإنسان في منأى عن الفضيلة، أي معرفة ما هو حقٌّ وخيرٌ وجمال؟ وهل يحقٌّ للإنسان أن يظلّ نظرهُ عالقًا في السماء والفوقيّات بحثًا عن القوانين والنواميس التي تحكم مسار الكواكب وحركاتها، في وقتٍ تتمزّق فيه المدينة حوله وتتدمّر وتتهافت وتنهار، بفعل الخلافات والانقسامات والعداوة والبغض والكراهية؟ وهل يليق بالمفكّر أن يتغاضى عن هذه الشروط والأخطاء المشينة، ويُسلّم المدينة إلى السفلة والمجرمين، ويُقفل على ذاته في صومعة التفكير والتأمّل والوحدة والغربة؟ وهل يمكن له أن يشيح بنظره عن شؤون الأرض L'agora، ما دام أنّ الإنسان ذئبٌ للإنسان؟ وهكذا بعناءٍ أو قُل بصرامة ما بعدها صرامة أدّت به إلى الموت، راح سقراط يجهد لإدخال العقل Le Logos في تعاطي شؤون المدينة Polis، هذه المدينة التي حَلم بها حتّى الشغف، والتي تمنّى أن تسود فيها وتشعَّ أنوار الفضيلة، أي أنوار المعرفة، معرفة الخير.

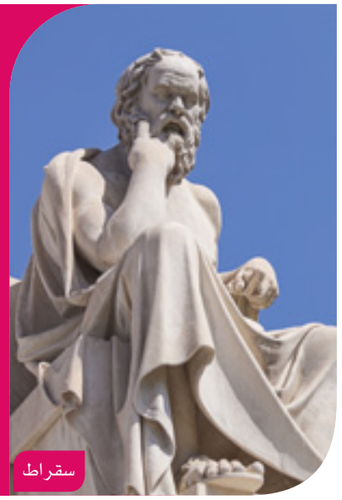

سبق وألمحنا إلى أفلاطون كأعظم تلميذ لسقراط وأكثرهم شهرة. فهو الداعية والممثِّل الأوّل للفكر السياسيّ الإغريقيّ. وبالفعل، فالمكتسبات السقراطيّة، وبخاصّة مفهوم الخير وتوسُّل العقل للوصول إليه، عمل سقراط على إدراجها وتأطيرها في آليّة نظام عقلانيّ أرحب وأوسع هو الميتافيزيقيا، أو علوم ما بعد وما فوق الطبيعة، وبتعبير آخر في هيكليّة نظام متماسك غير جامد ولا مجمِّد للمبادئ والمرتكزات الأصليّة لكينونة الكائن البشريّ، كما لحال المعرفة. وكلّ هذا يحدث في مستوى اللوغوس Logos. ثمّ بعد الميتافيزيقيا تأتي السياسة، سياسة المدينة Politique، أي نظام سياسة متماسك مشفوع بتعاطي مسلكٍ غير متحجّر للمبادئ الأساسيّة الآيلة إلى حسن تنظيم وإدارة وحكم مدينة البشر La Cité des homes. كلّ ذلك يكون على المستوى العملانيّ praxis. والعنصران هذان متلازمان متّصلان ومتكاملان.

نحو واقع عقلانيّ

وفي الواقع، فإنّ أفلاطون هو وريث الفكر السقراطيّ والفكر اليونانيّ أيضًا السابق لسقراط. مع أفلاطون بلغت الفلسفة سنّ الرشد وقمّة النضوج. بنتيجة ذلك، إزاء هذا الفكر يضجّ بقوّة التحليل والتمحيص والموالفة، وفي هذه اللحظة الفريدة من تاريخ الفكر البشريّ، لا نعجبنَّ كيف تأتّى لهذا الفكر أن يضبط بنى المجتمع الواقعيّة على إيقاع بنى الفكر العقليّة. في هذا الحيّز يكمن سرّ الجدليّة أو الديالكتيك الأفلاطونيّة. ويبقى السؤال: هل من الممكن تنظيم مدينة البشر على أسس معطيّات «اللوغوس» أي العقل؟.. وهل بمقدورنا مطابقة واقع الجسم الإجتماعيّ المتحدّر من تراكمات أخطاء التاريخ وانحرافاته مع مثاليّة الجسم العقديّ المنبثق من أبحاث الفلسفة؟ مثل هذا الإهتمام، بل الهمّ المقيم، عبَّرَ عنه أفلاطون في رسالته السابقة بقوله: «لقد انتهيت بتوجيه أنظاري صوب هذه الأمور، وأدركتُ أنّ كلّ شيء مآله الدّمار- يشيرُ بذلك إلى الظلم السائد في أثينا، لاسيّما في دعوى سقراط وقد حُكم عليه بالموت بحجّة أنّه كافر-».

«**وأنا، يتابع أفلاطون بتُّ عاجزًا عن التخلّي عن تفحّص الوسائل والسبل التي بفضلها تصطلح الأمور إن بالنسبة للظروف المذكورة، أو في ما خصّ النظام السياسيّ بشكلٍ عامّ**». وها هو في حوار كتابه المشهور «**الجمهوريّة**» يُرسي أُسس مدينته الفاضلة، ويبدأ بتركيز دعائم مجتمع تكون مكوّنات نظامه تستجيبُ لفرائض العقل، أي في خلاصة البحث تأتمر بأوامر الخير والحقّ. وحتّى يستتبَّ واقع هذا التطابق بين العقل المتفكّر والواقع الإجتماعيّ، الأمر الذي سيبقى إلى أجيال هاجس نوستالجيا الفلاسفة العقلانيّن، سيظلّ مفهوم الدولة عند أفلاطون انعكاسًا لنظريّة النفس لديه. والعقل والنفسُ في نظريّة أفلاطون ثلاثة أقسام: «**الأبيتوميا Epithumia، أو نزعة الرغبات الجنسيّة Concupiscence التي تندرج في مستوى الشهيّات الجسديّة، والمبدأ فيها: الشهوة. أمّا القسم الثاني فهو الطاقة Thumos، أي ديناميّة الإرادة في مفهوم اليوم، والمبدأ فيها الرغبة. يبقى القسم الثالث النفس Nous ومبدأها الأوّل العقل**». طبقات النفس الثلاث هذه يقابلها مثل هذا التعبير الأسطوريّ، فيقول: «أنتم الذين جميعًا خرجتم من المدينة هاكم ما نعلنه ونصرّح به»: «مفهومٌ أنّكم بعد اليوم إخوة ولكنّ الله الذي فطركم، فأفرد من بينكم مَن هم خليقون بالقيادة، مزج الذهب في مادّة تكوينهم، ممّا يفسّر كونهم في المرتبةِ الأشرف، وألقى الفضّة عند مَن هم في مرتبة المعاونين، وأنزل الحديد والنحاس عند الذين أُعدّوا ليكونوا مزارعين، تجّارًا أو عمّالاً فعلة».

مثل هذا المجتمع، حيث يتماهى ويختلط مبدأ العقل مع مبدأ السلطة، وحيث صرامة التراتبيّة ودقّتها تعكسان درجات المعرفة توصّلاً إلى الخير، المبدأ الأسمى.. مثل هذا المجتمع يبدو في نظر بعض المفكّرين والفلاسفة المثال والنموذج الخاصّ للدول والأنظمة التوتاليتاريّة.

الدولة والعدالة

لكنّ أفلاطون في كتابه «**الجمهوريّة**» يرى عكس ما رآه هؤلاء الفلاسفة والمفكّرون. فهو يُرسي مفهوم المدينة الفضلى على أساس العدالة، بل هو يرى المدينة الفاضلة تجسيدًا لمفهوم العدالة. فبالاستناد إلى نظريّة النفس عنده، يُعلن أفلاطون أنّ الإنسان يكون عادلاً عندما طاقة الإرادة عنده، أي Thumos، بقيادة وتوجيه العقل Nous، تكبح جماح نزوات الغريزة الجنسيّة Epithumia. وبتعبير آخر إنّ الإرادة، بخضوعها للعقل، تُسيطر على قوى الغريزة بهدف الوصول أو استمرار البقاء على طريق الخير. فالعدالة على مستوى الفرد قائمة على الموالفة والإنسجام بين هذه الأقسام الثلاثة المكوّنة للنفس، وبين قيام كلّ قسم منها بوظيفته الخاصّة المحدّدة. يبقى أنّه، سندًا إلى هذا التطابق بين الفكر النظريّ وبين حقيقة الواقع الإجتماعيّ الذي يشكّل عند أفلاطون المثال الفلسفيّ الأعلى، وبشكل أدقّ المثال السياسيّ الأعلى، فإنّ الدولة، وهي بمثابة فرد أكبر وأوسع، تكون عادلة تمامًا كما يكون الإنسان عادلاً. وبالتالي، فالعدالة في الدولة «**تتحقّق بكون أنّ كلّ طبقة من طبقات المجتمع تؤدّي المهمّة الخاصّة بها**».

إلى هنا مع أفلاطون والفلاسفة... ولكنّ مفهومًا آخر للعدالة مختلفًا، سوف يطرحه وينادي به بصراحة الفكر المسيحيّ مع القدّيس أغوسطينوس (٣٥٤ – ٤٣٠) ويناقض تمامًا المفاهيم الوثنيّة، وبنوع أخصّ النظريّة الأفلاطونيّة. هذا الفكر السياسيّ الجديد سيُعلن عنه في الكتاب النفيس لأغوسطينوس أسقف Hippone، المدينة القديمة من مقاطعة Numidie أو ما يُعرَف باسم L'hippo Regius الرومانيّة، وفيها إلى اليوم قبر القدّيس أغوسطينوس، وهذا هو الاسم القديم لأفريقيا الشماليّة بين مراكش وتونس، وهي مكوّنة من مجموعة ممالك صغيرة تابعة لروما، وقد ألحقها الرومان بأمبراطوريّتهم في سنة ٢٤ بعد المسيح.

كتاب أغوسطينوس هذا حمل عنوان «**Civitate Dei De**» أي «مدينة الله». كتاب «مدينة الله» صُمّم في الأصل كمؤلّف يجمع كتابات ظرفيّة. ففي الزمن الذي كانت فيه الإمبراطوريّة الرومانيّة وريثة الحضارة اليونانيّة آخذة في التفكّك والإنهيار تحت وطأة توالي اجتياحات وضربات الحجافل الجرمانيّة، في الزمن ذاك دأبَ الوثنيّون على اتّهام المسيحيّين بالتسبّب في خراب روما وسقوطها، وبأنّهم استجلبوا غضب آلهة الوثنيّين القدماء المرذولين من الديانة الجديدة، (المسيحيّة). ضدّ هذه الردّة الوثنيّة وتهمة الضلال، انبرى القدّيس أغوسطينوس مدافعًا جريئًا لا يلتوي له ساعد، ولا يجبن له فكر. وأمينًا لقضيّته، ومدفوعًا بلهيب إيمانه وقوّة شكيمته في النقد والنقاش، راح في طروحاته الفكريّة يتخطّى حدود إطار زمنه، ويكتب مسار تاريخ البشريّة العامّ، ومنه يستخلص المعنى الأسكاتولوجيّ والفايق الطبيعة لمفهوم التاريخ.

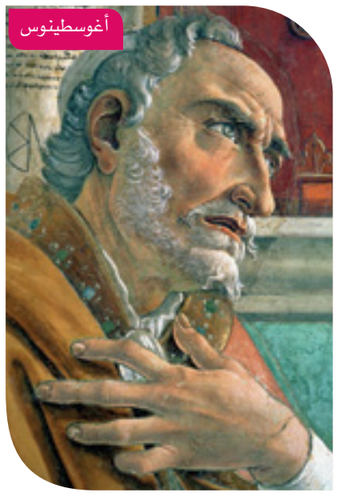

في كلّ هذا، يكون أغوسطينوس أوّل من وضع أسس ومرتكزات ما سيُسمّى لاحقًا «**فلسفة التاريخ**». ينظر القدّيس أغوسطينوس إلى تاريخ العالم، أي تاريخ البشريّة، بأنّه مسيرة صراع مستدام بين مملكتين مختلفتين ومتناقضتين: مملكة الروح والفضيلة ومحبّة الله، ومملكة الأرض والشهوات والعداء لله. وهذه الثانية هي مملكة الشيطان Civitas diaboli أو civitas terrana، بينما الأولى هي مملكة الله civitas Dei، وقد

« تدول دول وتَفنى شعوب وتتوالى عقائد وأديان، ويبقى السؤال الكبير يؤرق نفوس البشر: لمن الغلبة تكون ؟ وأيّ خياريكون الخيار: مدينة الله أم مدينة الأرض ؟».

أغوسطينوس

تجلّت وتمظهرت، برأي أغوسطينوس، في تجسّدها الأرضيّ في الكنيسة الرومانيّة. ويبقى بالتالي أنّ العناية الإلهيّة هي التي تتولّى حكم مسار مجريات وإحداثيّات هذا الصراع منذ بدايات العالم. وفي واقع الأمر، لا شيء ينفرد مستقلاً خارجًا عن الحكم الإلهيّ. يقول أغوسطنيوس: «**الله يسهر ليس فقط على ما في السماء وعلى الأرض وعلى الملائكة والبشر، بل أيضًا على أصغر وأحقر الحشرات، على ريشة العصفور، على زهرة الحقل وورقة الشجر؛ حيث أنّه يعتني بهذه الأشياء كلّها فيعطيها ما يناسبها من الإنسجام والسلام. ومن المستحيل الإعتقاد بأنّ الله قد سمح بأن تبقى ممالك الأرض مع حكومتها خارج ما خطّهُ التصميم الإلهيّ من سنن وقوانين**».

أمّا اتجاه المسيحيّين مِمَّن صُعِقوا وتزعزع إيمانهم بفعل شراسة اتهامات الوثنيّين واضطهادهم لهم، لاسيّما في استفحال ضراوة هذه الإضطهادات في أعقاب سقوط روما في يد الـ wisigoths سنة ٤١٠، فإنّ إغوسطينوس هبّ يبيّن لهم بالحجّة أنّ عظمة الرومان لم تُعطَ لهم من لدن آلهتهم الكذبة، بل جاءت نتيجة طموح أهل روما إلى المجد وبوحيٍ من حبّهم للعظمة، وقد نالهم من فضائل الأرض ومجد العالم ما لم ينعم به إلاّ قلّة منَ الشعوب، ولقد فاتهم نوال السماء وجزاؤها.

العناية الإلهيّة ومصير البشر

إنّ من الناس من يختزلون آمالهم وطموحاتهم في مسائل الدنيا في حدود ما توفّره لهم مدينة الشيطان، هؤلاء يقول أغوسطينوس، من لا يستطيعون أن ينتظروا سوى بعض المسرّات والأفراح الدينويّة، وهذه كلّها إلى زوال؛ وهي مهما عَظُمت تبقى في حدود الزمن، وإنّ حلول موعد سقوط إمبراطوريّات هذا العالم وانهيارها يعود إلى عمل العناية الرّبانيّة وما ترسمه من مخطّطات وتدابير إلهيّة.

أمّا في موضوع مدينة الله civitas Dei، فإنّ الإنسان، وخلال مسيرة رحلته على الأرض، يأتي عمل العناية الإلهيّة ويتدخّل ليحمي هذه المسيرة ويُحصّنها ويَحميها فيقيها هجمات مدينة الشيطان وما تمثّله.

وإذا كانت مدينة الله تنعم بالسلام الذي لا تصلُ إليه ويلات هذا العالم، فلأنّ مدينة الله قائمة أساساتها على مفهوم العدالة الإنجيليّة. هذا، والعدالةُ بحسب طروحات أفلاطون تبقى مفهومًا غامضًا مبهمًا يحجر على الإنسان في عموميّات ما يعود للدولة من حقوق، الأمر الذي يجعل من الإنسان مجرّد قطعة آليّة متحرّكة وسط مجموعة من القطع أكبر في جسم «**الماكينة الاجتماعيّة**»، ويُغلِق على الإنسان منافذ مداه الروحانيّ؛ بينما العدالة التي نادى بها أغوسطينوس فمستقرُّها في عالم آخر مختلف تمامًا. العدالة هذه أصلها ومنبعها دينيّ روحانيّ.. إنّها عدالة الله، ومن لدن الله هي هبةٌ وعطاءٌ مجّانيّ شخصيّ.. إنّها أكثر من فضيلة، إنّها نعمة.

مثل هذا المحتوى الدينيّ توارثته المسيحيّة، وعملت عبر الأجيال على التعمّق فيه، واستيعاب كنوزه الفلسفيّة والروحيّة، وتثميرها في خدمة الإنسان أيّ إنسان، على نقيض ما فعلته اليهوديّة، إذ بعد أن ربطت مفهوم العدالة بالدين، حصرت التعاطي العمليّ مع العدالة في حيّز تطبيق أوامر الشريعة اليهوديّة بحذافيرها تطبيقًا حرفيًّا بما هو شرط لسعادة الفرد كما وسعادة المجموعة الإسرائيليّة. مع تعاليم القدّيس بولس ارتقت العدالة إلى مرتبة عُليا، وسمت فوق كلّ المقوّمات والإمتيازات الاجتماعيّة والوطنيّة : وهذا ما نستدلّه من رسالته إلى أهل فيلبّوس، كما في رسالته إلى أهل كولوسيوس.

خلاصة الكلام.. إنّ جميع البشر مدعوّون إلى اقتبال عطيّة التبرير والعدالة، تلك التي تمّت بشخص المسيح، ولكن في دائرة مفهوم هويّة الإنسان الجديد الذي يقيم لنفسه مع الله علاقات شخصيّة تتخطّى القوانين البشريّة والامتيازات الاجتماعيّة. فالإنسان الصالح العادل هو الذي يخاف الله، وجزاؤه لا ينتظره هنا على الأرض في كنف مدينة مثاليّة فاضلة، بل في موهبة النعمة، في رحاب ملكوت الله. ولقد توسّع القدّيس أغوسطينوس في بيان لاهوتيّة العدالة الآتية من الإيمان، تلك العدالة التي هي علامة افتداء وازدهار للنعمة وسبب خلاصٍ للبشر.

ويبقى فضل أسقف Hippone القدّيس أغوسطينوس أنّه، ولأوّل مرّة في التاريخ، هو من أدخل مفهوم العدالة في مسار التاريخ البشريّ العامّ، وأنّ ما عُرف بالأغوسطينيّة السياسيّة، وهي المدرسة التي توسّعت في دراسة ونشر أفكار نظريّة كتاب Civitas Dei للقدّيس أغوسطينوس، وإن مع شيء من المبالغة والغلوّ، هذه الأغوسطينيّة، قلت، في طروحاتها الفذّة، كان لها الأثر والتأثير البالغان في القرون الوسطى، في الوقت الذي فيه أيضًا، حافظت أفكار أفلاطون على حيويّتها وديناميّتها. وعلى العموم، سيبقى لهذين المحوّرين الفكريّين وصاحبيهما أفلاطون وأغوسطينوس الدور الأوّل والأبرز في تحديد مسار الأنظمة السياسيّة في الغرب، على خلفيّة ما بينهما من تعاكس وتعارض. وهذه سمةٌ دامغةٌ بقيت عبر التاريخ لتدلّ في أكثر من منعطف إيدولوجيّ على صفة التكامل لا الإلغاء المتبادَل بين متناقضين متعاكسين. إنّها بواكير «**الديالكتيّات**» Dialectiques في العلوم الفلسفيّة والسياسيّة. والفضل كلُّ الفضل في ذلك يعود بالطبع إلى أفلاطون وأغوسطينوس.

وفي كلّ حال وزمن، وأيًّا يكن المصير، تدول دول وتَفنى شعوب وتتوالى عقائد وأديان، ويبقى السؤال الكبير يؤرق نفوس البشر: لمن الغلبة تكون؟ وأيّ خيار يكون الخيار: مدينة الله أم مدينة الأرض؟

محطّاتٌ إيمانيّة

د. ضومط ع. سلامه

ضومط ع. سلامه

تستوقفني نقاطُ بحثٍ يتداولها في هذه الأيّام مفكّرون ملتزمون – لا متزمّتون – دينيًّا، أودّ أن ألفت النظر إلى ثلاثٍ منها:

النقطة الأولى

توظيف الفلسفة في تبسيط وتوضيح الأمور اللاهوتيّة والروحانيّة. هذا الأسلوب متبّع في التراث الكنسيّ الأصيل الذي بدأه القدّيس أغسطينوس، وتبعه فيه مشاهير من آباء الكنيسة مثل القدّيس أنسالم، والقدّيس توما الأكويني، ومؤخّرًا البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني، خاصّة في رسالته عن العقل والايمان حيث قال: «إنّ العقل والايمان جناحان للنفس تتسامى بهما توقًا إلى معاينة الحقّ الذي هو الله بالذات».

هذا لا يعني أنّ الفلسفةَ شرطٌ ضروريّ لفهم رسالة المسيح؛ فالرسلُ بأكثريّتهم كانوا من بسطاء الناس؛ والمسيح أعطى الطوبى للبسطاء بالروح. لكنْ مَن كان مشبعًا بالفلسفة، واختارها مسارًا لحياته، ولا يرى شيئًا في الحياة إلاّ من خلالها، كأنّي بهؤلاء المفكّرين الملتزمين الذين يتّبعون هذا المنهج في معالجة مسائل إيمانيّة يقولون له: «كي لا تصطدمَ بمواجهةِ الفراغ والعدميّة، وعبثيّة المنطق البشريّ المنغلق على ذاته، ألمسيحُ بانتظارك؛ فهو الشعلةُ التي لا نورَ دونها، وهو الـ logos التي بدونها لا يمكن لفلسفةٍ أن تقوم، ولا لفكرٍ أن يعطيَ ثمرًا؛ فهو، بكلّ بساطةٍ، الطريق والحقّ والحياة... وهو بانتظارك.... والخيار لك.

النقطة الثانية «مراجعة المسلّمات والمسبقات وإعادة النظر فيها...»

إنّي أرى في هذه صراحةً وجرأةً فصحيّة عند كلّ مفكّر ومطّلع على مسار الحياة الكنسيّة، من إيمانيّة وليتورجيّة، ويقرّر أن يشارك في حمل هكذا مهمّة لا تخلو من صعوبات شائكة. تُعيدني هذه القضيّة بالذاكرة إلى قول السيّد المسيح- وترددًا- في إنجيل متّى ضمن عِظة الجبل: «لقد قيل لكم كذا...، أمّا أنا فأقول لكم...». وأرى بأنّ المعالجة تأخذ بالإجمال منحيينِ متمايزينِ، لكن متكاملينِ:

المنحى الأوّل هو دراسة النصوص الأصليّة، وخاصّة في الكتاب المقدّس، بمنظار إنسان اليوم، والإنسان الشرقيّ بالتحديد. فهذا ما قامت، وما زالت تقوم به، المؤسّسات الكنسيّة على مدى الزمن حتّى أيّامنا هذه، وإن لم يكن الإنتاج دائمًا على مستوى الرجاء.

والمنحى الثاني، توقُ المؤمنين لأن تُوضَعَ الشروحات والتفسيرات العصريّة قيد التنفيذ، إنْ على المستوى الفرديّ، أو على المستوى المؤسّساتيّ الكنسيّ... ففي الواقع، كلّنا المكرَّسون للمسيح، من علمانيّين وإكليروس، مِنْ حقّنا، لا بل بالجريّ من واجبنا أن نحملَ همّ الكنيسة. من هذا المنظار، لا يسعنا نحن بعض العلمانيّين، إلاّ أنْ نلاحظَ أن أغلب النصوص التي حصلتْ على بركةِ المؤسّسات الكنسيّة وموافقتها، لا تزال في أغلبيّتها نصوصًا مفعولُها في القوّة، بانتظار أن تُطلق للفعل... وهذا الواقع لا يُستثنى منه نصوصٌ من المجمع الفاتيكانيّ الثاني، ومن نصوص السينودسات المشرقيّة، وحتّى من نصوص الإرشادات الرسوليّة الحديثة. وتلمّستُ بوضوح ألَمَ المفكّرين لهذا الواقع، وعطش المؤمنين، خاصّة الشباب منهم، لدفع الحَجَر الصادم الكابت لتلك النصوص، وإفساح المجال لها، فتدخلَ تلك النصوص في التاريخ، في حياة الناس، ويتحوّل ما جمِّدَ حبرًا على ورق، إلى دمٍ حيٍّ يسري في شرايين إيماننا، ومن ثَمّ إلى خلايا تجدِّد حياة الله فينا.

هذا ما أراه مقصدًا لهؤلاء المفكّرين: إنّها دعوةٌ إلى رفض الواقع المنفصم الشخصيّة، ونبذ «الينبغيّات والوعوظيّات والخطوبيّات والمنبريّات الأخلاقويّة»، وحرصهم، وشوقهم للعودة إلى صراحة وبساطة دعوة المسيح، وصراحة الأجوبة التي تلقّاها من الذين

النقطة الثالثة – المسيح البطل

دعاهم. ففورَ نداء المسيح لبطرس، للحال ترك بطرس شباكه وتبعه؛ وهكذا دواليك في دعوته للرسل الآخرين. فهو كان أوصانا بمنتهى الصراحة: «ليكن كلامكم نعم نعم، ولا لا...» أنا أرى أنّ ما يجبُ فهمُه من هذا الجواب هو التالي: في حال كان الجواب إيجابًا– تشكّل الـ«نعمُ» الأولى الموافقةَ المبدئيّةَ، والـ«نعمُ» الثانيةُ الانطلاقةَ الفعليّةَ في تنفيذِ تلك الموافقة المبدئيّة. أمّا ما نراه اليوم أحيانًا، فبينَ الـ«نعَم» الأولى والـ«نعم» الثانية مفارقةٌ غير منطقيّة، وبالتالي غير مقبولة... وهنا أظنّ بأنّ هذه المفارقة تَعنينا نحن المعمّدين كلّنا من دون استثناء، أفرادًا وجماعاتٍ ومؤسّسات، ويجب أنْ نعملَ كلّنا على معالجتِها...

في أيّامنا هذه، لا يمكن لإنسان عاقل، مؤمنًا كان أو غير مؤمن، ألا يشعرَ بالألم العميق والأسف الشديد يغمرانِه بسبب تحوّلات بعض مجموعاتٍ عمن طبيعتها البشريّة، صورةِ الله على الأرض، إلى مجموعاتٍ أفضلُ ما يُقال فيها أنّها وحشيّة بامتياز... فهذا التحوّل العكسيّ يشكّل بحدّ ذاته ألمًا مبرّحًا للمجتمع البشريّ بكلّ تنوّعاته ومشاربه... وما يزيد في الألم أضعافًا هو أنّهم يدّعون التديّن، ويعرِّضون من يُخالفهم الدينَ للذبح والطرد وحرق الديار، وأخذ النساء والأطفال سبايا. وفي كلّ هذه المآسي كانَ للمسيحيّينَ الحصّة الكبرى، إذ كانوا وعلى عدّة مراحل، الهدف المباشر. أمّا بالنسبة لأكثر حكّام البلدان، إنِ المجاورة أو البعيدة، فكأنّ شيئًا لم يكنْ. آلاف الضحايا التي تُهدَر دماؤها البريئة على مدى السنوات الأربع الماضية في عالمنا المشرقيّ لم تحظَ بقدر من الاهتمام الذي أعاروه لفقدانهم ضحيّة واحدة للإرهاب في أوطانهم. لا بل هم يحلّلون لأنفسهم ما حرّموه على سواهم من تعامل مع الإرهابيّين، وبالتالي مدّهم بالمال من خلال التعامل اللا شرعيّ واللا أخلاقيّ معهم بشرائهم البترول الخام منهم، والتهامهم التحف الأثريّة التي كان من قدرها ألا يكون نصيبها التحطيم أو التفجير.

وما زلنا نحن هنا تحتَ رحمةِ هؤلاء البشر المتحوّلين وحوشًا، يصدّرون الإنذارات، متوعّدين بإفراغ المشرق العربيّ (مهد المسيحيّة) من الوجود المسيحيّ. نعم نحن المسيحيّين المشرقيّين مهدّدون وجوديًّا. لكن يذكّرنا بعض المفكّرين بأنّ السيّد المسيح هو مثال البطل المحضِّر civilisateur، وأنموذج الشخص المثقّف المتفكّر (Intellectuel) الساعي إلى شخصنة الإنسان وأنسنة مجتمعه.

بالنسبة لي هذه من أهمّ النقاط التي يحاول معالجتها هؤلاء المفكّرون.

لا يجدر بنا، نحن المسيحيّين، أن نكتفي بنظرتنا للمسيح بأنّه المعذَّب والمتألّم والمائت على الصليب... إذا ما توقّف إيماننا في هذه المرحلة، فإيماننا فاشل... وليس هذا بالإيمان المسيحيّ الصحيح. نحن نؤمن بالمسيح الذي أحبَّ إلى ما لا نهاية، وكانت ثمرةُ حبّه للبشر الانتصارَ على الألم وعلى الموت...

يقول جبران: «ما عاش المسيح مسكينًا خائفًا ولم يمتْ مسكينًا متوجّعًا، بل عاش ثائرًا، وصُلبَ متمرّدًا وماتَ جبّارًا ... لم يخفْ يسوعُ من مضطهديه ولم يخشَ أعداءه، ولم يتوجّع أمام قاتليه». (العواصف)

نعم، نحن لا نؤمنُ بالمسيح المائت على خشبة والموضوع في قبر... نعم، نحن نؤمن أنّه تعذّب وصُلِبَ ومات، نؤمن بأنّه اتخذ جسدًا مثل جسدنا وعاش متحمّلاً كلّ مآسيه حبًّا بنا؛ لكن لو لم ينتصر على الموت، لولا القيامة، لكان إيماننا به باطلاً. نحن نؤمن بالإله المتأنسن الذي انتصر على الموت... نؤمن بإلاله البطل.

ونحن الذين ننتمي إليه ونتسمّى به (مسيحيّون)، إذا ما فهمنا فعلاً معنى انتمائنا، لاقتنعنا بأنّه البطلُ المحضِّرُ وأنموذجُ الشخصِ المتثقّف المتفكّر، ذاك الساعي إلى شخصنة الإنسان وأنسنة مجتمعه...

إذا ما اقتنعنا بأنّنا بانتمائنا إليه، أصبحتْ هويّتُنا التي هي بحدّ ذاتها رسالة، رسالتَنا... فهلْ مِنْ مكان في العالم بأشدّ حاجة إلينا أكثر من مجتمعنا المشرقيّ المشرذم المتخبِّط بدمائه، حيث تتقدّم مَشيَأة الانسان على شخصنته، وحيث تتعامل القوى العالميّة الفاعلة مع سكّانه المشرقيّين وكأنّهم كمّات من الكائنات، لا اعتبار لإنسانيتهم بما لها، أسوةً بباقي الناس، من حقّ بالحريّة والقرار والحياة الكريمة، فيتجاذبوها ويقرّروا مصيرها حسب مصالحهم؟

نحن المسيحيّين المشرقيّين، نحن أبناء هذه الأرض. نحن هنا لنبقى، ونحيا بهويّتنا؛ رسالتنا المحبّةُ الغافرة وثقافتنا السلامُ العادل... وهذا يتطلّب تشبّثًا بأرضنا، وقناعةً بانتمائنا التراثيّ المشرقيّ والروحانيّ الفصحيّ، وانفتاحًا كليًّا على الآخرين كلّ الآخرين من حولنا.

في البدء كانوا إثني عشر مسيحيًّا ولم يُثنِهم الاضطهاد بكلّ أشكاله... واستطاعوا أن يغيّروا التاريخ. فهل من شكّ في ما يمكن أن يفعله اليوم العديد من المسيحيّين المشرقيّين الثابتين في الإيمان؟

مثالنا وإلهنا هو مثال المحِبّ والمُسالِم والمِعطاء من دون حدود، ومثال البطل الحقيقيّ. ليس ببطلٍ من يردّ الصاع صاعين، بل البطل هو الذي يدير الخدّ الآخر، وهو بمقدوره أن يردّ بأكثر من الصاعين. البطولة الحقيقيّة ليست بتحطيم الآخر والقضاء عليه، فهذا مفهوم شريعة الغاب، ولكنّها تكمن في احترام الآخر كاحترام الذات ولو كان مغايرًا لما نحن عليه. دعوة السيّد المسيح لنا كي «نكون كاملين كما أنّ أبانا السماويّ هو كامل» هي أشرف وأنبل دعوة للبطولة على الإطلاق: دعوة لمشاركته بالكمال... بطولة تتحقّق ليس بالتقاتل الذي يغذّيه الحقد الهدّام، بل بالتكامل المبنيّ على الحبِّ المعطاء.

إنطلاقًا من هذه الثوابت، أرى بأنّنا، نحن المؤمنين بالمسيح المخلّص، من الخطأ أن ندعى صليبيّين، كما يرى البعض، بل نحن فصحيّون أبناء القيامة، وبكلمة أصحّ نحن مسيحيّون.

«نحن نؤمن بالإله المتأنسن الذي انتصر على الموت... نؤمن بإلاله البطل».

مقالات

قراءةٌ في فكر الموت عندَ الموارنة

أنطوان افرام سلامه[1]

أنطوان افرام سلامه

مُنذ أنْ وعى الإنسانُ وجوده، ورهبةُ الموت تُلاحقه حتى تقضيَ عليهِ في ساعةٍ لا يخالها. حاولت الديانات عبر التاريخ، التخفيفَ من تلك الرهبة وتطييبَها، لكنّ الموت بقيَ اللغز الأكبر والسرّ الأعمق للبشريّة جمعاء. المسيحيّةُ كما الإسلام وسائر الديانات[2]، رأت في الموت حياةً جديدةً وبعثًا للنفس المتوفّاة ودينونةً للإنسان جزاء أعماله الأرضيّة، مُستعملةً في وصف مرحلة ما بعد الموت تعابيرَ وألفاظَ وفلسفةَ البيئة الثقافيّة والحضاريّة التي تمأسست ونشأت فيها[3]، ومُستلهمةً أفكارها من الكتاب المقدّس في عهدَيْه القديم والجديد. وبالرّغم من أنَّ المسيحيّة في مذاهبها وطوائفها الرسميّة، ثابتة وموحّدة في عقيدتها ومفهومها للموت، ورجاؤها الكبير والوحيد بقيامة يسوع من بين الأموات، فإنّ ذلك لم يمنع من نشوء فكرٍ خاصّ ولاهوتٍ مُميّز حول الموت في مُختلف الكنائس المسيحيّة لاسيّما الشرقيّة منها، يستمدّ أفكاره من العقيدة الأمّ، ساكبًا عليها من فلسفته ومحيطه وأدبه ما يتناسبُ ورؤيتَه للموت والحياة في إطاره التاريخيّ والوجوديّ. والموارنة في وجودهم تأصّلوا في تراثِ المدارس الإنطاكيّة، وتشرّبوا من روحانيتها السريانيّة، مكوّنينَ لاهوتًا مُميّزًا نابعًا من أدبهم الليتورجيّ، نقرأ فيه رؤيتَهم لشخص السيّد المسيح، وعلاقتَهم بمريمَ العذراء وسرّ الإفخارستيّا، كما فهمهم لسرّ الموت والقيامة...

من العسير حصرُ الفكر الماروني حولَ الموت بلاهوتٍ مُحدَّد، لِما تَحمل الكنيسة المارونيّة من تاريخٍ طويل ومُتشعِّب، مُتأثِّر في ليتورجيّته[4] بالكنائس الإنطاكيّة والرّهاويّة[5] وبحركة التثاقفِ بينَ الشرق والغرب كما باللاهوت الغربيّ الرومانيّ. غيرَ أنَّ الموارنة، وأسوةً بسائر الشعوب، اهتمّوا بدفن موتاهم، مُفردين لذلك الرّتبَ والصلواتِ المسكوبةَ في أدبٍ جنائزيٍّ واسعٍ جدًّا[6]، يَنتَجُ منه مفهومُهم للموت ولمصير الإنسان بعدَ الموت.

تتميّزُ الروحانيّة المارونيّة بطابع الرّجاء[7] يقودُها نحوَ الإسكاتولوجيا[8]، كما يظهر في مُختلف المخطوطات الليتورجيّة القديمة، منها الجنّازات ونصوص «البيت غازُو- ألحانٌ للمُنتقلين»[9]. يُشبِّه بعض النصوص الموتَ بالمرفأ[10]، والحياةَ بقاربٍ بحريّ مليء بالمخاطر والصعاب حيثُ الإنسانُ مُعرّضٌ للضّعف والشرّ والخطيئة، لكنّ نعمة الله المُحبّة تقودُ القارب إلى المرفأ الأمين حيثُ السلامُ والحياة[11]. والموت هوَ الطريق الواجب على كلّ إنسان سلوكُه لبلوغ الملكوت (أي مملكة الله)، لكنّ كلَّ مراحلِ الطريق تبدأ من تاريخ الخلاص أيْ من حدَثِ تجسّد المسيح حتّى موته وقيامتِه المُعطيةِ الأمانَ والضمانَ والرّجاءَ للمتوفّي[12]. والميت «عَنِيدُو» (من الجذر السريانيّ أي «المفقود»، «البائن»، «الميت»...)، «هوَ المسيحيُّ الذي يتركنا إلى مكانٍ آخرَ»[13]، هوَ «المُنتَقِل»[14]، المُزوّد بالإفخارستيّا (القُربان) كعربونٍ للقيامة[15]، وبالصّليب الرّفيق في الطريق وجسر العبور[16]، إلى جانب المعموديّة[17]. وكتابُ الجنّازاتِ أو الصلاة التي تُتلى على الميت هيَ صلاةُ المُرافقة (كتاب المُرافقة)[18]، فالجماعةُ المؤمنة هي التي تُرافق بصلواتها المائتَ لكي يصلَ إلى الجنّة، وتستغفرُ عنه اللهَ الآبَ، ديّانَ الأحياء والأموات وإلهَ الأرواح والأجساد، لكيما يُعامله لا بحسب أعماله بل بحسب رحمته تعالى[19]. وأوصافُ الجنّة بحسب الجنّازات مُستوحاةٌ من قصائدِ وأشعارِ مار أفرام السُّرياني[20] في «منظومة الفردوس» الذي يُشبّهُ الجنّة بكثير من الصُّوَر التي تُعبِّرُ عن هذا العالم الجذّاب[21]؛ فهيَ الجنّة السماويّة، جنّةُ عظَمة الربّ يسوع، وجنانُ النّور والأفراح والوطنُ المملوءُ أفراحًا، وربوعُ الحياة حيثُ يستريح القدّيسون في المساكنِ السّعيدة، وملكوتُ العُلى حيثُ الوليمةُ الدّائمةُ والأفراحُ التي لا تنتهي.[22]

مصيرُ الإنسان بعدَ الموت، يُفهَمُ أكثرَ في الجنّازات المارونيّة من خلال كلمة «رقاد» أو «نوم» المُستعملةِ كثيرًا في العديد من المخطوطات. «فالموت هوَ رقادٌ في التّراب أو في ظُلمة

القبر، وهو، أيضًا، رقادٌ على رجاء القيامة أو على رجاء المسيح»[23]. لكنَّ هذين الفِعلين يدلاّنِ أيضًا على أنَّ الموت ليسَ تلاشيًا وفناءً، بل هوَ دخولٌ في حالة انتظارِ يوم القيامة[24]، أو في حالةِ نوم يَغرقُ فيهِ الإنسانُ حتّى فجرِ القيامة[25]. فكرةُ الرّقادَ والنوم هذه، تعودُ بنا إلى أفراهاط الحكيمِ الفارسيّ[26] الذي عالجَ موضوع الموت في الأدب السّريانيّ بإسهابٍ ودقّة في مقالاته الثلاث والعشرين المعروفةِ بـ«البيّنات»، وقد كتبَها بين سنة ٣٣٧ و٣٤٥[27]. لكنْ، «ليسَ من المؤكّد أنّ الموارنة قرأوا «بيّنات» أفراهاط بطريقةٍ مباشِرة، بل من المحتمَل أن يكونَ بعضُ أفكاره وصلت إليهم محمولةً في كتب الأدب السّريانيّ التي كانت في مكتباتهم فتأثّروا بها. الموت، في رأي أفراهاط، هوَ دخول في حالة رقادٍ لا شعوريّةٍ حتى القيامة. ولكنْ، كما يحلمُ الإنسان في الرّقاد الطبيعيّ، كذلك تحلم النفسُ في رقاد الموت. النفسُ الخيّرة تحلمُ بأنَّ سيّدَها سيُكافئها بحياةٍ سعيدة حسْبَ وعْده؛ لهذا، فالليل الطويل الذي يفصلها عن صباح القيامة يمرُّ كساعةٍ واحدة. أمّا النفس الشريرة، فترقدُ رقادًا قلِقًا مزعَجًا، تحلم فيهِ بما ينتظرُها من دينونةٍ وحُكمٍ عادلٍ وصارم. مصدر الفرح عندَ النفس الصّالحة هو الرّوح القدس الذي قبلته بالمعموديّة ولا يزال متّحدًّا بها ما دامت قائمة في الصّلاح. هذا الروح، وهوَ قبسٌ إلهيّ مميّز عن الرّوح القدُس الأقنوم الثّالث من الثّالوث الأقدس، يرجع بعد الموت إلى المسيح، ويشفعُ بالإنسان طالبًا لهُ القيامة السعيدة حيثُ يتّحد به من جديد اتحادًا أبديًّا».[28]

كذلك القدّيس افرام، مُعلِّم الكنائس السّريانيّة الأكبرُ، والمُشكِّلة أناشيدُه وأشعارُه جزءًا وافرًا من صلّوات الجنّاز المارونيّ، «يعتبر أنَّ الموت هوَ رقاد تغرق فيه النفسُ بعدَ انفصالها عن الجسد حتّى يوم القيامة حيثُ ترجع فتّتحد به لتتمتّعَ معه بحياةٍ سعيدة مع الله»[29]، و«كما أنَّ النومَ الطبيعيَّ يُغرِقُ الإنسانَ في حالةِ غيبوبةٍ بالنّسبة إلى العالم الخارجيّ، كذلك الموتُ يُفقدُ النفسَ كلَّ نشاطٍ حسيّ وعقليّ لأنّها فارقتِ الجسدَ الذي به تعرف وتحسّ»[30]. وبالتالي يكونُ الموتُ بحسب النصوص المارونيّة نهايةً لحياةٍ أرضيّة تُدخِلُ الإنسان في شكلِ حياةٍ ناقصة[31]. أنظرةُ الوحدويّة للإنسان[32] الظاهرة في بعض النصوص[33]، والمُتأثّرة بالفكر الأفلاطونيّ[34]، «تعتبرُ الموتَ رُقادًا يُغرِقُ الإنسانَ في نوعٍ من الغيبوبة حتّى يوم القيامة»[35]. «أمّا النظرة الثنائيّة[36]، في نصوصٍ أخرى، فتُعطي النفسَ حياةً مُستقلّة عن الجسد، ولكنّ هذه الحياةَ تبقى ناقصة إلى أن تتّحدَ النفسُ، من جديد، بالجسد، يومَ القيامة العامّةِ»[37]، لتبرزَ بذلك القيمة الإنسانيّة الكبيرة المُعطاة للجسد «من كون المسيح حالاًّ فيه كما في النفس بواسطة الإيمان والمعموديّة والشركة في جسده ودمه»[38]، وقيامة الأجسّاد التي باتت مُمكنة لأنّها تبني رجاءها على قيامة الربّ يسوع الذي غلبَ الموت بموته وقيامته.[39]

«مساكن النور والرّاحة» للأبرار و«الشيول» للخطأة[40]، «هيَ الأماكنُ التي فيها ينتظر الموتى يوم القيامة العامّة. الأبرارُ ينتظرونه بالفرح والبهجة والتمجيد؛ أمّا الخطأةُ، ففي الحزن والخوف؛ ولكنَّ المؤمنين منهم لا ينالهمُ اليأسُ، إذ هم يتكلّونَ على صلوات الكنيسة ورحمةِ الله، ليكونَ حظُّهم في الملكوت يوم الدينونة العامّة»، حيثُ القيامةُ العامّة هيَ المدخلُ إلى الملكوت والسّعادة الدائمة في مُشاهدة الله والإشتراك في حياته وحبّه.[41]

فتكون حياة الإنسان بحسب الفكر اللاهوتيّ الماروني والليتورجيّ، مُقسّمة إلى ثلاث مراحلَ: «الأولى على الأرض، والثانية بينَ الموت والقيامة، وكلتاهما تُهيّئان المرحلة الثالثة التي فيها يتقرّرُ، نهائيًّا، مصيرُ الإنسان، إمّا في الملكوت مع الله، وإمّا في جهنّم بعيدًا عنه. هذه الحقيقة، يُعبِّرُ عنها بوضوح، مقطعٌ للقدّيس أفرام، مأخوذٌ من نشيد ٧٣ من أناشيد نَصيبين، وقد تبنّاه الموارنة في جنّاز الرّاهب، كما ورد في المخطوط الفاتيكانيّ السّريانيّ ٥٩ (ص٣١٧)»:

«واحدةٌ طريقُ جميعِنا، أيّها الإخوة:
من الولادة حتّى الموت، ومن الموت حتّى القيامة.
ومن هناك أمامَنا طريقان: واحدةٌ للنّار وواحدةٌ لعَدن.
فليُصلِّ كلٌّ منّا لأجل ميته لكي يستحقَّ طريقَ عدن». (٤٢)

(١) باحث أكاديميّ وكاتب، ومُعِدّ لأطروحة دكتوراه في جامعة القدّيس يوسف- بيروت.
(٢) مثلاً: إحدى الرسوم الفرعونيّة القديمة، تُبرِزُ مُعتقَد الفراعنة لمصير الإنسان بعدَ الموت. يَظهَرُ فيها المتوفى بثيابه البيضاء، يقف إلى جانب الميزان الذي تُوزَنُ به أعمالُ الإنسان في الآخرة، وقد وُضِعَ في كفّة الميزان اليُمنى، قلب المتوفّى، وفي الكفة الأُخرى، ثقل على شكل إناء. في حين جلسَ الوازن يُراقب عمليّة الوزن، في حضرة الإله أوزيريس. راجع: طناحى، طاهر أحمد، على فراش الموت، دار الهلال، القاهرة، ١٩٣٩، ص٢٠.
(٣) مثلاً: كلمة «شئول» أو «شيول» المقصود بها «الجحيم» و«مثوى الموت»، تعود في لغويتها ونشأتها إلى الأساطير اليونانيّة اللاتينيّة حيثُ يذهب المتوفّي إلى مُقام آخر، «إلى شئول، أو باللغة اليونانيّة، إلى هادِس الذي هوَ اسم إله مثوى الأموات، أو إلى الجحيم (Inferna = الأسفل) باللغة اللاتينيّة». راجع: دوبره، لاتور أوغسطين، دراسة في الإسكاتولوجيا: الموت والقيامة السّماء والمطهر وجهنّم، ترجمة الأب صبحي حموي اليسوعيّ، طبعة ثالثة، دار المشرق، بيروت، ٢٠٠٧، ص ٢١.
(٤) الليتورجيّا، من أصل يونانيّ، تعني عمل الشعب أو الجماعة، وتُستعمَل للدلالة على الطقوس المسيحيّة وأهمّها القدّاس. راجع: هدايا، مارسيل، «الاحتفال الليتورجيّ: طرح الموضوع»، الاحتفال الليتورجيّ: سلسلة مُحاضرات، جزء ٢٤، منشورات معهد الليتورجيّا في جامعة الرّوح القدس، الكسليك، ١٩٩٧، ص ٣-٣١.
(٥) الحايك، ميشال، **القدّاس الماروني أبحاثٌ تاريخيّةٌ وليتورجيّة**، إعداد وترجمة الخوري دانيال زغيب، سلسلة التراث الليتورجيّ ٢، المطبعة البولسيّة، جونيه، ٢٠١٠، ص ٦٤.
(٦) خليفة، الياس، «مصير الإنسان بعدَ الموت في الجنّازات المارونيّة»، الجنّازات المسيحيّة: سلسلة مُحاضرات، جزء١١، منشورات قسم الليتورجيّا في جامعة الرّوح القدس، الكسليك، ١٩٩٠، ص ٢٦٥.
(٧) GEBRAEL, Simon, «L'Eschatologie Maronite Selon Le Manuscrit VAT.SYR.59», Revue Théologique de Kaslik, N2, 2008, p.29
(٨) إسكاتولوجيا أي أخيريّة ومعناها البحث في عواقب الإنسان والعالم، ومرحلة ما بعد الموت.
(٩) «البيت غازو» كلمتان سريانيتان تعنيان: بيت الكنز. وهو عبارة عن كميّة ضخمة من النصوص (المخطوطات) النثريّة والشعريّة، المُشكِّلة كنزًا ليتورجيًّا، والعائدة إلى القرنين الثّاني عشر والثّالث عشر، أي قبل حركة الليتنة المُتجليّة في تأسيس المدرسة المارونيّة في روما سنة ١٥٨٤ وقبل زيارة القاصد الرسوليّ الأب جوان باطيشتا إليانو اليسوعيّ سنة ١٥٧٨ وإحراق كتب الموارنة النفيسة بحجّة احتوائها على الهرطقة. نجت هذه النصوص من شراسة المماليك، وغدر السنين ونيران جوان باطيشتا، وقد عمل على ترجمتها أخيرًا الأباتي يوحنّا تابت الرّاهب اللبنانيّ الماروني. راجع: البيت غازو الماروني Add.14,703 (القرن الثاني عشر- الثّالث عشر): ألحانٌ لوالدة الإله، تقديم وترجمة الأباتي يوحنّا تابت، سلسلة المصادر الليتورجيّة ٢، الجزء الأوّل، منشورات معهد الليتورجيّا في جامعة الروح القدس، الكسليك، ٢٠٠١، ص ١ - ٢٣.
(١٠) GEBRAEL, Simon, Op. cit. p.33
(١١) Id
(١٢) Ibid. p.34
(١٣) تابت، يوحنّا، «الجنّاز الماروني: الماضي والحاضر»، الجنّازات المسيحيّة: سلسلة مُحاضرات، مرجع سابق، ص ٦١.
(١٤) راجع: البيت غازو المارونيّ Add. 14. 703 (القرن الثاني عشر- الثّالث عشر)، تقديم وترجمة الأباتي يوحنّا تابت، سلسلة المصادر الليتورجيّة المارونيّة ٦، الجزء الخامس، منشورات معهد الليتورجيّا في جامعة الرّوح القدس، الكسليك، ٢٠٠٤، ص٦ - ١٤.
(١٥) تابت، يوحنّا، مرجع سابق، ص٩٧. يقول الأب ميشال حايك أنّ المسيحيّين في القرون السبعة الأولى، كانوا يدفنون القربان مع أمواتهم من خلال وضعه في أفواههم، ومن المُرجَّح أنّ الموارنة قد تأثّروا بهذه المُمارسة. راجع: الحايك، ميشال، مرجع سابق، ص ٣٢٦.
(١٦) GEBRAEL, Simon, Op. cit. pp. 36-38
(١٧) راجع: كتابُ الجنّازات: بحسب طقس الكنيسة الإنطاكيّة السّريانيّة المارونيّة، إعداد اللجنة البطريركيّة للشؤون الطقسيّة، بكركي، ٢٠٠٠، ص ١٣ (جنّاز الرِّجال، لحن سوغيتو).
(١٨) تابت، يوحنّا، مرجع سابق، ص ٦٢- ٦٤.
(١٩) شهوان، نجم، «صُوَر الموت في الجنّاز الماروني»، أوراق رهبانيّة، العدد ٦٨، كانون الثاني ٢٠٠٢، ص ٨٠ - ٨٢.
(٢٠) حول مار أفرام وسيرته وأشعاره، مُراجعة: الحاج، إميل، **قيثارة الرّوح القدس: القدّيس أفرام**، سلسلة الشهود ٦٤، المكتبة البولسيّة، جونيه، ١٩٩٩.
(٢١) شهوان، نجم، مرجع سابق، ص ٨٣.
(٢٢) المرجع نفسه، ص ٨٢.
(٢٣) خليفة، الياس، مرجع سابق، ص ٢٧٣.
(٢٤) المرجع نفسه.
(٢٥) المرجع نفسه، ص ٢٧٤.
(٢٦) حولَ أفراهاط وسيرته وكتاباته، راجع: فغالي، بولس، أفراهاط الحكيم الفارسيّ: سيرته- عصره- مؤلّفاته- فكره اللاهوتيّ، طبعة ثانية، سلسلة التراث السريانيّ ٢، دار المشرق، بيروت، ٢٠٠٢.
(٢٧) خليفة الياس، مرجع سابق، ص ٢٧٥.
(٢٨) المرجع نفسه.
(٢٩) المرجع نفسه.
(٣٠) المرجع نفسه، ص ٢٧٦.
(٣١) المرجع نفسه، ص ٢٨٦.
(٣٢) هذه النظرة إلى الموت مُتأثّرة بالفلسفة الأفلاطونيّة التي تعتبر أنّ الإنسان، في جوهره، نفسًا روحانيّة، بينما الجسد الماديّ هوَ عرض إلى زوال.
(٣٣) خليفة، الياس، مرجع سابق.
(٣٤) المرجع نفسه، ص ٢٧٩.
(٣٥) المرجع نفسه، ص ٢٨٦.
(٣٦) المفهوم الوحدويّ للإنسان الذي هو جسد في كلّيته ونفس في كلّيته.
(٣٧) خليفة ،الياس، مرجع سابق. القيامة العامّة أو الدينونة العامّة، بحسب الإيمان المسيحيّ، تعني مجيء المسيح الثاني حيث يملك على كلّ الناس في ملكوت العدل والمحبّة. أمّا القيامة الفرديّة أو الدينونة الخاصّة، هي دينونة الفرد بعد موته جزاء أعماله الأرضيّة.
(٣٨) خليفة، الياس، المرجع نفسه، ص ٢٨٠.
(٣٩) شهوان، نجم، مرجع سابق، ص ٩٢.
(٤٠) خليفة، الياس، مرجع سابق، ص ٢٨٦.
(٤١) المرجع نفسه.
(٤٢) المرجع نفسه، ص ٢٨٧.

مقالات

الأيقونة فنٌّ إلهيّ يكتبه البشر

الأب نداء ابراهيم المخلّصيّ

«لأنّ الله ظهر بالجسد وعاش بين الناس، فأنا أقدر أن أرسم ما هو مرئيّ في الله. أنا لا أُكرّم المادّة ولكنّي أكرّم خالق المادّة، الذي صار مادّة لأجل محبّته لي، الذي تحمّل وتقبّل الحياة بالجسد فأكمل مصالحتي عبر المادّة».... صرخةٌ أطلقها القدّيس يوحنّا الدمشقيّ يوم انبرى للدفاع عن الأيقونة ضدّ حرب شعواء ضربت الكنيسة لمدّة قرن من الزمن (٧٢٦– ٨٤٣ م)، فانقسم المسيحيّون بين مؤيّد ومناهض للأيقونة، حيث تمّ تلف وتحطيم أجمل الإيقونات وطرد الرهبان وحرق الأديار بحجّة أنّهم يعبدون الخشب ويتشبّهون بالوثنيّين في تبجيل وعبادة الأصنام؛ وبقيت الأمور على هذه الحال حتّى انتصار الأرثوذكسيّة وعودة السلام إلى الكنيسة سنة ٨٤٣. والكنيسة على مرّ تاريخها الطويل، عانت الكثير من الاضطهادات والهجمات التي طالت تعاليمها وصلب عقائدها من أصحاب البدع والهراطقة، وقد انتصرت عليها جميعًا، لكن وحده انتصار الكنيسة على محاربي الأيقونة جُعِل له عيد كلّ سنة في الأحد الأوّل من زمن الصوم.

ما هي الأيقونة؟ وكيف وصلت إلى المسيحيّة، ومن أين حصلنا على صورة للسيّد المسيح، وهل حقًّا ترك سمات وجهه على منديل القدّيسة فيرونيك أو منديل أبجر ملك الرُّها؟ ما هو موقع الأيقونة في الكنيسة الشرقيّة، وما مدى أهميّتها في حياة المؤمنين؟ وما الفارق بينها وبين باقي فنون عصر النهضة؟

قبل الحديث عن موقع وأهميّة الأيقونة في الكنيسة الشرقيّة، يجدر التوقّف عند لفظة «**أيقونة**»، وهي كلمة مشتقّة من تعبير يونانيّ eikôn تعني «صورة»، وتشير عادة إلى صور دينيّة لشخصيّات من العهد القديم والعهد الجديد، مرسومة على الخشب بأسلوب خاصّ وبتقليد متوارث من جيل إلى جيل.

الأيقونة ليست عملاً فنيًّا بحتًا؛ فمعناها يتخطّى كثيرًا هذا التعريف، لأنّ عمليّة الإبداع الفنّيّ هي نوعًا ما هامشيّة أو مكمّلات ثانويّة،.. هي اللاهوتُ عبر الصور، وآباء الكنيسة يرون فيها ثروة مماثلة للتقاليد التعليميّة الشفهيّة والمكتوبة في الكنيسة؛ فكما أنّ الإنجيل ينقل إلينا بشرى الخلاص عبر الحروف والكلمات، كذلك الأيقونة تنقل إلينا رسالة الخلاص عبر الشكل واللون، ومن هنا يصحّ القول، إنّها الإنجيل المقدّس بالصورة واللون، بالخطّ والشكل.

الجذور التاريخيّة للأيقونة

في الحديث عن الجذور الأولى للأيقونة، تجب العودة إلى تراث وتقاليد وثنيّة، حملتها الجماعات الوافدة إلى الدين الجديد في القرن الميلاديّ الأوّل، تطلب العِماد والتنصير لها ولتاريخها الفنيّ الطويل. فالأيقونة حسب علماء الآثار والفنون، ما هي إلاّ امتداد للرسوم المصريّة القديمة وخاصّة لوحات الفيّوم les portraits funéraires de Fayoum، التي تُعدّ حلقة الوصل بين القديم الذي تَمثّل في رسوم الأشخاص العاديين، والجديد المتمثّل في رسوم القدّيسين.

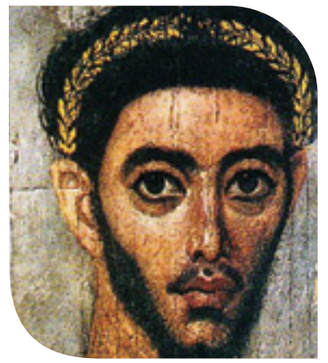

بين القرن الأوّل قبل الميلاد والقرن الثاني ميلاديًّا، عاشت في منطقة الفيّوم شمالي القاهرة في مصر، جماعات رومانيّة كانت تدفن موتاها بطريقة خاصّة، إذ تضع على سطح النعش لوحة مرسومة على قطعة من الخشب مستطيلة الشكل تُمثّل المتوفّى كما لو أنّها صورة تحدّد هويّته وهو لا يزال حيًّا. من أبرز مميزات «بورتريهات الفيّوم» هو أنّها تُصَوّر الشخص بشكل مواجه en face: عيون مُشعّة تأسر المُشاهِد، نظرات حادّة وكأنّها قادمة من عالم آخر، الأذنان واضحتان والفم مغلق. أمّا طريقة الرسم فتقوم على مزج الألوان الترابيّة بمادّة شمع العسل بعد أن يُذوّب ويُصفّى من الشوائب، ثمّ يُرسَم به على الخشب، وهذا ما يُسمّى بتقنية الـEncaustique. دير القدّيسة كاترين في مصر يحفظ لنا العديد من الأيقونات التي جرت كتابتُها وفق هذا الأسلوب القديم. واللافت في هذه الإيقونات أنّ وجوه السيّد المسيح وسائر القدّيسين رُسمت بمظهر طبيعيّ، وليس على ما جرى اتّباعه لاحقًا باختزال وتحوير معالم الوجوه لتبتعد عن التصوير الطبيعيّ- الكلاسيكيّ نحو الفنّ البيزنطيّ البحت، بخطوطه وقواعده التي فرضتها الكنيسة في القرون اللاحقة.

من أين جاءت صورة السيّد المسيح؟

حسب التقليد الكنسيّ، أوّل أيقونة للسيّد المسيح ظهرت أثناء وجوده على الأرض، إذ قام هو شخصيًّا -«برسمها»- بطبع وجهه على منديل أبجر ملك الرّها، الذي أرسل أحد معاونيه ليرسم وجه المسيح على القماش وينقلها إليه هو المريض، وعندما عجز عن إتمام هذه المهمّة بسبب بهاء وجه المخلّص، اقترب منه السيّد ومسح وجهه بالقماشة فانطبعت صورته عليها، فحملها الخادم إلى ملكه طالبِ الشفاء.

يعود تاريخ تدوين هذه الرواية إلى حوالى القرن السادس الميلاديّ، والكنيسة الشرقيّة تُعيّدُ لها في السادس عشر من شهر آب كلّ عام، وقد اتُّفق على تسميتها بأيقونة الوجه المقدّس التي «**لم تصنعها يد إنسان**».

يُقابل هذه الرواية في الغرب، قصّة منديل فيرونيكا، إحدى نساء أورشليم، التي مسحت بمنديلها وجه يسوع الدامي، يوم كان في طريقه إلى الجلجلة، فطُبعت صورة المخلّص عليه.

حاليًّا لا نجد أيّ أثرٍ لهذين العملَين. ولكن يمكننا استنتاج نقطة مشتركة بين هاتين الروايتين، وهي أنّه لم يُنجز إنسان صورة الكلمة التي صارت جسدًا. أمّا أقدم أيقونة حاليًّا فترجع إلى القرن السادس، وتمثّل النبيّ ابراهيم مرسومة على قطعة من خشب الأرز ومحفوظة في متحف بود Bode في برلين- ألمانيا.

كيف رسم الفنّانون الصور الأولى للسيّد المسيح، وكيف تطوّرت إلى ما هي عليه اليوم؟ أشرنا بدايةً إلى تأثير الثقافة الوثنيّة من هلينيّة ورومانيّة على نشأة

الفنّ المسيحيّ؛ فالقادمون إلى الدين الجديد لم يمتنعوا عن استعمال صور ورموز تدلّ على إيمانهم وعلى حضور الله فيما بينهم. من هنا نرى في ديناميس روما رسومًا للسيّد المسيح، وقد ظهر حليق الذقن كما في لقائه مع المرأة السامريّة عند بئر يعقوب، أو مرتديًا الزيّ الرومانيّ حاملاً خروفًا على كتفيه يقف وسط قطيع من الأغنام: إنّها صورة الراعي الصالح الذي يسهر على سلامة خرافه. صورة يسوع حليق الذقن، ربّما اقتبستها الكنيسة الأولى عن صورة أبولون، الإله اليونانيّ. وفي مرحلة لاحقة، صار يُرسم بالحية مصفّف الشعر على طريقة الفلاسفة اليونانيّين والرّومانيّين وآلهتهم: مثل «زوس» رئيس آلهة اليونان، و«جوبيتر» رئيس آلهة عند الرومان. من هنا نستنتج أنّ الجماعة المسيحيّة الأولى اقتبست من الفنون الوثنيّة الكثير من الرموز والمواضيع ونصّرتها لتتلاءم مع تعاليم الدين الجديد، ومنها معالم السيّد المسيح.

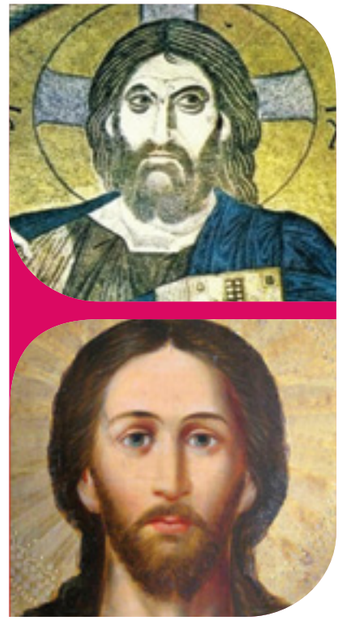

مع إعلان المسيحيّة، الدين الرسميّ للبلاد مع قسطنطين الملك، هبّ المهندسون والفنّانون لتشييد الكنائس وتزيينها بالزخارف والرسوم الدينيّة، فكان السؤال المطروح على آباء الكنيسة: ما هي الملامح الخارجيّة للمسيح، وكيف يجب رسمه؟ وكان ردّ الآباء مزدوجًا: منهم من رأى أنّ المسيح كان بشعًا، مسندين نظريّتهم إلى قراءة حرفيّة لنبوءة أشعيا في العهد القديم عندما تحدّث عن صفات عبد يهوه «المسيح المتألّم»: «**لا صورة ولا بهاء فننظر إليه ولا منظر فنشتهيهُ. مُزدرى ومتروك من الناس...**» ٢:٥٣ ولكنّ السبب الرئيسيّ لهذا التطرّف السلبيّ في وصف المسيح، هو حماية الدين الجديد من آثار الفنّ الوثنيّ القائم على تمجيد وتأليه العري والجمال الخارجيّ، فذهبوا إلى القول بأنّ الجمال الحقيقيّ هو جمال الداخل وصفاء الروح وصدق النيّة. أمّا الفريق الثاني فشدّد على أهميّة جمال يسوع، لأنّ التناسق الخارجيّ إشعاع للجمال الداخليّ، فمن غير الجائز أن يكون من خلق كلّ هذه الجمالات الأرضيّة ليس بجميلٍ، مستندين على المزمور ٤٥: «**إنّك أجمل بني آدم**». والكنيسة اليوم تقف إلى جانب الفريق الثاني، تشجّع الفنّانين على تقديم أجمل ما لديهم لإبراز جمال يسوع «**شعاع مجد الله وصورة جوهره**» (عب:١:٣)

الأيقونة صورة الإنسان المتجلّي

منذ كان الفنّ البيزنطيّ، يهدف بشكل أساسيّ إلى روحنة الأشكال، فليست الحادثة التاريخيّة أو المشهد الواقعيّ أو حتّى الصورة الحقيقيّة للقدّيس هو ما يجب إبرازه، بل الفكرة الروحيّة، وأكثر من ذلك: حقيقة الإيمان. فالأيقونات ما عادت تأمّلات شخصيّة لفنّان ما، بل لاهوت عبر الصور. بعد حرب الأيقونات (٧٢٦- ٨٤٣) واستتباب السلام في الكنيسة، أخذ الفنّ البيزنطيّ مساره الخاصّ، وأضحت كلّ أيقونة كتمثيل صادق للمثال الأوّل المتعذّر بلوغه. فنحن من دون أن نُقصي خطوط أو ملامح وجه قدّيس ما، نحاول إبراز هذه الملامح في بعدها الروحيّ. لم يعد ثقل الجسد وترابيّته يعنياننا، بل الإنسان الروحانيّ الممجّد، الواقف في حضرة الله، ونظراته المتأمّلة تغيب عنها المشاعر الإنسانيّة. في الأيقونة لا بكاء ولا ضحك، لا اضطراب ولا استغراب، بل سلام داخليّ يمتدّ إلى الناظر يدعوه

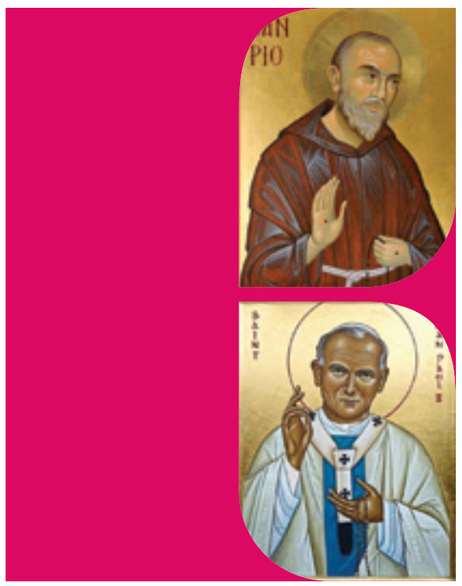

إلى التأمّل بما لم تره عين ولا خطر على بال بشر. لون البشرة الورديّ المتعارف عليه في الفنّ الكلاسيكيّ، يترك مكانه لصبغة لونيّة تتراوح بين البنيّ الترابيّ، والزيتيّ الداكن، إنّها حفنة التراب التي نفخ فيها الله روحه يوم خلق آدم الأوّل؛ فوجه القدّيس يحمل بعضًا من ملامح الإله وبعضًا من تراب الأرض، ومن عمق هذا التراب أو هذه الخلفيّة الداكنة يبدأ كاتب الأيقونة بإنارة الوجوه تدريجيًّا وكأنّ نورًا داخليًّا يشعُّ من داخل القدّيس. مصدر النور للأيقونة ليس من الخارج كما في الفنون الكلاسيكيّة، بل القدّيس نفسه المتجلّي أمام عرش الحمل هو الذي يسطع من الداخل ليعطي الإنطباع بحياة داخليّة باهرة، ويعكس نور المسيح الناهض من القبر على كلّ المؤمنين. المميّز في الأيقونة، أنّ الوجه يُرسم دائمًا بوضع مواجه، أو ثلاثة أرباع ¾ en face ou ، لأنّ الحوار مع الله يتطلّب الشفافية والوضوح. يجب أن أنظر بعينيَّ الإثنتين لأُحاور الآخر. وحده وجه يهوذا الذي عاش الازدواجيّة والانقسام في علاقته مع الله، يُرسم بوضع جانبيّ profile.

لاهوت الأيقونة

صحيح أنّ الأيقونة في جوهرها فنٌّ دينيّ، إنّما هذه المقولة تظلّ غير كافية. من هنا يجب الكلام عن فنّ لاهوتيّ art théologique. البعد الماورائيّ والتصاعديّ والتعليميّ في كتابة وتكريم الأيقونة، هو ما تحاول الكنيسة إيصاله إلينا. وكلّ أيقونة لا تنقل إلينا رسالة الخلاص، هي مرفوضة في الكنيسة. احترام الأيقونة وتكريمها لا يتوجّهان إلى الأيقونة من حيث هي مادّة بسيطة، لكن من حيث هي صورة، وهذا يعني أنّها تُظهر النموذج الأصليّ. من خلال الأيقونة أذهب إلى الأصل، إلى الذي تمثّل، لأُقدّم له الإكرام. هي النافذة التي أطلّ من خلالها على الأبديّة، وهي شهادة دائمة على سرّ التجسّد وتأليه الإنسان، تُظهر ما صار مرئيًّا ممّا هو غير مرئيّ، وتبدو مصدر صلة يُعبّر عن الحضور والغياب معًا.

«... **دخلت بين الجموع من خلف ولمست ثوبه، لأنّها قالت في نفسها: يكفي أن ألمس ثيابه لأُشفى**» مر ٥/٢٨ -٢٩. إنّ وجود الله وسرّه هو ما تحاول الأيقونة نقله إلينا. إنّها مكان لقاء الله، إنّها «الفرصة»؛ فالمؤمن عندما ينظر إلى الأيقونة يتذكّر هذا الذي تمثّله، فيحاوره ويُقدّم له الإكرام والاحترام.

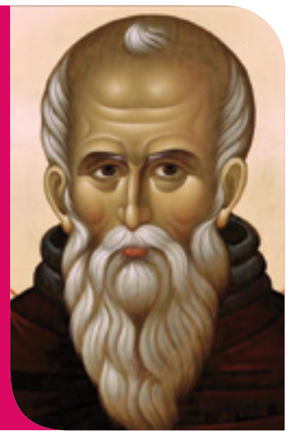

مقالات

مع جبران

شربل شربل

I

أن يتاح لك لقاء أحد الخالدين صدفة جميلة، فإذا استطعت أن تحوّلها إلى فرصة ثمينة يمكنك انتهازها، فكن انتهازيًّا.

قد تقول: «إنّ الانتهازيّة رذيلة، لا يدعو عاقل إلى اتّباعها. وسلوك غير أخلاقيّ، يجب تجنّبه». وأنت على حقّ في قولك. ولكن، متى علمت أنّني أقصد بالانتهازيّة، هنا، محاولة الاستفادة للإفادة، لا قصد الاحتكار والتميّز، فلا شكّ عندي في أنّك ستغضّ الطرْف عن اعتمادها. إلاّ إذا كنت من الأصوليّين الذين يتشبّثون بظاهر النصّ القائل «إنّ الغاية لا تبرّر الوسيلة».

وفي مطلق الأحوال فإنّني رجل براغماتيّ، أفهم البراغماتيّة على طريقة وليم جيمس الذي يعتبرها مجرّد طريقة فحسب، على أنّها محاولة لتفسير أيّ فكرة بتتبّع واقتفاء أثر نتائجها العمليّة.

وعليه، فإنّني لا أرى غضاضة في انتهاز فرصة لقائي جبران – هل سمعت جيّدًا؟- لإجراء مقابلة معه، واستيضاحه، وإن بصورة سريعة وبشكل محدود، بعض مقاصده التي، على بساطتها الظاهرة، قد تكون عميقة أكثر ممّا تظنّ.

بادرته بقولي: أنا عاتب عليك يا جبران، و«العتاب صابون القلوب» على ما علّمنا المبدع ميخائيل نعيمه في...

- دعنا من ذكره، لو سمحت.
- ألم يكن صديقك؟
- قبل أن يكتب كتابه عنّي. ولكن، مَنْ أنت؟ ولماذا تعتب؟
- أنا معلّم، وأنت لا تعترف بفضل المعلّمين.
- ما أخطأ رأيك! إنّما أنا تلميذ دائم في مدرسة الحياة والمجتمع أتعلّم من تجاربي وتجارب الآخرين. وأقرّ بفضل كلّ مَن قصد إفادتي بنظريّة أو رأي أو نقد... متى كانت صادرة عن إرادة خيّرة. أمّا مَن تعلّمت منه بطريقة سلبيّة فلا فضلَ له. وإنّي أقرّ بفضل ابن المقفّع الذي ينطبق قوله عليّ.
- أيّ قول؟
- سُئل ابن المقفّع: مَن أدّبك؟ فقال: أدّبت نفسي. فكلّما لقيت عيبًا في غيري اجتنبته.
- وبهذه الطريقة تعلّمتَ الصمت من الثرثار، والتواضع من المتكبّر، والاجتهاد من الكسلان.
- والغريب أنّني لا أعترف بفضل أيّ من هؤلاء المعلّمين.
- ولكن، ما أهميّة الصمت الذي تعلّمته؟
- إسمعْ. لو لم يكن للصمت من فائدة سوى أنّه يمكّن صاحبه من الإصغاء والانتباه لكفى. ألم يقل أنطونيوس البادوانيّ «إنّ الله يتكلّم ويُسمع أسراره في آذان مَن يصمت؟» والصمت يجلب احترام الناس الذين يشعرون بتقدير الصامت المستمع إليهم.
- ولكنّه في الوقت نفسه يخدع. ألم يُقل «إذا صمت المجنون عُدّ عاقلاً»؟
- كانت ميشلين تردّد «fou qui se tait passe pour sage» (قال ذلك بصوت منخفض) أنا لا أتحدّث عن صمت المجانين. وإنّما عن صمت العقلاء الذي يجعل كلام أصحابه مدروسًا بعناية عندما يتكلّمون، ألم يقل بيار شارون «مَن لا يعرف السكوت، قليلاً ما يتكلّم جيّدًا»؟

شربل شربل

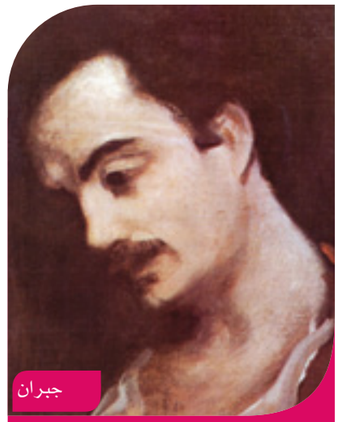
جبران

ميشلين

- ويجعل تصرّفاتهم موضع تقدير، ألم يقل جوزف دي ميتر: أعظم سلاح تتمسّك به المرأة العاقلة هو الصمت؟
- إسمع. أنا لا أريد للمرأة أن تصمت. لا أريد أن تبلع لسانها. لا أريد أن تهاب جلاّدها، وتألف هزيمتها، وتجترّ خيبتها. أريد أن ترفع رأسها، وتُسمع صوتها، وتصون كرامتها.
- أعلم رأيك في المرأة، وميلك إلى التوازن في الأسلوب...
- إسمع. دعني أكمل: إلاّ إذا كان صمتها من النوع الذي أراده دانيال روپس عندما قال: هناك أحاسيس خفيّة، الصمت، وحده، يستطيع التعبير عنها.
- هذا يلاقي ما قاله بنجامين فرانكلين: تعظنا النملة دون أن تنبس بكلمة.
- وقد يكون الصمت تتويجًا للكلام. تأمّل ما جاء على لسان يونيجيرو نوغوشي(yonejiro noguchi)
- عجبًا لذاكرتك المدهشة! كيف تحفظ كلّ هذه الأسماء والأقوال؟
- قال: أنا لا أصغي إلى تغريد العصفور من أجل صوته، بل من أجل الصمت الذي يليه.
- ولا يتّضح لنا عمق الصمت إلاّ متى قارنّاه بالثرثرة. ألم يقل صاحب اليتيمة: والضدّ يُظهر حسنه الضدّ؟
- بلى. ولا شكّ عندي في أنّ الثرثرة رذيلة تورّط صاحبها في أمور مسيئة. ألم يُقل: لسانك حصانك إن صنته صانك وإن خنته خانك؟
- صحيح، فالثرثار يتسبّب بالأذى لنفسه وللآخرين. إقرأ ما كتبه يوسف غصوب عن ألسنة الثرثارين. هذا لبنانيّ وليس يابانيًّا، واسمه سهل الحفظ، وإنتاجه في متناول يدك.
- أوافقك الرأي: الثرثار مكروه يتجنّبه الناس.
- دعني أضيف: الثرثار معلّم لا فضل له.
- ولكن، ماذا أيضًا عن أهميّة التواضع ومساوئ التكبّر؟
- التواضع فضيلة، يقرّب صاحبه من الناس. وفيه قال ألفرد تنيسن: التواضع الحقيقيّ هو أبو جميع الفضائل.
- وفيه قال طاغور: ندنو من العظمة بقدر ما ندنو من التواضع.
- لقد سبقه شكسبير، على ما أظنّ، عندما قال: الاتّضاع سلّم الارتفاع.
- يبدو أنّك تريد أن تجرّني إلى مبارزة زجليّة عكاظيّة، نستذكر فيها أقوال الحكماء و...
- حاشا أن أفكّر في مباراتك. ولكن، يحلو لي أن نعرّج على الشعر العربيّ. ألا تذكر قول القائل:

هلاّ السنابل تنحني بتواضع والفارغاتُ رؤوسهنّ شوامخ؟

- يطربني البحر الكامل. إسم على مسمّى. وباختصار، فإنّ التواضع يجلب احترام الناس وتقديرهم، وخصوصًا عندما نقارنه بالتكبّر.
- تفضّل. الكلام لك.
- التكبّر رذيلة، خصوصًا متى كان ناجمًا عن عقدة نقص أو عن سطحيّة. وهو حصّة الحمقى، على ما قال هيرودوتس، أبو التاريخ.
- لعلّ أجمل ما قرأته حول هذا الموضوع هو ما خطّته يراعة ولي الدين يكن في «الصحائف السود»، تحت العنوان: التكبّر وحداثة النعمة.
- نعم. لقد أصاب كبد الحقيقة.
- المتكبّر مذموم يُبعد الناس عنه.
- إسمع. إلاّ أصحاب النفوس الوضيعة التي تحتاج إلى من يقودها ويسيطر عليها، والبسطاء الذين تتملّكهم عقد النقص وتضعف من عزائمهم، أولئك الزرازير الذين قلت فيهم:
وفي الزرازير جبن وهي طائرة

الصمت

- «وفي البزاة شموخ وهي تُحتضر»
- يسرّني أن أقابل من يحفظ شيئًا ممّا قلته.
- إسمح لي أن أستنتج نيابة عنك أنّ المتكبّر معلّم لا فضلَ له.
- أحسنت.
- بقيت واحدة.
- ماذا تريد؟
- تابع أرجوك. ماذا تعني بأنّك تعلّمت الاجتهاد من الكسلان؟
- بدايةً، الاجتهاد فضيلة تمكّن صاحبها من استغلال مواهبه واستثمار وقته في العمل.
- أعرف مدى احترامك للعمل والعمّال المجاهدين الذين لا يكلّون ولا يتوانون، وأحفظ نصّك «أحبّ من الناس العامل» الذي تركّز فيه على الاجتهاد. وقد قيل في ذلك إنّك تأثّرت بالثقافة البروتستنتيّة التي تساوي ما بين العمل والعبادة.
- العمل عبادة. والاجتهاد يؤدّي إلى التقدّم في الدراسة والعمل والحياة، وإلى تحقيق الطموحات.
- حقًّا، «من جدّ وجد، ومن زرع حصد». و«من طلب العلى سهر الليالي».
- يعجبني قول القائل الساخر:

تريدين لقيان المعالي رخيصةً ولابدّ دون الشهد من إبر النحل

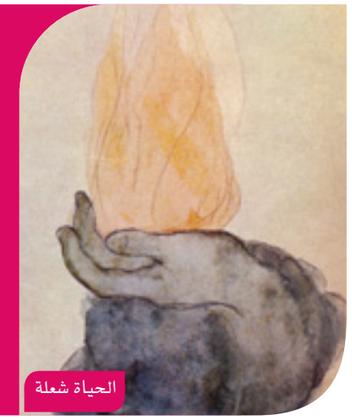
الحياة شعلة

- إنّه البحر الطويل...
- أحسنت يا أستاذ.
- إسمع. دعني أضيف: الاجتهاد يحمل المجتمع على تقدير المجتهد واعتباره مثلاً يُحتذى.
- وفي المقابل فإنّ الكسل رذيلة تسبّب الفشل والضجر. وقد قال لابرويّير: لقد دخل الضجر إلى العالم من باب الكسل.
- وقال أرنست همنغواي: إذا ذهب الكسل إلى مكان قال له الفقر خذني معك.
- هذه الترجمة مشكوك في أمرها. أعتقد أنّ الصواب هو قوله: عندما يمشي الكسل في الطريق فلا بدّ أن يلحقه الفقر.
- ولكنّني واثق من حسن ترجمة القول الآتي لفكتور هوغو: ألكسل أمّ لها ابنة تدعى السرقة، وابن يدعى الجوع.
- يبدو أنّنا عدنا إلى المزاجلة.
- أو قل إلى ما يشبه «سهرة الأمثال» التي كتبها الفرنكوفونيّ جورج شحاده.
- وفي مطلق الأحوال، يحضرني قول بنيامين فرنكلين الذي جاء فيه: الكسل يجعل كلّ شيء صعبًا

- بينما العمل يجعل كلّ شيء سهلاً.
- أحسنت يا أستاذ. العمل عبادة، والكسل وسادة الشيطان،
- على حدّ قول الإسكندر المقدوني.
- على العموم، الكسلان يتأخّر فيما الآخرون يتقدّمون. إنّه يفكّر بطريقة ملتوية، وقد يلجأ إلى أساليب مستنكرة في الحياة والمجتمع، فرأس الكسلان معمل الشيطان.
- على حدّ قول...
- وفي الخلاصة فإنّ الكسلان معلّم لا فضل له.
- سيّد جبران، أشكرك على هذه الشروحات الموضّحة والمقنعة في آن معًا.
- دعني أضيف أنّ تجارب الآخرين هي دروس لهم ولغيرهم. وهي أنواع منها المعروض أمامنا، ومنها المدوّن في بواطن الكتب أو المصوّر في الإنتاج المرئيّ والمسموع، وهي عِبر لنا جميعًا.
- إسمح لي أيّها المعلّم أن أختم قائلاً: العاقل مَن عرف كيفيّة استخلاص العِبر والاستفادة من الحكم، ولو كانت «من أفواه المجانين» الذين لا يقصدون تعليمنا ولا فضل لهم علينا.
- دعني أختم بقول حكيم يونانيّ أوصى ابنه قائلاً: يا بنيّ، خذ العبرة من الآخرين، ولا تجعل نفسك عبرة لهم.

- كم كان عمرك قصيرًا يا جبران!
- لي أعمار كثيرة...
- لو قارنّاك بميخائيل نعيمه الذي ناهز....
- دعنا منه، لو سمحت.
- إسمح لي بانتهاز هذه الفرصة الثمينة لأطرح عليك سؤالاً شخصيًّا.
- تفضّل. إنتهز.
- أما زلت تؤمن بالتقمّص؟ وأين أنت الآن ، بعد مرور أكثر من ثمانين عامًا على وفاتك؟
- أُفٍّ، ما أكره الانتهازيّين!

الخلق

II

- بادرني بقوله: ما الذي أتى بك مجدّدًا إلى «هذه الغرفة المنفردة الهادئة حيث جلست بالأمس المرأة التي أحبّها قلبي»؟
- أنا لم أبرح مكاني منذ لقيتك لأوّل مرّة، لأنّك ترفض أن تغادرني، لذا ألازمك كظلّك.
- حتّى ظلّنا يتخلّى عنّا عندما ننسحب إلى العتمة.
- أنت منذور للإضاءة، مكرّس للتنوير، موقوف للإشعاع... وكلّ عتمات الدنيا لا تستطيع إخفاءك.
- لمَ لا تدعني وشأني؟ أنا في حداد على المرأة التي أحبّها قلبي...
- أخاف عليك، أيّها المجنون، وقد خطّت يمينك اعترافك: «قبل الانتحار»، في آخر عواصفك، أن...
- لست بحاجة إلى إشفاق المشفقين، وغيرة المرائين، ووعظ الواعظين.
- أنا...
- أنت مجرّد انتهازيّ، تتسلّل إلى مخدعي، وتفسد عليّ خلوتي، وتحاول كشف أسراري.
- أنا مريد من مريديك، أستنير بفكرك، وأجنّ بإبداعك، وأتعقّل بجنونك.
- «إنّ رسم المرأة التي أحبّها قلبي لم يزل معلّقًا بجانب مضجعي، ورسائل الحبّ التي بعثت بها إليّ ما برحت في العلبة الفضّيّة المرصّعة بالعقيق والمرجان، و

أسرة جبران

مقالات

- وذؤابة الشعر الذهبيّة التي حبتني بها تذكارًا لم تخرج قطّ من الغلاف الحريريّ المبطّن بالمسك والبخور...»
- أراك تحفظ جيّدًا ما كتبته!
- أنت أيقونة لنا، نحن اللبنانيّين، فكيف لا
- أنا أكرهكم يا بني أمّي لأنّكم
- لأنّنا نكره «المجد والعظمة».
- أنا احتقركم لأنّكم
- لأنّنا نحتقر نفوسنا.
- أنا عدوّكم لأنّكم
- لأنّنا «أعداء الآلهة» ولكنّنا لا نعلم.

المفكّر

- لا يكفي أن تقرّ بالواقع المخزي، كان الأولى بك أن تساعدني في حفر القبور!
- لنعد إلى امرأتك. كيف توصّفها؟
- «هي مخلوقة عجيبة صنعتها الآلهة من وداعة الحمامة وتقلّبات الأفعى وتيه الطاووس وشراسة الذئب وجمال الوردة البيضاء وهول الليلة السوداء مع قبضة من الرماد وغرفة من زبد البحر».
- وما ذنبها في ما تفعله ما دامت الآلهة هي التي أفرغتها في هذه الصورة؟
- أنا لا أدينها، وإنّما أوصّفها. وقد وصلت إلى تحديد مكوّناتها بعد أن عرفتها أيّام الطفولة «فكنت أركض وراءها في الحقول وأتمسّك بأذيالها في الشوارع» هكذا بكلّ بساطة.
- وعرفتها أيّام الصبا «في الكتب والأسفار» وفي مشاهد الطبيعة الساحرة.
- إنّها مرحلة الرومنسيّة و

النساء الثلاث

- وعرفتها أيّام الرّجولة «فكنت أجالسها متحدّثًا وأسألها مستفتيًا وأقترب منها شاكيًا ما في قلبي...»
- إنّها مرحلة التأمّل و
- «أمّا اسم المرأة التي أحبّها قلبي فهو الحياة».
- ولكن، ماذا عن قولك «الحياة امرأة ساحرة حسناء تستهوي قلوبنا، وتستغوي أرواحنا، وتغمر وجداننا بالوعود، فإن مطلت أماتت فينا الصبر، وإن برّت أيقظت فينا الملل»؟
- لم أجد ما أشبّه به الحياة خيرًا من المرأة
- وقد جاء تشبيهك موفقًا جدًّا.
- دعني أكمل، لو سمحت. ذلك أنّ المرأة رمز للجمال والحبّ والإغراء، وسبب يشدّ الرجل إلى العيش.
- وقد اخترت من بين النساء تلك الساحرة الحسناء البارعة في الكلام، التي تتسلّط على القلوب فتستغويها، وعلى الأرواح فتفتنها وتجذبها إليها،

- والتي تملأ نفس الإنسان أملاً بحلاوة حبّها ووصالها، فتطمعه حتّى يصير أسيرًا لأحلامه المنتظرة.
- ولكنّ هذه المعشوقة غير عادلة!
- صحيح. إنّها تتصرّف بطريقة عشوائيّة استنسابيّة، ففي حين تصمّ أذنيها عن توسّلات البعض وتدير لهم ظهرها فيكادون لا يحصلون منها على التفاتة لا تُسمن ولا تُغني من جوع، تُغدق نِعَمها على البعض الآخر، وتعطيهم من خيراتها ما يفيض مرّات ومرّات عن الحاجة.
- أمّا أولئك العشّاق المحرومون فيظلّون يمنّون النفس بالحصول على ما يطمعون به صابرين على المماطلة حتّى ينفد صبرهم ويقعوا في اليأس.
- وأمّا أولئك المحظوظون فيشبعون أنانيّتهم بالمتع الموفورة حتّى يتسرّب الملل إلى نفوسهم. دلا شكّ في أنّك توصّلت إلى هذا التشبيه، بعد تأمّل عميق في أحوال البشر ومواقفهم من الحياة، فوجدت أمامهم طريقين مسدودين هما طريق اليأس وطرق الملل.
- هذا ما رأيته.
- يبدو أنّك أردت أن تشخّص مرحلة ما قبل الانتحار، لا أن تصف كيفيّة تفاديه. فهل لك أن تذكر ذلك لنا كي لا نصل إلى هذه الحافّة الخطرة.
- تبًّا لكم أيّها الكسالى الذين لا يكلّفون أنفسهم عناء التفكير والاستنتاج. تريدون كلّ شيء جاهزًا، تكتفون بالأخذ دون إعمال الفكر. أنا أكرهكم
- لأنّنا كسالى. ولكن، ما هي الطريقة التي يمكننا بواسطتها عدم الوقوع في اليأس أو الملل؟
- هيّا، أعمل فكرك.
- أعتقد أنّ أفضل السبل هي أن يكون الإنسان واقعيًّا في الحياة، وأن يعرف أنّها ليست دربًا مفروشة بالورود والرياحين، فيتعامل مع الواقع، ويتطلّع نحو المستقبل، يضع يده على المحراث، وينظر إلى الأمام، يعمل لأنّ «من لا يعمل يصبح غريبًا عن الفصول»، ويحلم لأنّ «من لا يحلم يتأكّله العفن»، ويرجو طيف السعادة،

وما السعادة في الدنيا سوى شبح يُرجى، فإن صار جسمًا مَلّه البشر

- فإن أدركها وخاف الملل، فعليه أن يخلق لنفسه أهدافًا جديدة، وأن يوسّع دائرة اهتمامه، وخصوصًا، أن يخرج من أنانيّته ليشرك الآخرين بالنعم التي أُغدقت عليه، ولا شكّ في أنّه سيجد من يكفكف دموعهم، ويبلسم جراحهم، ويأخذ بيدهم في سبل الحياة الشاقّة.
- لقد قصرت النظر على فئة ولم تلتفت ناحية من يشعرون باليأس.
- على الإنسان أن يتمسّك بطيف الأمل، فلولا الأمل لبطل العمل. وعليه أن يثور على واقعه، ويعيد النظر في خياراته، ويطوّر قدراته.
- وأخيرًا، إذا كنت قد اكتفيت بالتشخيص في قولك الذي تفضّلت بتوسيعه وإلقاء الضوء على تضميناته، فإنّك ذكرت في كتابك «النبيّ» المثلّث الذي يجعل الإنسان في صلح مع الحياة ويبعد عنه فكرة الانتحار، ألا وهو: العمل والمحبّة والعطاء، فبهذه الأمور الثلاثة ينقذ نفسه.

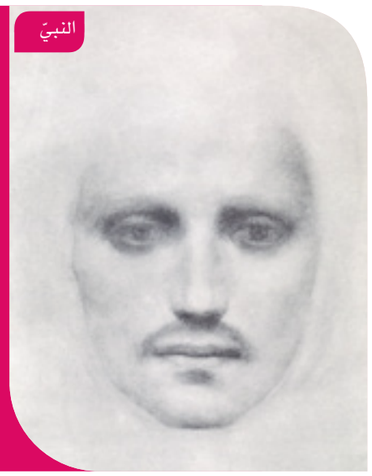
النبيّ

- خير لك أن تستنتجها متأخّرًا من أن لا تستنتجها أبدًا!
- ولكن ، ماذا قصدت بقولك «الحياة امرأة تستحمّ بدموع عشّاقها وتتعطّر بدماء قتلاها»؟
- تتطوّر الحياة، أكثر ما تتطوّر، بفضل الجهود الجبارة التي يرافقها الكثير من الإخفاقات والتضحيات والمغامرات التي تستدرّ الكثير من الدموع والدماء.
- وماذا عن قولك «الحياة امرأة ترتدي الأيّام البيضاء المبطّنة بالليالي السوداء»؟
- إنّها مزيج من انتصارات وهزائم، ومقابل كلّ صعود هبوط.
- «الحياة ترضى بالقلب البشريّ خليلاً وتأباه حليلاً».
- أجل. فهل رأيت كبارًا جمعوا ثروات طائلة ولم يلجؤوا إلى أساليب غير شرعيّة، وممارسات دنيئة؟
- «الحياة امرأة عاهرة ولكنّها جميلة ومن يرَ عهرها يكره جمالها».
- فكّر في هذا الكلام، ولا تكن كسولاً، فإنّني أكره الكسالى.

شجرة الحياة

انتهت جاكلين ؟ حاشا!

د. أنطوان معلوف

د. أنطوان معلوف

لو كان الكاتبُ غيرَهُ، فانسلخَت عنه، في موكب رهيب حافل بالأوجاع، شريكةُ العمر وأمُّ البنين، جاكلين، وقد حوّلها من حضورٍ إلى غياب، داءٌ أخرس لئيم يهزأ بالطبّ والأطبّاء، حتّى ليبدو وكأنّ الله انزوى عن خَلْقه، فطوت السماء بساطها وشمّرت تلحقُ به- إذن لكان انسلخ عن «الكرمة» والأغصان، وسقط، وكان سقوطه عظيمًا.

لكنّ الأديبَ العصاميّ، الأكاديميَّ العميدَ والصحافيَّ صاحبَ «البلاد» د. أنيس مسلِّم، بقيَ هو، هو؛ ترنّح وما تعثّر، فاستوعب الضربة القاضية، وتمسّك بصارية الإيمان في سفينة يتقاذفها صخبُ الموج، وهياجُ الريح، حتّى إذا سكن البحر والهواء، سار بها مجرّحةً إلى برٍّ جريح. يقول في مؤلّفه القاسي والرائع في آنٍ معًا، «على أوتار الحنين»: «ورجعتُ وحدي، بعد مراسم الصلاة... خمسون سنة أمضيناها سويّة، انطوت».

■■■■

وحين جلس إلى مكتبه، وأغمض عينيه، وحاول أن يجمع ذاته إلى ذاته، وقد توزّعت شتاتًا بين عيادات ومستشفيات وغرف عمليّات وصيدليّات، كاد يسقطُ لو لم يتداركه «حضورها». يقول «... ثمّ ينجدنا الإيمان فيلمع في الأفق برقُ الرجاء بخلود الرّوح، لأنّ الحبيب، وإن مات، يُواصل حضوره، مصرًّا على رفقتنا إلى نهاية الطريق، أي إلى بداية الحياة الثانية».

لكنّ الرجل الصّلب ليس ساذجًا حتّى يقطع الشكّ باليقين على عجلٍ. لا بدّ من أن يكون، وهو الأكاديميّ اليقظ، عرضةً للشك، والقداسة نفسها، باعترافِ قدّيسين كثيرين، معظمها ريبة. لو لم يكن هذا شأنه حذرًا وقلقًا، لكان اكتفى بما جاد به عليه الإيمان من أجوبة جاهزة عن الأسئلة الكبيرة حتّى قبل طرحها.

إنّ الكاتب في جوعه إلى المطلق، غاص على الأعماق بحثًا عن أجوبة يطرحها عليه السرّ المغلق في مجاهل الكون ومجاهل الإنسان. وهذا السعي النبيل خَلَعَ على الكتاب حلّةً من الأدب الباقي في الأمم العريقة!

■■■■

«على أوتارُ الحنين» هو بحقّ سمفونيّة، تَعاونَ على صياغتها الألم والجرح العميق، والدهشة أمام خبايا المصير، واهتزاز الإيمان والسير بين فصلٍ وآخر، على حبلٍ مشدود بين جداريْن وسطحيْن: العدم والكون، والإيمان والكفر، والفلسفة واللاهوت، وباسكال وفولتير، حتّى إذا أدّت الكلمات دورها أفضت بالكاتب إلى «الصمت العميق، ومن ثمّ إلى «متعة» التأمّل في أبعاد الكون بما في ذلك الزّمن والأبديّة...»

هذا الترجّحُ بين نقيضين خاصّةُ العقول الكبيرة، وسرّ ديناميّتها، وسحر الفنون وعلى رأسها الموسيقى والكتابة. وأنتهزُ الفرصة فأطرح سؤالاً: هل تقصّد الكاتب كلمة «متعة» أو سقطت سهوًا من قلمه؟ وكيف يكون التأمّل في أبعاد الكون بما في ذلك الزمن والأبديّة- متعة؟ أما كان باسكال يقول: «تلك المسافات اللانهاية لها في الكون، ترعبني». ولكن على عكس هذا الفيلسوف الفرنسيّ في القرن السابع عشر، فإنّ عالمًا فلكيًّا معاصرًا هتف حين رأى في مرصده الإلكترونيّ أبعد النجوم عن كوكبنا وأقربها تاريخًا إلى ولادة الكون: «إنّي أرى وجه الله!». وتلك لو صحّت أمتعُ المتع. أمَا قال سعيد عقل في صلاة تبنّتها الكنيسة المارونيّة: « أعطنا ربّ قبل كلّ عطاءٍ.... أعطنا ربّ، أعطنا أن نراك!»؟

■■■■

والواقع أنّ «أوتار الحنين» يحتمل قراءتين مختلفتين: الأولى خبريّة محورها في جلّه كلام على الراحلة في حبّها الحياة، وصبرها على المرض، وإيمانها بعناية الربّ التي تجعل طريق الجلجلة تقود إلى الصليب، وتجعل الصليب مرقاةً من الألم يقود إلى لقاء السماء... والثانية إنشائيّة وجدانيّة، أخلاقيّة قيميّة من الطراز الأوّل: الحبّ الزوجيّ!... وقد كان بين جاكلين وزوجها علاقة رائعة، قوامها الشغف المتبادل، والفرح معًا. صحيح أنّ الأديب اعترف بأنّ الصفو كان يعروه أحيانًا عكرٌ عابر، ولكنّ هذا الاعتراف يؤكّد لنا صدق الأديب!

هاتان القراءتان لا تستهلكان الكتاب، فلكلّ قارئ قراءته. المهمّ في الكتاب أن يفتح أمام ذهن القارئ وخياله وأفكاره آفاقًا تسهّل عليه الحياة، وتجمّلها؛ فكيف لا يكون رائعًا هذا العزف «على أوتار الحنين»، وقد تناول أشدّ أمور الحياة وجعًا: موت الأحبّة، وأنجعها دواءً: الإيمان بعناية الربّ، وأصدقها متعةً: الحبّ!

■■■■

الحبّ بين زوجين ما أروعه مثلاً أعلى يغرف منه أبناؤنا وأحفادنا! أليس جرأةً ومغامرةً ومدعاةً للدهشة أن يُقدم رجلٌ شرقيّ على الكتابة جهارًا في حبّه امرأته وشريكة عمره؟ ونسأل: ما هي «أبعاد الكون»، إذا تأمّلها الإنسان حصد المتعة؟ أوّل هذه الأبعاد الإنسان! والإنسان لعلّه وحده بين المخلوقات من وعى الأبعاد وسمّاها أبعادًا. ولكنّه، وَيحه، نسي أنّه أعلاها شأنًا لأنّه يعي ويعقل ويفكّر ويبتكر، وخصوصًا لأنّه يحبّ، وإلاّ لما كان إنسانًا. كانط يقول إنّ الإنسان ليس رجلاً وحسب، أو امرأةً وحسب، بل هو الاثنان مجتمعيْن. قد ينفصل أحدهما عن الآخر ويعبر إلى الضفّة الثانية، ولكنّه انفصال جسديْن إلى حين، أمّا الروحان فلا شيء يفرّق بينهما، فالحبّ أقوى من الموت. طالع الكتابَ يطالعُك في كلماته وبين سطوره، وفي سياقه، وسواحله القريبة وأفقه البعيد، - شخصٌ حبيبٌ كلُّ ما في الكتاب ينضح به، وكان حريًّا به أن يتربّع اسمُه وحدَه على الغلاف عنوانًا، لا قبله ولا بعده: «جاكلين».

مفاصل الكتاب، ومغالقه ومفاتيحه: هي جاكلين. وحدة الموضوع، وهذا نادر في العربيّة: هي. بطل الكتاب الأوحد: هي. ولا عجب إذا انضمّت جاكلين إلى المعشوقات الخالدات: لورا بترارك، ليلى قيس، أولغا، إليز، إلفير...

وهنا يلحّ عليّ أملٌ لن أكتمه: «هلاّ جاد علينا د. وليد أنيس مسلّم، وهو عازفُ البيانو الماهر ورئيس الكونسرفاتوار الوطنيّ، بسمفونيّة عنوانها «جاكلين»؟

■■■■

إنّ جاكلين «روحًا ملائكيّة» كما سمّاها الأديب، وجسدًا نورانيًّا بحسب مار بولس، «انتقلت إلى الضفّة الثانية» بحسب قول القدّيس أغسطينوس في وفاة أمّه القدّيسة مونيكا...

وقد قال يوحنّا فم الذهب في رثاء سيّدة أنطاكيّة: «أوصتني ثيكلا أن أضع بين يديها في النعش قارورة من عطر النارديْن، وحُقًّا من بخور غابات لبنان، حتّى إذا شرّعت لها السماء بابها خفّت إلى المسيح في حضن مريم، فسكبت العطر على أقدامه، ودارت بالمبخرة في أرجاء الفردوس. ويقولون انتهت ثيكلا؟ حاشا!»

ونحن نقول: «انتهت جاكلين وسيرتُها ناردين وأعمالُها بخور؟ حاشا!»

الشباب بين الطموح والجروح

ميشيلّا رستم
طالبة هندسة كهربائيّة- سنة ثالثة

ألا تحزن عندما تسمع بقصّة شابّ أو شابّة من شبابنا تخرّجا من الجامعة بشهادة استحقّاها بجدارة، وراحا يجدّان وطويلاً في البحث عن مهنة تتيحُ لهما تأمينَ لقمة العيش، ولكن عبثًا، ليهاجرا من ثَمّ وراء فسحة أمل خارج الوطن؟!

ألا تتنابُكَ الحسرةُ عندما ترى بأمِّ العين خِيرَة شبابنا تمتصُّهم تيّاراتُ الهجرة رويدًا رويدًا، وتقذفُهم شتاتًا في أربعةِ أرجاء المعمورة، بعيدًا من أرضِ الوطن وجَمْعَةِ الأحبّة؟! كَمْ مِن أمٍّ بَكَتْ وَحيدَها لِبُعدِهِ عنها نتيجةَ واقعٍ رزَحَتْ تحتَ وطأتِهِ رُغمًا عنها؟!!
أتصوَّرُ حاليَ حالَ معظم الشباب، أتخرّجُ مفعمَةً بالأمل والحماسة، مؤمنة بمستقبلٍ واعدٍ تصوَّرْتُهُ صافيًا نقيًّا، أحاولُ بناءَ صرحٍ تعْلو مَعَهُ أهدافي وأحلامي..
وفجأةً، وفي لحظة ليُسَد ككلّ اللّحَظات، أجدُ نفسي أقرَعُ أبوابَ المسؤولين، أستجدي أصحابَ النّفوذ، علّي أجِدُ فرصَةَ عمل. فأنا مسلوبةُ الكرامة والعنفوان، متخاذلة، تهبُّ بي رياحُ الضّياع وتنهالُ عليّ كالسِّهام، فتنهارُ كلُّ أحلامي!
أنا..

خططتُ الأملَ بحروفٍ من عَزْمٍ؛ إلاّ أنّ مرارةَ الزّمن القاسي مَحَتْه.
رسمتُ بَسْمةً على مُحيّاي؛ إلاّ أنّها ذابَت وتلاشَت بين دُموعي.
عكستُ أمامي لوحةَ أيّامي، فتأمّلْتُ شقاءَ سني الدِّراسَةِ ومُتعتَها، ورأيْتُ تعَبَ الأهلِ وسَهَرَ اللّيالي وفرحَهُم بنجاحي.. وتفوّقي أيضًا.
أيروحُ كلُّ ذلكَ سُدىً؟ ألا يَحِقُّ لي أن أحصُدَ ما زرعتُ؟ أعَبَثًا اجتَهَدْتُ وتعلّمْتُ وطَمِحْتُ؟ أبلمحةِ بَصَرٍ يتبدَّدُ الطّموح ويزولُ الفرحُ، فتكثرُ الجروحُ، وأختبرُ أشدَّ آلامِ الانكسار؟!

آه!! بأيِّ إيقاعٍ أخرجُ إلى الحياة، وبأيِّ إيقاعٍ أصطدمُ؟؟
بين صفوفِ الأحلام ودموعِ الأيّام، أنا أعيش.
بين أحلامِ الخيال ومرارةِ الواقع، أنا أتأرجَح.
بين الأمل والألم، تُراني ما الذي أختاره؟؟
ماذا أختار؟!
أقولُها وبالفم الملآن: الأمل!!!
لماذا؟!
لأنّي، لأنّنا أبناءُ الأمل، بل أبناءُ الحياة!
لا! لن نرضخَ لواقعٍ فُرِضَ علينا!
نحنُ مستقبلُكُم الواعِد، أيّها المسؤولون المسؤولون، فهلمُّوا إلى نجدتِنا!
نحنُ أبناؤكُم، فهلمُّوا إلى نُصرتِنا!

فإنّه بعزمِنا وأملِنا وإيمانِنا بغدٍ أفضل، من الممكن تحقيقُ غير الممكن! نعم! من الممكن تأمينُ فُرَصِ عَمَل تستوعبُ الجميع. فأرضُ الوطن لِمَن تكون؟ أوَلَيْسَت لأبنائها؟!

الوصيّة الرابعة

فادي يوسف خليل
موظّف في مركز الكمبيوتر

كان خلاص العبرانيّين على يد موسى من مصر؛ ففي بريّة سيناء دعا الله موسى إلى الجبل وأملى عليه الوصايا (خر ٢٠/١-١٧)، فكانت عشرًا، كلّها ملزمة؛ ومنها نتوقّف عند الرابعة التي تختصّ بالأولاد نحو والدِيهم، والوالدين نحو أولادهم، وواجبات الأولياء والمولّى عليهم، والمعلّمين والتلاميذ، والمسؤولين ورعاياهم ومواطنيهم، وأصحاب العمل وعمّالهم.
«فأكرم أباك وأمك» لا تتصل إذًا بالوالدين والأولاد فقط، بل تتعدّى ذلك حتّى إلى الملوك ولو كان المَلِك وثنيًّا. (راجع: أف ٥\١٦ و١تيم ١\١٢-٣ و١بط ٢\١٣ ومر ١٢\١٧)

إكرام الوالدين

قال ابن سيراخ: «من أطاع الرّبّ أراح أمّه. ويخدم والديه كأنّهما سيّدان له.» (سي ٦\١٣-٧) لأنّ بركة الأب توطّد بيوت البنين، ولعنة الأمّ تقلع أسُسَها» (سي ٩\١٣). لو تأمّلنا بهذه الآية، لوجدنا فيها وعدًا مباركًا لكلّ ولدٍ يحترم والديه، ولعنةً على كلّ ولدٍ عقوقٍ لا يحترم والديه ويكرّمهما قد تدمّر بيته»؛ وكم هو ملعون الولد الذي يسخر بأبيه أو بأمّه إذا ما شاخا «لأنّ هوان الأب ليس فخرًا للأبناء، فإنّ الاحسان إلى الأبوين يعوّض عن الخطايا ...» (سي ٣\١٣-١٦)!

نقرأ في سفر الأحبار «ليحترم كلّ إنسان أباه وأمّه» (أح ٢\١٩-٣). وبولس الرّسول قال: «أيّها الأولاد، أطيعوا والديكم في الربّ، فإنّ ذلك عدل» (أف ١\٦). بل نتذكّر المسيح، له المجد، في تتميم إرادة «والديه» من دون تذمّر أو احتجاج، «ورجع معهم إلى الناصرة وكان مطيعًا لهما» (لو ٢\٥١). فإذا كان ابن الله، بكلّ عظمته، يطيع «والديه» بكلّ احترام وفرح، فأبسط ما علينا نحن البشر الخطأة إذًا أن نقدّم لأهلنا كلّ الاكرام والاحترام والطاعة.

وبالمقابل على الآباء والأمّهات معاملة الأبناء المعاملةَ اللائقة الحاضنة الرشيدة.
يقول بولس: «أيّها الآباء لا تغيظوا أولادكم، بل ربّوهم بتأديب الرّب ونصحه» (أف ٦\٤).
وإذا عدنا إلى سفر التكوين، نرى أنّ الله، منذ البدء، أراد أن يتّحد آدم وحوّاء لانجاب البنين: «أنموا واكثروا واملأوا الأرض» (تك ١\٢٨) وكلمة أنموا ليس معناها الطول والعرض، بل المسؤوليّة العظيمة الملقاة على الرجل والمرأة في تربية الأولاد تربية صالحة. «لا تتغافل عن إساءة ولدك. طوّعه في صِغره واضربه على جانبيه لئلاّ يصير عنيدًا فيَعصيَك ويُحزنَك. أدّبه واجتهد في تهذيبه لئلاّ يأتي بما يُخجلك» (سي ٣٠\١١-١٣). الربّ دائمًا يدفعنا إلى المحبّة ليكون أولادُنا مسرّة لقلبنا وتمجيدًا لله.

واجبات المعلّمين والتلاميذ

وتشمل الوصيّة الرّابعة جميع المتولّين على التربية، وخاصّة مدراء وأساتذة المدارس؛ فعلى هؤلاء أن يهتمّوا ويُعنوا ليس بالدروس فحسب، ولكن أيضًا بالتنشئة على الأخلاق والفضائل على أنواعها من دينيّة إلى إنسانيّة إلى اجتماعيّة ووطنيّة، برحابة صدر ومثال صالح وسهر دائم...

وعلى التلميذ أن يفكّر بتعب والديه وما يبذلان دونه من جنى عرقهم وسهرهم، فيقابل ذلك بالاجتهاد، وإلاّ يكون كلصّ سارقٍ جَحود، وبالتالي لا يبالي بما يُقدَّم له من علوم ومعارف وتربية غذاءً لعقله ووجدانه...

واجبات الحكّام والموظّفين

على الحكّام أن يقوموا بالعدل والنظام على جميع أبناء الوطن من دون محاباة الوجه، بل لِيَضَعوا الله نصب أعينهم ويذكروا أنّه قبل أن يكونوا حكّامًا هم تحت حكم الله ... وهذه الواجبات تشمل كلّ موظف في وظيفته حتّى أعلى سلطة في الوطن، لأنّ الكتاب المقدّس يقول: «إذا كثر الأبرار فرح الشّعب، وإذا حَكم أو تَسلّط الشّرير انتحب الشّعب» (أم ٢\٢٩)...

فعلى الجنود والموظّفين إذًا أن يُحسنوا الإخلاصَ للمسؤوليّات الملقاة على عواتقهم، فيقوموا بواجباتهم خير قيام من حفظ حرمات وقوانين وحقوق، من دون تمرّد ولا تذمّر ولا سوء أمانة...
.. وهكذا تتمّ الوصيّة الرابعة!

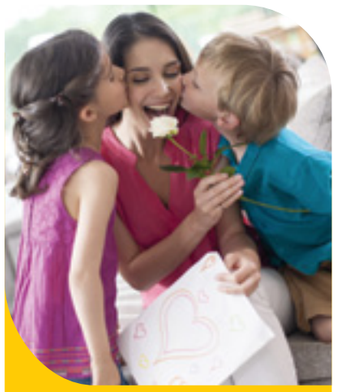

قصّة

ابتسامة رضا

د. ناتالي الخوري غريب

هيّا يا فتيات... اليوم يوم الربّ، علينا جميعًا الذهاب إلى الكنيسة.

حاضر يا أمّي- قالت جنى. أنا جاهزة- قالت ربى. ولم يكن ثمّة صوت ثالث إلاّ تململ لين تحت غطاء السرير. أمّا رضا، الطفل المدلّل، على كرسيّه المتحرّك، فكان لا يتقن إلاّ لغة العيون والابتسام سبيلاً إلى التواصل، هو الذي لم يغب لحظة عن دعاء الأمّ والأب في صلواتهما، كان له النصيب الأكبر من الحبّ والاهتمام.

وكان أحد تلاه آخر، تلاه آخر، تلته أعياد وفصول. العظات عينها، التقوى عينها لا تنقص ولا تزيد، الطلبات عينها، شفاء ودعاء وتوفيق. ومرّت السنون. وكلّ واحدة من الفتيات اختارت طريقها. وفي كلّ يوم، تزيد حالة رضا سوءًا، وتتوتّر أجواء المنزل، وتكثر المعوّقات، والأمّ تدعو ربّها. ليس سهلاً عليها فوق مهامّها الاعتناء برضا، لكنّها أبت إلاّ أن تشرف على رعايته. وفي كلّ شهر عمليّة جراحيّة جديدة، وأمل جديد ينكسر قبل أن ينتهي ميقاته... والخيبات تنسيها خيبات أكبر منها، والآمال بالشفاء دائمًا في مكانها ترواح.

كانت كلّ فتاة تحاول إرضاء أمّها بطريقة ما. جنى وربى كانتا نسخة عن أمّهما. أمّا لين، فاختلفت عنهما قلبًا وقالبًا. كبرت، تحاول أن تبعد عن قلبها الغضب المشتعل دومًا نقمة على مصاب أخيها وحزن أمّها. أين العدل يا ربّي؟ وما ذنب أخي أن يقضي العمر وحيدًا بلا آمال وطموحات؟ وهذه الوحدة الآسرة؟! ماذا تراه فعل لك حتّى تعاقبه هكذا؟! هل تعاقبه أم تراك تعاقب أمّي وأبي؟ ماذا فعلت لك أمّي وهي تصلّي لك ليل نهار؟ لم لا تنظر إلى صلاتها ولا تصغي إلى طلباتها؟ أتراه أبي هو المذنب؟ ولمَ يضرس أخي إن أكل الحصرم أبي؟

■■■■

كنتُ أكبر ويكبر حزني، وتكبر وحدتي وغربتي. لم أكن أجرؤ يومًا بأن أصارح والدتي بالأمر، ولا والدي، تكفيهما خيبة الأيّام بأنّ الصبيَّ مرتجى العائلة وحاملَ اسمها أمام أعينهما موجوعٌ وحيدٌ وكئيب، لا أصدقاء ولا أحبّاء.

كنتُ أغرق في عينيه، أراه يبصر الشفقة في عيونهم ويبتسم، أراه يبصر الآمال في وجوههم ويحلم، أراه يصغي إلى ضحكاتهم ويحاول أن يحاكيها، أراه يراقبهم نيامًا، ويسهر. أمّا أنا فكنت أراقبهم جميعًا وأبكي. كنت كالمهرّج الذي يحاول أن يخفي قلقه وحزنه بابتسامات تعجّ حياةً وتولّد فرحًا.

كم أحسدك يا رضا في بعض الأحيان أنّك لا تتكلّم لغتنا، هذه اللغة اللعينة، التي نُسقط عليها معاني جارحة وقاتلة. كم أحسدك على لغة عينيك النقيّة التي تتقنها، وتزرع في قلوبنا صفاءً هجرَنا.

ومع ذلك كانت أحلامي بالأمومة تكبر كما مخاوفي منها!! وكبر معي هاجس جديد، غير شفاء رضا!!

■■■■

إلى أن سمعتْ أمّي يومًا حديثي مع صديقي كريم. كان الجوّ عاصفًا، تمامًا كالعاصفة التي لا تعرف انتهاء في داخلي.

– انظر يا كريم!! هذا «النفناف» المطرود من فوق تفركشه الريح المغناج، يستسلم لها، تراقصه دوائر دوائر، وحين تملّ منه وتهرب، يعي سقطته الحتميّة على رأسه، ويخبر من سبقوه أنّه كان مخدّرًا لانعدام الحرارة، لكنّه في المرّة الثانية، سيتصدّى للريح، ليس لمقاومتها، بل لتفركشه مرّة أخرى.

– ماذا تريدين أن تقولي! أتهربين منّي؟! ولم ستحببينني مرّة أخرى وتهربين؟ لا أفهمك!

– لن أستطيع أن أكون أنانيّة أكثر يا كريم. أعرف سلفًا أنّي لن أستطيع إسعادك.

– ومن أين لك أن تعرفي! أردّد اسمك، أفرح! يمرّ طيفك، أفرح! أفكّر بك، أفرح! أستحضر عطرك، أعانق الله!!

– الله! الله! الله دومًا!!! أين هو؟! ليتني أعرف أين أجده يا كريم! لديّ الكثير من الأسئلة لأطرحها عليه! ماذا فعل له أخي ليصيبه ما أصابه؟!!

– ثمّة حكمة من وراء كلّ حدث. قد تُخفى عنّا أسبابه، وعلينا القبول بأحكامه.

– ومن قال أنّه لا يحقّ لنا أن نعرف هذه الأسباب؟ ألا يحقّ لنا أن نعرف ميزان عدله؟! أقلّه لنمشي على هدى تعاليمه لتحقيق عدله!! ومن قال لك أنّنا إذا تزوّجنا لن ننجب ولدًا يكون كرضا؟! لن أتحمّل ذلك!! قد أقتله! لا أدري ما قد أقوم به! ومن أين ستضمن أنّ الله لن يسمح بذلك؟!

كان مرورُ أمّي في تلك اللحظة وسماعُها حديثي الذي بدا أنّه وقعَ عليها كالطعنة في خاصرتها:

– لين!!! وما به رضا؟! أيّ كفر هذا تتفوّهين به؟! أتعلمين ما تقولين! استغفري ربّك يا بنيّتي! واشكريه على كلّ ما أعطاك من نعم!

– ها أنتِ يا أمّي تشكرينه دهورًا! ليل نهار! أين مكافأتك على صلواتك؟! هل أصغى إليك يومًا! هل أشفق عليك وأنتِ ترين رضا يعاني كلّ دقيقة؟!

تدخّل كريم وقد راعه منظر الأمّ وابنتها، وعرف أنّ ثمّة أمورًا لا بدّ أن تنفجر بعد طول معاناة لا يعرف معناها إلاّ من عاشها حقًّا في حياته يوميًّا:

– نحن لا نصلّي إلى الله بفعل مصلحة يا لين. نحن نلجأ إلى الله لأنّنا نحبّه. فهو الحبّ المطلق في الحياة، ومن يُفيض كلّ حبّ.

– كفى مثاليّات، أنتم ضمنًا لا تصدّقونها! لا يا كريم، نحن نحبّه بفعل مصلحتنا معه. نحن بحاجة إليه لنرمي عليه بثقل آلامنا وأتعابنا وخيباتنا. نحن نحبّه لأنّه رجاؤنا الوحيد بنفي كلّ عدميّة. لأنّه رجاء القيامة كي لا نصدّق العبث الذي نعيش فيه.

ذهلت الأمّ من كلام ابنتها. لم تصدّق أنّها هي من ربّت هذه الفتاة!! تكاد لا تتعرّف إلى ملامحها! أيكون الشيطان قد دخل إلى عقلها؟ من تراه يعلّمها هذه الخرافات وهي ابنة الكنيسة التي تتردّد إليها أسبوعيًّا وتصلّي معها يوميًّا؟! ها أختاها تزوّجتا وأسّستا عائلتيهما وأنجبتا، وتعيشان حياة مسيحيّة خالصة في الورع والتقوى، ولم تكن لديهما هذه الهواجس.

– من أين أتيتِ بهذا الكفر لين؟!

– أمّي! ليس كلّ من صلّى وناجى أصبح مؤمنًا، ولا كلّ من داجَى وتعثّر أمسى كافرًا، فبين المنزلتين منازل كثيرة يلعب فيها الطين لعبة العبث، تارةً تسييرًا وتارةً تخييرًا وتارةً كسبًا، ويطلق عليها من المسمّيات ما شاء... وحده الله، يعرف الخفايا والنوايا في القلوب والنفوس.كفّوا عن تصنيف الناس بين مؤمن وكافر يا أمّي!

– لين! اهتمّي بأخيك. سأغيب لبعض الوقت وأعود.

– أين تذهبين في هذه العاصفة؟!

– نتكلّم لاحقًا.

وضعت معطفها السميك الأسود، وخرجت.

– لين! حبيبتي!

– أرجوك يا كريم! لن تعاتبني أنتَ أيضًا على ما قلته. ألا تمرّ هذه الأفكار برأسك أيضًا؟ ألا يحقّ لي أن أشارككم هواجسي؟ لم علينا أن نسكت دومًا وألاّ نتجرّأ على قول ما يعذّبنا حقًّا؟

– على العكس. أنا مسرور بك وبشجاعتك. ثمّة أمور نفكّر فيها ولا نجرؤ على قولها. وأنا أفهم أنّ إيمانك برحمة الله الكبيرة جعلك تعبّرين وبصراحة عمّا يعتريك من هواجس.

– هي أكثر من هواجس يا كريم. إنّها مواجع ومخاوف تحفر في وجداني كلّ يوم. خوف من الماضي أن يتكرّر في المستقبل. خوف من أن أعيش تجربة أمّي. أنت ترى أنّها لا تشكو، لكنّي أشعر بوجعها، أشعر بدموعها ليلاً، أشعر بألمها كلّما نظرت إلى أتراب أخي يلعبون ويمرحون، أشعر بغصّتها كلّما واكبت نجاحاتهم وهو قابع هنا على كرسيّه. أشعر بخوفها على خسارته في كلّ مرّة يدخل إلى المستشفى خشية أن تكون الأخيرة.

– دعينا نفكّر بعقلانيّة يا لين. من قال أنّ أيًّا منّا قد لا يصاب بمصابٍ ما يعيقه عن الحركة لاحقًا! بانفجار قنبلة ما، أو حادث سيّارة أو وقوع طائرة أو غرق أو فقدان بصر، أو أيّ شيء من هذا القبيل، حادث طارئ مستجدّ. أنبقى في بيوتنا، لا عمل ولا قيادة خوفًا من أمر قد لا يتمّ؟!

– ذاك يكون باختيار شخصيّ أن يتجنّد أحدهم ليحارب في سبيل قضيّة وطنيّة، أو أن يغامر في سفر ما أو ما شابه. لا أن يولد كذلك.

– سنؤجّل الحديث في موضوع زواجنا إلى حين عودتي من السفر. تتطوّر مراحل وعي الإنسان للأمور وإدراكه لها. ولتتساءلي ما شئت، ولتصرخي ما شئت. يقيني أنّ الله يسكن في قلبك الطيّب هذا. وحده الحبّ نعي به إيماننا وندركه. وحده الحبّ يجعلك تقبلين ما لا يُقبل. وحده الحبّ له منطق خاصّ في المعايب والمحاسن. وحده الحبّ طاقة مبدلّة ومولّدة لقبول الآتي من الزمن وما مضى منه. أنظري حولنا يا لين، ما الذي يمكن أن يجعلنا نقبل بكلّ المجازر المرتكبة باسم الله في القرن الواحد والعشرين؟! علينا أن نعتبر من التاريخ، وأن نبقي مكانًا للأمل...

– كم أحبّ تفاؤلك يا كريم. وكم سيمرّ عليّ الوقت طويلاً في غيابك. كم تشبه كلماتك العطر الذي لا يعرف أن ينام!

– هو عطرك، وحده من يليق به السهر والكلام له ومعه وعليه! فليعجّ ويضجّ ويبسم ويهمس، فلا هو يهدأ، ولا من يمرّ بباله يُلام إذا هجره المنام.

– كم أشعر أنّني معك أعيش في عالم آخر، ينفصل كليًّا عن الحياة التي نعيشها، عالم من زهر يفرح به الدهر. وأسخر من نفسي كيف لي أن أفرّط بك. لكنّ هواجسي أكبر من الأماني. سامحني.

– من قال إنّ الزّهر لا يصغي إلى أمانينا، ويبتسم؟! ومن قال إنّ الصّخر لا تنحته أحلامنا، ويشعر؟! كوني متفائلة، فالدهر يصغي إلى ثرثراتنا، ويصبر...

ودّعها، بقبلة على جبينها، ومضى...

كما العادة دخلت تطمئنّ على أخيها وتقبّله قبل النوم، وعلى غير عادة شعرت به باردًا، مع دموع نزفت في ليلة داجية...

– رضا، حبيبي! هل تشعر بالبرد؟! رضا! رضا! علا صوتها من دون أن تشعر أنّها تصرخ... ثوان قليلة كان والدها إلى جانبها يتّصل بالإسعاف، وأمّها علمت أنّها اللحظات الأخيرة التي تعانق فيها ابنها. كانت تضمّه كأنّه ولد للتوّ، وتتأمّله كأنّها تراه للمرّة الأولى، وتلامس شعره كأنّها تلامسه في لحظة ولادته الأولى...

مرّت شهور، وأنا أعيش المآزم واحدة تلو الأخرى... تأخّرتُ كثيرًا لأعرف قيمة رضا في حياتي، وقيمة ابتسامته التي كانت تطلّ عليّ كلّ صباح وقبل النوم. وكلمات التعزية جميعها، مفردات لا حياة فيها.

تأخّرتُ لأعلم أنّ ابتسامته كانت مصافحة مَحبّة تعلّمني مبادرة الودّ. لم تكن استرضاء لأحد ولا استجداء من أحد. كانت تجليًّا من تجلّيات النعمة والشهود عليها. تأخّرت لأعلم أنّ ابتسامته كانت لغة كونيّة، هي موسيقى الروح في لطيف

انسيابها من وجدان المحبّة في إطلاقها. وليست عمليّة آنيّة في تحريك الشفتين، بل هي طاقة جاذبة إلى ولائم الخير والحسن خيرًا وحسنًا. تأخّرت لأعلم أنّ ابتسامته كانت تمدّني بكلّ الطاقة على حبّ الحياة والثورة عليها في آن.

وها أمّي تعيش طقوس حزنها حتّى ثمالة الرجاء بالقيامة، وبأنّ رضا هو قدّيسها الذي صار في السماء. وها يستعاض عنه في المنزل بصور كبيرة له إلى جانب العذراء مريم، حيث يتفاهمان بلغة ليست من هذا العالم. وفي كلّ يوم باقة زهر جديدة وشمعة جديدة تضاء لتنير عتمة الغربة التي تركها، والبخور أبدًا يشتعل في مجامر حرقة الغياب. والدعاء والطلبات باتت تردّدها حيطان المنزل لكثرة ما أنشدتها أمّي. وكأنّه لم يرحل ... ومن قال إنّ الصدى ليس وفيًّا لصوتٍ غرّد يومًا ومضى؟! فهل يعرف الظلّ ألاّ يكون وفيًّا لرسم رافق صاحبه حيث حلّ ومشى؟!

زاد شوقي إلى أخي رضا ورؤيته يبتسم لي. وحين يؤلمك الشوق إلى درجة تمنّي الموت، فاعلم أنّك أصبحت في المقلب الآخر من المحبّة، حيث اللاعودة راية، والحلم قرار، والوهم ساخر، والواقع يتكلّم بلغة أخرى، فارضًا شروط منع الحلم... وينتفض الواقع على الشرخ الحاصل، على مرأى التمنّي، ليمنعه وينهيه. والحلّ؟ رصاصة في حنجرة التمنّي، أو سكّين تقطع أوتار الذاكرة المتكلّمة لتصبح غير متألّمة، أو إيمان بالذكرى سبيلاً، لا تُرضي نهم القلوب المشتاقة التي شربت يومًا من منبع الحسّ. لكنّه الموت الذي كلنّا نعرف أنّه آت لا محالة. ومن ذاقه يدرك ألم كلّ من ذاقه مهما اختلفت أسبابه وتنوّعت.

تأخّر كريم في العودة من سفره، وفي كلّ يوم مبرّرات جديدة في أسباب التأخير. كان يخاف من أن يكون موت رضا سبّب شرخًا كبيرًا بينه وبين لين. لكن، لا بدّ من التفاهم، ربّما هذا الحدث رسم انعطافًا إلى طريق جديدة.

وعادت الأيّام تزهر من جديد، وعادت الابنة الضالّة... ورحبّت بعودتها عدالةُ السماء، بعد أن عاشت الانسلاخ بحثًا عن العدالتين، وقد عرفت أنّها عبثًا تبحث عن الأولى بمنطق السماء، وعن الثانية بإيمان أهل الأرض. وحده الحبّ يقين، يقي من الشكّ والتساؤلات. وحده طريق المعرفة إلى كلّ حقيقة نطلبها.

من قال إنّ الملائكة لا تغار من العاشقين الذين تحرسهم؟!

من قال إنّ السماء لا تتمنّى أن تستعير قدمين لتزور الأرض؟! من قال إنّ الأرض لا تنتظر هذه الزيارة منذ الأزل!؟

وكان اليوم الموعود: دخلَت المستشفى، يسراها بيد كريم، وفي يمناها مسبحة بها تصلّي حبًّا لا خوفًا، وقبولاً بكلّ ما تأتي به السماء... وانتظارًا. ساعات قليلة، وكان بكاء الضيف الآتي الذي استغرب العالم الذي يراه للمرّة الأولى، لكنّ ضمّة أمّه محت عنه هذه الغربة سريعًا، فاستكان. ضمّة كانت غطاء الأمان في محبّة الأمومة التي تبذل ذاتها من أجل من أتت به إلى الوجود. نظرت إليه علّه يفهم لغة عينيها، لتقول له إنّها تحبّه وستحبّه نعمة الحياة إلى الأبد. أخذه عنها كريم، يضمّه ويشمّه ويغرقه قبلات تليها دعوات وصلوات.

ومضت السنون سريعًا. والطفل يكبر بنعمة المحبّة... وصوت لين يلعلع من الداخل، كما في صبيحة كلّ أحد: هيّا يا رضا! جهّز نفسك سريعًا، حان وقت القدّاس.

شعريّات

أُكتبي عنه بوريقاتِ روحك

د. غالب غانم

لسيّدةِ الأحزان وسيّدةِ الأفراح، وثوبِ الكونِ الأزرق، وجنّةِ الأمومة...
للرّسولةِ والرفيقةِ والمليكةِ والمصطفاةِ والجميلةِ والعذراءِ والبنفسجةِ والأيقونةِ والأرزةِ السماويّة...

أقول:

هاءنذا أعترفُ أمامكِ بأنّ كلماتي عاجزةٌ عن تمجيدكِ، والانضمامِ إلى ثَنيّاتِ روحك، والدنوِّ من مدائنكِ البيضاء، والتقاطِ خيوطِ النّور في تجلّياتك، والركوعِ على تراب لبنان الذي لامستِهِ وباركتِهِ وأطلقتِ على أديمهِ أوّلَ طقسٍ من طقوس الخمر المقدّسة وأوّلَ علامةٍ من علامات الألوهة.

وأقول:

رجوتُكِ خذي بيدي و«احلُلي عقدةً من لساني»، واكتبي أنتِ يا سيّدتي على بعضٍ من وريقات روحك، وانشري نُسيماتِكِ في كلّ صوبٍ وفي كلّ قلب.
لا تَصُدّيني!.

ألستِ أنتِ من كنتُ أفيءُ إلى نَعمائها في الشدائد، وأذكرُ اسمَها عند كلّ حلٍّ وترحال، وهبوبِ ريحٍ وغيابِ حبيب، واجتيازِ محنةٍ وترقّبِ نجمةِ صبح... ومَن كنتُ أكلّمُها بالصلاةِ الصّامتة ونُشوات التأمّل ونُشدان البهاءِ الكُلّيّ؟

ألستِ أنتِ مَنْ كنتُ أَلْثُمُ حجارةَ كنيستها جيئةً وذَهابًا في دروبِ الرّيف، وأضمُّ أيقونتَها إلى صدري...ومَن لا أُغمضُ جفنيّ كلّ ليلة إلاّ وأنا أتمتم: يا عذراء... ومن قلتُ لمن فاجأني بالسؤال يومًا- إذا حُكم عليكَ بالنفي في جزيرةٍ معزولة فما الرموزُ الثلاثةُ المفضّلةُ التي تحملُها معك- فأجبت: الأوّلُ أيقونةُ العذراء، والثاني مِن ذكرى الأحبّة: صورةُ عائلتي الصغرى ومؤلّفاتُ والدي، والثالثُ شِلحُ أرزةٍ أو حفنةٌ من ترابِ لبنان.

ألستِ أنتِ من كنتُ أُرتّلُ لها مع المرتّلين، زمانَ كنتُ يافعًا وغَضَّ السّريرةِ وصديقًا لفلذة كبدك: «حُبّكِ يا مريم غايةُ المُنى»... «ويا مريمُ البِكرُ فُقتِ الشمسَ والقمرا»... و«مجدُ مريم يتعظّم في المشارق والغروب»... وكنتُ أشعُرُ أنّ العَليَّ يمدّني بدفقاتٍ من العشقِ النورانيّ ومن رقراق نهره العظيم؟

وأُرتّل: «إليكِ الوردُ يا مريم يُهدى من أيادينا»... وكانت تحلو لي تلاوتُها وفي يدي ضُمَّةُ زهرٍ جمعتُها من شقوقِ الصخر في سفح صنّين أو من واحدةٍ عزيزةٍ من الأكمات... عنيتُ أكمةَ «ضهر الحُصين» في بسكنتا حينَ كانت متعدّدةَ الأغراضِ والمنافع:

فهناك تلاقى مُتحابّون يوم كانت منابضُ القلوب وألوانُ الوجنات مقياسًا للشّغف.

وهناك أُهرِقتْ محابرُ واضطّرمت «مجامر» ونَظمَ أعزّةٌ غانميّون أجملَ قصائدهم.

وهناك كان فارسُكِ الصغير هذا يُحرّكُ ما سكنَ من الأنبتة البريّة، ويَنشقُ الفوحَةَ بعد الفوحة، ويلمُّ الزهيراتِ تلو الزهيرات ليضعَها في أقرب مزارٍ مريميّ أو ليجعلَ

د. غالب غانم

عطرَها وألوانَها وبَتَلاتِها وقاماتِها النحيلة وخدودَها الطريئة ترنّم مع المرنّمين: إليكِ الوردُ يا مريمُ يُهدى من أيادينا.

■■■■

خُذي بعضًا من وُرَيقاتِ روحِكِ واكتبي عنه يا مريم...
كانت الأريافُ والضفاف ملعبًا لولدي... والبراري والآفاقُ والسماوات والطرقُ المتّصلةُ بالأبعدِ والأعمقِ وبدخيلاءِ الأنفس وبالقلوب... كانت مسرحًا لعينيه. آخى الغابَ والغارَ والطيرَ، ورشَّ القمحَ على المفارق. افترشَ بساطَ المروج واتّكأ على جذوع الصنوبر وعلى أضلاع الصخور. لم يقيّدْه سلطانٌ، ولا أغراه تاج. جالَ في الدساكر، وصعد إلى التلال، وصلّى في ظلال الزيتون، ومشى في كلّ سبيل، ومدَّ يديه الضارعتين إلى الله كسحابتين... تبوّأ أعلى ذرى الحرّية حينَ تذوّق نعمة الحياة، وفي هُنيهتَي الصَّلب والقيامة.

وكان ولَدي رحمةً ولَيانًا وسكونَ نفسٍ ورحاباتِ صدر ومُشتكىً ورايات بيضاء، وصيّادين وحكماءَ وزَهَدَةً وحَمَلَةَ غرابيلَ ضوئيّة. وكان إذا مرّ يتحوّل الجَدْبُ «أنهرًا وجنائن»، وتعودُ السّيوفُ إلى أغمادها، وتفترُّ الثغورُ، وتُلجَمُ الغرائزُ، ويسقُطُ الجبروتُ، وتنتشرُ الرحمات... وتروي المكانَ ديمٌ تَهِلُّ من عَلُ، ويحِلُّ السّلامُ في القلوب.

وكان ولدي يسوع، فتى الألوهة، إذا ناداه مُنادٍ من جهاتِ جبلِ الأطياب، الحبيبِ لبنان، يَقطَعُ الرُبيَّ بعد الرُبيّ، من أواسطِ الجليل حتّى أعاليه، ويَشُمّ الترابَ ويُبارك، ويكسِرُ أرغفةً ويوزّع، ويقرأ الطبيعةَ ويمجّدُ خالقَها، ويعرفُ أنّ من سيَّج هذه البقاعَ بالأزرقِ البحريّ، والأبيضِ الصخريّ، والأخضرِ الدّهريّ، لن يتركَها لأنّها أهراءُ حقّ، وحديقةُ إيمان... ثمّ يروحُ يُبشّرُ مع مختاريه... من أرضِ هذا المشرق، وأرضِ لبنان، مشرقِ المشرق، ودرّتِهِ وجنائنِهِ الغنّاء...

■■■■

لبنانُ، يا سيّدتي، يحدوهُ شوقٌ إلى الحريّة... وإلى السلام... وإلى الايمان... وإلى أن يعودَ حقلاً تُبذَرُ فيه الرسالاتُ، وتطأهُ الأقدامُ المقدّسة...

أين الماءةُ التي صلّى عليها النبيّون؟ أين السّكينةُ والمصافحةُ والغفران؟ أين النسائمُ الطليقة وخيوطُ الفجر التي تتوزّع كيفما تشاء؟ ألم تعُدْ هذه الديارُ، يا مريمُ يا أمّي، أمانةً في يديك الطّاهرتين، وحلمًا جميلاً في بالِ فتَاكِ؟

«ويا سيّدتي... يا أمَّ يسوع... ويا حبيبةَ أمّي!
ها مرّةً خطرتِ الأمومةُ ببالي إلاّ وكنتِ
علامتَها الخالدة وسرَّها العظيم:
«أمّي ذكرتُكِ تضرعينَ إلى النقيّةِ
تضرعين إلى النقيّةِ
تضرعينْ:
يا مريمُ الأمَّ اقبلي منه الزّهيراتِ البتولةْ
يا مريمُ الأمَّ احمليهِ وأعطني طفلَ المغارةِ
كي أضُمَّ وكي تضمّي.
في كلّ أمِّ مريمَ تشتاقُ أن يأتي...
ومريَمَ كلّما طفلٌ أتى
تشتاقُ أن تبقى الأهينَةَ والرّسولةْ
قرأتْ ألوهتَهْ
وتابَعَتِ القِراءةَ في الطّفولَةْ».

هَلْ مِنْ أُذُنٍ تَسْمعُ!؟

عبده لبكي

عبده لبكي

رُحماكَ يا ربِّي أَعِدْ لِزمانِنا ... عَيْشًا رَغيدًا هانِئًا وَوَفيرا
واسْمَعْ صُراخَ النَّاسِ في بَلدٍ وهى ... أَلِفَ الظَّلامَ وكان قَبْلُ مُنيرا
نَهشَ الفسادُ جمالَهُ نهْشَ الضَّواري ... مُرْسِلاً في المُسْتباحِ زئيرا
فَهَوَتْ مشارِفُ عِزِّنا وتَحَطَّمَتْ ... قِيَمٌ، تُحصِّنُ مُثْرِيًا وفقيرا
أَهْلُ الكِياسَةِ كابَروا وتجبَّروا ... رَكِبوا رُؤوسَهُمُ غَلَوْا تَوْتيرا
رَهَنوا حِمى وَطَنٍ نَمَتْ أَجيالُهُ ... في الظِّلِّ، لكنْ أَخطأوا تَقديرا...
وَلَهُمْ أُبيحَتْ سوقُ كُلِّ تجارةٍ ... لَهَمُ الوظائفُ سُخِّرَتْ تَسخيرا
كَمْ حاول الشُّرفاء نُبْلَ إقامةٍ ... في أَرْضِهِمْ كي لا يَسؤُوا مَصيرا
لكنَّهُمْ واليأسُ عانقَ صَمْتَهُم ... شَدُّوا الرِّحالَ وآثروا التَّهجيرا
أَهِيَ الوقاحةُ قد طَغَتْ فَتَبَدَّلَتْ ... سُنَنُ الرُّقيِّ وحُوِّرت تَحويرا
فتُطِلُّ من شاشاتِنا بِغبائِها ... تُفشي الحميمَ، تُحلِّلُ التَّشْهيرا
وتُشَوِّهُ الذّوقَ الرفيعَ كأنَّما ... حقُّ الدِّعايةِ أن تصيرَ حَقيرا
فإذا التَّفاهَةُ وردَةٌ فَوَّاحَةٌ ... حَمراءُ تجذِبُ مُبْصرًا وضريرا
وإذا القباحَةُ في المظاهِرِ والهوى ... حُسْنٌ تبدَّى مُغْرِيًا ومُثيرا
وإذا اللَّطافَةُ خِدْعَةٌ زَيَّنَها ... الخُبْثُ الّذي لا يَسْتسيغُ بصيرا
وإذا الرِّياءُ مَفاخرٌ بَلْ قيمةٌ ... تَزْهو فتُوهِمُ جاهِلاً وخَبيرا
وإذا الوفاءُ خُرافةٌ مُضْحِكَةٌ ... والصِّدقُ يَفْتَقِدُ الكريمَ نَصيرا
وإذا التَّزلُّفُ مِهْنَةٌ رائجةٌ ... تُرضي، تُزَيِّفُ، تَسْتَدِرُّ قَديرا
إذا الحقارَةُ من طَحينٍ عَفِنٍ ... قَدْ قُدِّمَتْ خُبزًا لَنا وفَطيرا
المالُ ثُمَّ المالُ ثُمَّ سَبائِكٌ ... من ذَهَبٍ والماسُ صارَ سَريرا
لِلعابِدينَ ذواتِهِمْ وَلذائذَ الدُّنيا ... وما قَدْ يُشْتَهى تَجْويرا
مَنْ يَسْكُنِ الجَشَعُ المُمالِئُ نفسَهُ ... يَمْلِكْ عليها سَيِّدًا شرِّيرا
حتّى وإنْ بلغَ العَنان تحدِّيًا ... وعَلا وحازَ خَوَرْنَقًا وسَديرا
من لَيْس يَأْبى أن يكونَ مَطِيَّةً ... لِمَنِ اسْتَخَفَّ بِهِ يَظَلُّ صغيرا
أجواؤنا مَوْبوءَةٌ ذَرَّاتُها ... مَشْحونَةٌ كَذِبًا يلي تَبْريرا
ثَقُلَ الهواءُ فلَمْ تَعُدْ أكتافُنا ... تَقوى على حِمْلٍ تَحوَّل نيرا
فتقوّسَتْ، واحدَوْدَبَتْ من كَذِبٍ ... ظُهرانُنا، وغدا الشِّفاءُ عَسيرا
هِيَ صَنْعَةُ الكَذِبِ التي يُتْقِنُها ... مَنْ مارسَ التَّهْويلَ والتَّغريرا
قَدْ قيلَ في الماضي البعيدِ أَلا اكذِبوا ... تَصديقُكُم لا بُدَّ مِنْهُ أخيرا
لكنْ إلهُ الكَوْنِ نَبَّهَ قائلاً: ... إِنْ تكذِبوا، فالشرُّ يُضحِ أَميرا
لا يُسألُ التاريخُ أنْ يُغضي على ... كَذِبٍ بَغى، ويعايشَ التَّزويرا
كيما تكونَ ضمانةٌ لِمَنِ اسْتهانَ ... بِحقِّهِ أَوْ عاثَ فيهِ كَثيرا
إنَّ الحقيقةَ لا تَذِلُّ لِعابِثٍ ... أَوْ تُسْتَرَقُّ، ولا تَخونُ ضَميرا

جديد منشوراتنا

أيّها الأصدقاء - ٣

محاور في فلسفة كمال الحاج

جبران خليل جبران - في أعمال غير معروفة

سعيد عقل - أجراس الرحيل... والياسمين